الخباز

obeikan.com

obeikan.com

الغبار
رواية
إسلام شلتوت
الطبعة الأولى

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل :٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع :٢٠١٧/٣٢١٨٥
رقم الترقيم الدولي :978-977-798-067-8

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

obeikan.com

obeikan.com

ذكر ان (ابن خلدون) قد قال في مقدمته :

«إن الأرض بعد تقلب الفصول من فصل إلى فصل، تبدأ بلفظ أمراض وحشرات، لو تركت لأهلكت العالم، فيرسل اللّه الغبار، فيقوم بقتلها».

obeikan.com

مكتوب في مشكاة الإخلاص أن من أذنب ذنبا أبتلي بالنسيان، ومن أبتلي بالنسيان أصبح أسيرا للضياع، ومن أصبح أسيرا للضياع، فالموت خير له.

obeikan.com

وقفة أولي

في البدء، كانتا السماوات والأرض رتقا، ففتقا، وتناثر غبارهما في الأفق، فأمتد في فضاء غير فضائنا المعروف، ثم مرت أعوام طوال، لتتكون بعد ذلك كواكب وأنجم من ذلك الغبار المتناثر، وأزدادت أعداد تلك الأجرام السماوية مع مرور الوقت، فتكونت المجرات العظمي، واتسع الكون بلا توقف، فحمل بين أركانه الممتدة، آثارا لنجوم تفجرت، لتموت، من ثم يتكون غبار جديد، وتبدأ حياة أخري لجرم حديث الولادة، تكون بإنصهار ذرات الغبار السابحة في الكون، إذ أنها تلاصقت فيما بينها، لتصنع بتلاصقها كوكب مرئي، يزداد ثقله وحجمه شيئا فشيئا، بتكتل الذرات وإستقرارها فوق سطحه، وهكذا.. يتقلب الغبار في دورة لا تنتهي، تبدأ بالموت، وتنتهي بالموت، لتبدأ أقدار جديدة في الظهور، هي أقدار تلك المخلوقات التي تسكن الاجرام الصالحة للحياه، والتي سطرت أقدارها.. بالقلم.

obeikan.com

obeikan.com

-١-

وقف في منتصف تلك الغرفة متاملا وجوه من حوله، فوق تلك العلامة المرسومة على أرضية الساحة، والتي بدا أن عمرها من عمر إنشاء هذا المكان، وقد خطت على هيئتها تلك وقتها، كي تحدد مكان وقوف شخص مثله الآن، كانت عبارة عن مثلثات متداخلة تحيط بدائرة منحوتة، وبالرغم من الخطر الذي يحدق به من كل جانب، وتلك الوجهة التي يعلم أنه سيتجه إليها مجبرا بعد قليل-وقد دل عليها ذلك الزي الأحمر الذي يرتديه-، إلا أن علامات الشموخ والثقة بالنفس كانت تشع من عينيه التي بدت من وراء ذلك القناع الأسود الذي يخفي ملامحه، تلك السلاسل التي قبضت على يديه وقدميه، ذلك اللجام الذي يلثمه، زمرة الجنود التي تأججت بالسلاح وأحاطت به، كل ذلك جعله يوقن أن الخوف أصاب من حوله منه وليس العكس، إنه ليث أرعب صياديه، رغم تلك الشراك التي أوقعوه فيها.

أطرق إلى الأرض ثوان معدودة، ثم رفع بصره بسرعة إلى الأعلي ، تلك الزخرفة الرائعة لسقفية القاعة كادت أن تخطف لبه وتثير إعجاب ذوقه الفني، إلا أن عقله كان مشغولا بذلك التغير المفاجيء لوضعيته، لقد كان مقصودا وليس من قبيل الصدفة أو ضرب من الهباء والعشوائية، أمرا ما كان يريد أن يبعثه في النفوس برسالة غير ملفوظة، هز كتفيه كنوع من الإستعراض الإستهزائي بالوضع الحالي، نظر إلى تلك المنصة العريضة والتي أعدت لذلك القاضي المنتظر طويلا، الإنتظار كان نوع من الضغط النفسي عليه كي ينهار، إلا أن شخصا مثله، لا يفعل.

بعد ساعة من الإنتظار، سمع من الممر الجانبي للمنصة صوت وقع أقدام منتظمة تقترب، إنتبه له جميع من بالمكان من جند، فأتخذوا وضعية الإنتباه، ظل هو غارقا في تأملاته، ظهر القاضي من فوهة الممر وأتجه إلى المنصة ثم وقف أمامها، كان يرتدي ملابس إعتلاها التراب، مثل البقية من الموجودين، ومثل الأسد الرابض في مكانه، أعطي الجنود التحية للقاضي، فردها لهم، ثم جلس على كرسيه المخصص له وراء المنصة، خيم الصمت على المكان، وغط الجميع في سكوت أشبه بالموت، في حين راح المقيد يدندن بصوت خافت، جعل الجميع ينظر إليه بتعجب، إستمر في دندنته حتي مل اللحن، فزفر زفرة قوية أرهبت الجندي الواقف عن يمينه من مفاجأتها، فتأهب للهجوم عليه، إلا أن الجندي عاد لحالته السابقة بعدما تأكد أن قلقه كان لهاجس غير حقيقي.

بعد أن نفض التراب عن ملابسه، قلب القاضي في تلك الأوراق التي أمامه، ثم توقف عند إحداها، وراح يقرأها بتمعن، إستنزف دقائق قليلة في قراءتها، ثم بدأ يتحدث ..

- ....

لم يسمع كلمة مما قالها القاضي، كان في عالم آخر من وحي خياله، عالم ولجه عندما أغلق عينيه، فأحس ببرودة الهواء تلفح خديه، رأي قدميه تتبادلان التقدم فوق مضمار طويل، شعر بذرات الماء الصباحي تصافح ذراعيه العاريين، واللذين فتحهما إلى آقصاهما كمن يريد إحتضان العالم، السحب بدت بدون أهمية في هذا التوقيت، فالشمس على غير عادتها تلطفت في صحبتها له، نظر وراءه فوجد أنه إجتاز مسافة طويلة من الطريق، أسعده ذلك، فارتسمت على شفتيه إبتسامة محجوبة، رد النظر إلى الأمام فرأي دائرة من النور تقترب مع ركضه نحوها، إلا أن مسافة ما لازالت تفصل بينه و بينها، »يجب على إجتيازها«، هكذا قال في نفسه.

دقات متتابعة جعلته يفتح عينيه ويعود إلى واقعه، القاضي قد طرق على

obeikan.com

سطح المنصة بتلك الأداة التي بيده، والتي كان يعرفها، إلا أنه دوما ما كان ينسي إسمها، لقد سأل صديقه ذات مرة عنها، فأخبره عن إسمها، إلا أنه نسي بعد ذلك الموقف بدقائق معدودة، ولم يحاول السؤال عنها مرة أخري، نظر إلى القاضي الذي أوشك على الإنتهاء، لقد وصل إلى جملته التي تأذن بإنتهاء ذلك التجمع، وتلخص سبب وجود الجميع، إنتبه لصوته وهو يقول :

- وعليه، ولكونك من المخلصين، فقد تقرر الحكم عليك بالإعدام، ومن وجهة نظر المحكمة، فللأسباب السابق ذكرها، ولتلك الجرائم التي أنت متهم بها، فقد تم إختيار الحقن بجرعة ال(ستريكنين) كوسيلة لإعدامك.

قام القاضي من مجلسه، ثم غادر على الفور، وتبدلت الأجواء، وبدأ صوت الأرجل المتحركة يحف المكان، ثم أخذت أيدي الجنود تقبض على ذراعي السجين وتقتاده إلى خارج القاعة، ليجد نفسه يعاود السير في ساحة المبني الواسعة مرة أخري، والتي مر بها قبل مجيئه إلى قاعة الجلسة، وبصحبة القابضين، إتجه أقصي اليسار بعد خمسة وعشرين خطوة خطتها قدماه، فدلف إلى ممر صنعت جدرانه من الزجاج الساتر، وسار مسافة غير طويلة إنتهت إلى باب معدني، فتح عندما واجهه أحد الجنود واعطي بصمة إبهامه للجهاز القاريء للبصمات، فلما فتح.. رأي الأسير غرفة مليئة بالشاشات والأجهزة الإلكترونية، وعن يساره، وجد سريرا معدنيا، ألحقت به قيود لمن يتمدد عليه، عرف على الفور أن هنا ستكون محطة إنتقاله، أغلق الباب المعدني بعد دخوله وخمسة من الجنود، وظهر فجأة عن يمين الغرفة رجلا إرتدي نظارة للرؤية، ورداء أبيض يدل على أنه الكيميائي المعني بحقن الجرعة القاتلة، إلتف الكيميائي بجسده نحو المنضدة التي بجانبه، والتي عجت بقوارير طبية بها أنواع كثيرة من العقاقير والمواد الكيميائية، وأنهمك في عمله، في حين أخذ الجنود يمددون جسد الأسير على النعش المعدني، ثم راحوا يقيدونه بتلك القيود ويتأكدون من قبضتها عليه، جو الغرفة البارد جعل جلده يقشعر دون أي علامة للخوف، أخذ يتأمل الغرفة وجدرانها

obeikan.com

الناصعة البياض واللمعان، ولما إنتهي الكيميائي مما كان منهمكا به، توجه إلى الأسير حاملا في يده محقنة بها مادة شفافة وقد تأهب لحقنه، فقام أحد الجنود بفض ستر ذراعه الأيمن، ليشرع الكيميائي في حقن ضحيته، وما أن إنتهي من حقنه، سحب إبرة المحقنة ووضعها في غلافها، ثم ألقاها في سلة للمهملات، ثم جلس على كرسيه وأنتظر، وبعد خمسة دقائق.. بدأت التشنجات تظهر على الضحية، فأخذ يتلوي يمنة ويسارا، وأنحني ظهره الي الخلف حتي سمعت طقطقة لغضاريف ظهره، ثم تدفقت مادة بيضاء لازجة من تحت قناعه وتسارع تنفسه، وما هي إلا دقائق معدودة حتي أصاب الشلل جميع أطراف جسده، ليموت على تلك الحالة وقد تقعر جسده إلى الوراء، حينها توجه الكيمائي إلى خارج الغرفة هو والجنود، ليدخل غرفة أخري ذات بهاء وجمال بها رجل في الأربعين من عمره، إرتدي بزة رمادية اللون، تحتها قميص ازرق وربطة عنق بيضاء، كان جالسا أمام مكتبه الفاخر، فتوجه الكيميائي إليه ثم قال:

- لقد إنتهت مهمتي.

ليرد عليه الرجل المهندم ويقول :

- حسنا.. أعد جسده للتمثيل به.

اومأ الكيميائي برأسه موافقا لأوامر هذا الرجل، فخرج من عنده واتجه لحجرته الأولي ليعد جسد المعدم للتمثيل به، لكن ما إن وصل إلى الحجرة حتي جحظت عيناه من المفاجأة، فذلك الذي تم تنفيذ حكم الإعدام به منذ قليل ... لم يكن موجودا مكانه.

فوق مرتفع شاهق أكاد من خلاله أن ألمس السماء الأولي.. وبين أطراف الرداء السحابي الأبيض.. بدت قمم الجبال البعيدة خيام منصوبة فوق بحر واسع من الرمال الذهبية.. تكشفت الشمس من ورائها.. رويدا رويدا.. كفتاة عذراء تختلس النظر إلى رجل ألهب وقود الحب في مهجتها.. رغبة في إحتضان

الماضي تنساب في جسدي من ذلك المشهد.. الذكريات تجذبني إليها جذبا.. ورغم إن وجهها يشبه القمر في طلته لكنه لا يغيب مثله.. إنه ماثل في عقلي دائما وأبدا.. حياتي السابقة تمر من أمامي في طرفة عينه.. إنها سريعة مثل (برق).. وصلت إلى غاية ظللت أبحث عنها طيلة حياتي.. وها أنا في مغبة الريح أواجه مصير العالم وحدي.. لا أستطيع النظر إلى أسفل.. ليس لأنني لا أحب أن أنظر تحت قدمي وأنني دوما أحب أن أتامل السماء.. لا مجال للكذب على نفسي الآن.. لكنني أخشي ما سوف أراه مرة أخري.. سأغلق عيني لعل ذلك الخوف بداخلي يهدأ.. سأزفر الرعب مع الهواء الخارج من صدري وبعدها أتخذ القرار الصحيح، الهواء.. أشعر بالهواء القوي يهزني هزا.. يكاد يلقي بي من فوق ذلك الأرتفاع الخيالي الذي لم أبلغه مسبقا.. أشعر أيضا بأن جسدي يزداد خفة ويدي تتمددان.. أرغب في إلقاء نفسي بين يدي الهواء الرقيق ليحملني بعيدا.. بعيدا جدا.. عن تلك اللحظة.. عن ذلك المكان.. أشعر برغبة في الطيران.. سأطير.. سأطير بعيدا ولن تستطيع أي قوة اللحاق بي.. سأطير أسرع من أي طائر.. إنني أطير بالفعل.. إنني خفيف كريشة في يوم ربيعي الطقس.. لقد برحت مكاني.. لقد أرتفعت.. لقد أصبحت حرا.. الأشياء من تحتي تضمحل أكثر فأكثر.. وجسدي مستمر في السباحة بين موجات الهواء.. إنني أترقي.. أترقي إلى الأعلي.. إلى اللانهائية.. سأفتح عيناي لاري أي منزلة سمائية بلغت.. سأتطلع على وضعي الحالي في الكون.. لكن.. إنني.. إنني لازلت في مكاني.

***

obeikan.com

-٢-

في جزيرة ما كاد ضوء الشمس أن يغيب عنها إلى الأبد، حيث قامت حضارة قديمة على أرضها العتيقة، فقادت العالم بمصباح من العلم وأنارت عقول مظلمة، كان ذلك في عهد بائد راح ومضي، أما اليوم، فهي مهترئة، كزي بال فقد رونقه وأتلفه الزمن، فقد قادتها عقول تخبطت في مسالك الظلام، فهوت بها وبأهلها إلى قاع من قيعان الجحيم المستعر، البنية المجتمعية لم تعد متماسكة كما كانت من قبل، فبعد صفقة الاستثمارات التي تمت بين الدولة ورجال الاعمال الأجانب ، والتي اتخذت كإجراء تطويري بعد الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت الدولة، وعلي إثرها تم بيع العديد من قطع الأراضي لهؤلاء المستثمرين بهدف تعميرها، إنقسم المجتمع إلى ثلاث شرائح، الصفويون.. التحويليون.. ثم العوام، إمتاز الصفويون الذين ربطت بين أهلها وبين المستثمرين الأجانب علاقة قوية، بمكانة مرموقة في المجتمع، فكانوا هم أصحاب الطبقة الراقية، وكان منهم من له الكلمة المسموعة فيما يخص شئون الدولة، فهؤلاء هم ذوي رؤوس الأموال التي تدير كل شيء، في وقت غلبت فيه المصلحة والربح على كل مبدأ ومرجع، ولأن هؤلاء القلة كانوا يشكلون (الدائرة الوطنية العليا) ، وهو مجلس يهتم بترشيح المواضيع التي تقبل المناقشة من أجل مصلحة الدولة، فقد تدخلوا في أمور التشريع وسن القوانين التي تسير البلاد، فأتوا بما لم يأت به أحد من قبل، مثال ذلك تقديم فكرة إلغاء الأديان، متعللين بإن الدولة قد عانت قبل ذلك من الفتنة

الطائفية التي أودت بحياة الكثير من المواطنين وجعلت الدولة تجابه خطر التفكك، ولأنهم سيطروا على عقول سكان الدولة كما سيطروا على مواردها، فقد تعالت صيحات الجماهير المؤيدة للفكرة دون وعي لتبعات وأبعاد هذا القرار، من ثم تم قبول الإقتراح وسن قانون يمنع إنتماء أي شخص لأي دين، وإعتبار الكتب الدينية وما يتصل بها من تاريخ ادوات للتفرقة والعنصرية في المجتمع، ووصل الأمر بأن أي شخص يضبط ومعه أي شيء له علاقة بأي من هذه المعتقدات، يتم إتهامه بالتطرف ثم يحكم عليه بالإعدام، ويتم التمثيل بجسده بعد ذلك على مرآي من الجميع حتي يصبح عبرة لغيره، فيما بعد، تم تقنين الإنتحار الجماعي، تماشيا مع تلك الظاهرة التي إنتشرت نتيجة للخواء الروحي الذي عاني منه البعض، فتم إعتماد حفلات لذلك الجرم الإنساني من قبل المؤسسات المسؤولة، وأخذت الشركات تتنافس في رعاية تلك الحفلات الإنتحاري، من أجل هدف خفي وراء تستر دعائي موجه للطبقات الدنيا، كان ذلك عن طريق إعطاء مبلغ من المال لأسر المنضمين مقابل المشاركة تحت شعار»إنتحر وأضمن مستقبلا أفضل لأبنائك «، بالطبع.. كانت أغلب تلك الشركات طبية، وهدفها الحصول على أعضاء هؤلاء المنتحرين، لأجل شخصيات هامةكانوا بحاجة إلى زراعة أعضاء بشرية جديدة، كان المشاركون من التحويليين، - وهم شريحة مجتمعية تقطن بمدن قديمة في منتصف الدولة، يستمتعون بنوع من الرفاهية - أكثر من العامة - التي غالبا لا يستطيعون مواكبتها نظرا لثقل أعبائها، لذلك، فعندما يصبح أحد أفراد هذه الشريحة غير قادر على تحمل تكاليف العيش بها ، ينتقل إلى مناطق سكن العامة.لذلك سميت هذه المناطق بال(تحويلة)، لأن أهلها يتحولون من طبقة إجتماعية إلى أخري أدني منها، فكان من الصعب على شخص يعيش في التحويلة أن يعيش في منطقة العامة، التي هي أكثر إنحطاطا وعفونة، بل لا مقارنة بينها وبين أي من تلك الشرائح السابقة.

أما العامة والذين قطنوا الجنوب، فقد حصلوا على أسوأ شيء من كل شيء،

المرافق، الخدمات، المصالح -إن وجدت-، الأمن، الرعاية، كانت مناطقهم تمثل جحيم أرضي، كثر فيها الجريمة والمخدرات والطعام والماء الفاسد، وتفشت الأمراض الوبائية وأستشري الجهل، كل ذلك في تغاض من الحكومة عن ذلك كله، وكأنها مناطق لا تمت بصلة لتلك الدولة.

بالطبع في ظل تلك الحكومة الصفوية بدأت تظهر بدع غريبة على المجتمع، مثل تحليل الزنا، فأصبح الرجل يري إمراته في أحضان رجل آخر، دون أحقيه له في التذمر أو الغضب من ذلك، وتم تقنين المتاجرة في الآثار، وتأجير قناة (الوصل) المائية -التي كانت تدر دخلا كبيرا على البلاد، نظرا لعدم القدرة على إدارتها – لمجموعة من رجال الأعمال العالميين، وغير ذلك من الأمور، كل هذا والفجوة تتسع بين الأدني والأوسط والأعلي، وأحوال البلاد تنتقل من أسوأ إلى أسوأ، في كابوس واقعي لا ينتهي.

في ذلك الوقت، ظهر تنظيم سري أطلق عليه (العشيرة)، كانت مهمته مقاومة هذا الوضع المبتذل في الدولة، تم إطلاق هذا الإسم على ذلك التنظيم نظرا لرابطة الدم التي تجمع بين أفراده، فجميعهم ينتمون إلى المخلص الأول صاحب رسالة (الإخلاص)، أخذ ذلك التنظيم على عاتقه مقاومة القوانين الجديدة التي شرعتها (الدائرة الوطنية العليا)، خاصة قانون إلغاء الأديان، فحين تم تطبيق هذا القانون وتم تصميم محارق لإحراق الكتب الدينية، هب ذلك التنظيم لإنقاذ تلك الكنوز، والحفاظ على التراث الديني من الزوال، وحماية الهوية الدينية للمواطنين والدولة، وبالفعل، فقد تم تجميع أكبر قدر ممكن من تلك الكتب ومداراتها في مخابيء سرية تحت الأرض من المستحيل الوصول إليها في مناطق سكن العامة، هذا إلى جانب منشورات التوعية التي كان التنظيم يتولي نشرها في الخفاء فوق أراضي الصفوة والتحويلة، من أجل تعريف الناس بالمخطط المراد منه إلغاء الأديان، ولكن دون إستجابة، ففي كل الشرائح المجتمعية كانت الجماهير مشغولة بالتصارع على أشلاء الدولة، وكان كل فرد يناضل من أجل مصلحته الخاصة، فألهي المجتمع عن الخطر

الذي يواجه البلاد، وأصبح كل يغني على ليلاه، إلا قلة من الناس، أحسوا بأهمية تمسكهم بالإخلاص، فقبضوا عليه بأيديهم، وناضلوا من أجله.

(خالد كرارة).. احد الكتاب المشهورين سابقا، إشتهر خالد قديما بكثرة متابعيه من القراء لكتاباته الفلسفية والتاريخية، وكان محببا لدي المجتمع ككل وللنظام الحاكم، لما كان يكتبه من مقالات تشيد بالقيادة الحكيمة للبلاد، كان ذلك في عهد القيادة القديمة للرئيس الراحل، أما في ظل القيادة الحديثة، فقد إتخذ موقف هجومي على الحكومة وعلي الرئيس وفئة الصفويين، فحظي بسخط الطبقة سيدة القرار، تزامن ذلك مع الظروف السيئة التي أحاطت بالبلاد، ذلك المستنقع الذي بدأ المجتمع الغوص فيه، وبعد القرار الذي أتخذته (الدائرة)، أسس تنيظم العشيرة السري، وأنضم له العديد من الكتاب والمثقفين في الدولة، الرافضين للوضع القائم.
كانت القوات الأمنية تواجه ذلك التنظيم السري دون وعي منها، فبرغم من أن الطبقة التي تشكل الأجهزة الأمنية تنتمي للعامة من المجتمع، إلا أنها أصبحت آلة ضرب دون إستيعاب لتوابع ما تفعله، وكثيرا ما سقط القتلي من كلا الجانبين في معارك ميدانية مفاجئة تسببت في نشر الفوضي في الدولة، ولكن ظل التنظيم يؤدي دوره دون كلل أو ملل، آملا في قدرته على التصدي لهذا الخطر الذي يحيط بالدولة.
في تلك الأثناء، دفعت الدولة دفعا للدخول في حرب عالمية متوقعة، دون أي مبررات مقبولة سوي أنها يجب أن تنتمي إلى إحدي التكلات العظمي الموجودة بالعالم، الحرب التي تنذر بمعركة نووية عظمي قد تودي بالحياة على الأرض.لذلك.. فقد أصبحت الدولة في حالة تأهب قصوي، وأنتشرت القوات على أطراف البلاد وفي داخلها، وطافت الطائرات في السماء ليلا ونهارا، لتنشر في الجو غازات، تم الإعلان عن أمصال بها للإستنشاق كإجراء وقائي، وذلك لإمداد المواطنين بمناعة من أي غارات نووية قد تتعرض لها

البلاد، وتم الترويج لذلك الأمر في وسائل الإعلام، وعن طريق الدوريات التي تجوب المناطق المأهولة بالسكان، وطلب من سكان الدولة، الخروج مرتين في اليوم، لاستنشاق ذلك الغاز.

***

obeikan.com

obeikan.com

-٣-

« إنتهت رغبتي كليا في جلدي للذات، يكفي ما بها من قروح وجراح لن تلتئم إلا بانقطاع أنفاسي.إستسلمت لألد أعدائي في معركة لم أقو على النزال فيها، وتركت نفسي في مهبة الإغماء والبعد عن الحاضر لوقت ما غير معلوم، وأذن مؤذن في أذني:أن لعنة الإله على الماضي الذي لا يموت، ولا يتغير»

طفا جسده فوق محيط من القطن، أطرافه مرتخاة.. كنهر منساب، جفناه عامود من الضغط السائل فوق رأس مخلوق مائي على عمق مائة ألف قدم تحت سطح البحر، أحس بجاثوم مسائي يطبق على أنفاسه.. إلا إن ساعته البيلوجية تأبي الإعتراف بأن الوقت ليلي، عيناه تدوران لاهثة في فلك كروي، متعطشة لذلك الضوء الذي سيوقظ عقله المنغمس في بئر من الإعياء، تدحرج من مكانه كجلمود صخر حطه السيل من عل، وأرتطم بسهل صوفي بوار لا حياة فيه، وكعاجز في السبعين من عمره، رفع يده المشلولة أمام بؤبؤتيه ليري عقارب الساعة اليدوية، العقربان يشيران إلى التاسعة والنصف صباحا، عقرب الثوان يسير حذرا ومتأهبا للدغه مرة أخري في كل ثانية يدفع فيها الوقت للأمام.. إنه الموت البطيء.

أحس برغبة في تقيؤ أحداث قديمة عفي عليها الزمن، بصعوبة.. دفع بيده اليمني الأرض ليقيم جسده من رقاده، رفع رأسه المنهكة من ليلة مقضية في الملاهي الحلزونية، إرتكز على إحدي قدميه في محاولة منه للنهوض والتوجه لحوض يقضي به حاجة له.انتبه للمكان الذي كان فيه، إنه ليس منزله، لم يهمه الأمر، فكل ما يشغل باله هو الروث الذي يدفع معدته للإرتجاع،

obeikan.com

سمع صوت لقطرات ماء متساقط.. تتبعه، وجد أقدامه المرتعشة تأخذه إلى ذلك الحوض الواسع الملحق بالحجرة التي وجد نفسه بها، كان بلعومه على وشك إطلاق الذخيرة النافورية من فيه، إنقبضت عضلات بطنه لتجبر جهازه الهضمي على التخلي عن محتواه، أطلق صوتا يوحي بحشرجة الروح التي تصارع من أجل الهروب من ذلك السجن المادي الذي يحتبسها، سكن قليلا ليلتقط أنفاسه، تذكر حينها ذلك الملك النهم الذي صنع لنفسه مقيأة كي يتقيأ الطعام الذي أكله فيفسح المجال لأكل طعام جديد، تفكر.. أي غباء يدفع الإنسان لتحمل هذا المقدار من الألم والعفونة ؟ إنه الطمع، والرغبة في تملك كل شيء، هكذا قال في نفسه، عاوده الشعور بالتقيؤ مرة أخري، أحس بنصفه الاعلي يدفع دفعا إلى الأمام وملك الموت يعتصر رقبته، سكن مرة أخري لاهثا من التعب والإعياء، باحثا عن نذر قليل من الهواء تقتات عليه رئتاه، تمكن من إقتناص الأكسجين المنساب في الهواء ثم فتح الصنبور وأغترف غرفة من الماء بيده وتمضمض بها، غسل وجهه المنهك ليستفيق من غيبوبته التي كان غارقا فيها، فبدأ يعي إين هو، ولما شعر بقليل من القوة في جسده، إلتف، وتوجه إلى ذلك السرير الذي كان نائما عليه، أزاح مرتبته ، وأخرج من تحته سوطا جلديا، ثم خلع قميصه الذي كان يرتديه، وأزال قماشا طبيا كان ملفوفا حول الجزء العلوي من جسده، وبدأ يعد:

-واحد.. إثنين.. آآه.. ثلاث.. أممم.. أربعة.. خ.. خمسة

كان قد بدأ يجلد نفسه مع كل عدة يعدها، وبدت على ظهره علامات قديمة لم تشف بعد من أثر جلد قديم، والملحوظ في تلك العلامات أنها كانت متجمعه في النصف العلوي من ظهره، أي أنها كانت علامات لعمليات جلد كان يقوم بها بنفسه لنفسه.

واضعا يده اليسري على فمه، حاول كتم اصوات توجعه، وكأنه يصارع من أجل منع أي أناة تكشف عن أمره لأي أحد قد يحاول إستراق السمع خارج الغرفة، ظل يضرب نفسه بشدة أكثر وأكثر، وفي كل مرة كان يقسو على

نفسه بقوة تزيد عن سابقتها، الأمر لم يكن عبارة عن حالة من إستعذاب الألم، بل إنه كان يفعل ذلك لذنب أحس أنه يجب عليه أن يكفره، لتتساقط ذنوبه مع كل قطرة دماء ينزفها وكل أناة توجع يصدرها، ظل يجلد نفسه ويعد، يجلد ويعد، ويزداد قسوة على نفسه، وعندما بلغ الرقم الأربعين ألقي بالسوط في الأرض وخر منهكا على طرف سريره، ثم أمسك بمحرمة كانت بجانبه وراح يجفف الدم السائل على ظهره، وعندما إنتهي من ذلك أخرج شاشا أبيض من درج مكتب صغير كان بالغرفة ، بلله بمطهر للجروح موضوع على سطح المكتب، وراح يلف جسده به حتي يواري جراحه المكشوفة، ثم سمع ذلك الصوت الذي لا يبرح مسامعه يقول له:

-ألن تكف ؟

لم يعره إهتماما، فقد توجه إلى مكتبه الذي إستقر فوقه كتاب غلافه أحمر، مكتوب عنوانه في هامشه وهو.. (نحو عالم أحادي الرؤية)، كان الكتاب مفتوحا على صفحة ما بها أبيات من الشعر الغير منظم تقول :

إنقشعت الغمة عن العالم

وجاء إليكم

ذلك الفارس الرحال

مطموسة عينه اليسري

بزغ من تحت أرجلكم

لتتم إرادته

فتستحيل الأسوار المانعة

غبارا أمام بصره

إنه يقف فوق قمة المجد

ليبعث الوحش من موته

ويجلسكم على عرش العالم.

Obeikan.com

أغلق الكتاب، وأتجه إلى دولابه، فأخذ يبحث فيه عن قميص يرتديه غير ذلك الذي نزعه عنه منذ قليل، وبعد أن إرتداه، أخذ ينظر في تلك المرآة المعلقة على الجدار فوق حوض الماء، كان التراب يعتليها، فمسحها بيديه، وتامل تلك التجاعيد التي بدأت تكسو ملامح وجهه، ثم قال في نفسه:
- ألا يجد الزمن صفحة أخري غير صفحة وجهي، ليكتب عليها تاريخ حياته؟

في غرفة سرية تحت الأرض، جلس أعضاء المجلس القيادي لتنظيم (العشيرة) حول طاولة التداولات، من أجل مناقشة المستجدات الحديثة التي تعصف بالبلاد، فموضوع كالضربة النووية التي قد تتعرض لها الدولة، لهو أمر جلل يستحق مناقشته والتداول في أمره، وتباينت الآراء، بين متخوف من أمر الحرب وتبعاتها على الدولة والمواطنين، وبين متشكك في هذا الأمر برمته، وإرهاصه، بأنه قد يكون حيلة من إحدي الشركات الطبية الكبري بالتعاون مع الحكومة لنشر أحد الأمراض المستحدثة، عن طريق الغاز الجاري ضخه في الهواء، بحيث تحتكر الشركة المصل الوحيد لعلاج هذا المرض، من ثم تبيعه للمواطنين، ليدرعليها ذلك أرباحا طائلة، وبدأ الحوار (خالد كرارة)، والذي كان ممسكا بجهاز النداء اللاسلكي في إحدي يديه، فقال:
- إنني أشك في حقيقة الأمر، أظن أنه خدعة من القائمين على الحكم لبث الرعب في قلوب المواطنين لإحكام السيطرة عليهم، هناك تكتيك إلهائي وهو إذا أردت أن تجعل شخص ما يأوي إليك بصفتك الحامي الوحيد له، فعليك أن تشعره بان هناك خطرا قادما ليداهمه، واظن ان منظومتنا قد أثرت في نفوس المواطنين، ما جعل السلطويين يلجأون إلى ذلك التكتيك من اجل إلهائهم.
قال (سامي المعز)، أحد أفراد المجلس القيادي:
- أنا أؤيد (خالد)، وأتفق معه في كلامه، وأري إن ذلك هو التطور المنطقي للحالة اللي واجهت الحكومة، العشيرة تنظيم جديد من نوعه، فالتنظيمات

التي ظهرت من قبل كانت تعتمد على مواجهة الحالة المتردية، في المجتمع وتدعو للقيام على الدولة من أجل تحسين تلك الحالة، وغيرهم من إستغل الدعوي الدينية للوثوب على الحكم، أما تنظيمنا، فهو يدعو للحفاظ على الهوية الدينية للدولة، صحيح أنه لم يحدث من قبل أن قامت الدولة بالتحذير من خطر خارجي عندما كانت تلك التنظيمات موجودة، لكن وقتها لجأت لأمور أخري لتشتت تفكير الشعب، أعطيكم مثالا.. تنظيم مثل تنظيم (المواجهة) الذي ظهر من عدة أعوام مضت، قامت الدولة حينها بعمل حملات تطويرية في مناطق العامة لتحسين الصحة والمرافق، في نفس الوقت، قضت على أعضاء هذا التنظيم ومحتهم من الوجود، لكن أمر الحرب النووية التي ستمر بها البلد يجعلني أستنتج أمرا، وهو أن العشيرة تنظيم قوي بالفعل، للدرجة التي جعلت القيادات العليا تشعر بالقلق منه، وقوته تكمن في أن دعوته تمس الناس كلها، سواء الطبقة العليا او أهل التحويلة أو العامة.

قال (وائل مدكور) :

- ولماذا لا يكون الأمر حقيقيا ؟ لماذا لا نكون معرضين بالفعل لضربة نووية ؟

قال (سامح عقل) :

- لإن علاقتنا بالدول المجاورة لا يوجد بها ما يوحي بذلك، حتي دولة (شيريقانا) التي من المفترض أن الضربة النووية ستأتي منها بيننا وبينها علاقات دولية ومصالح مشتركة، فما الذي يجعلها تقدم على ذلك؟ كان بالأولي أن يحدث ذلك من دولة مثل (كاميغاروش) أو أخري مثل (واريهان)، لإنهم ومنذ قديم الأزل وبيننا وبينهم تاريخ أسود، وكلنا نعرف أنهم يضعوننا نصب أعينهم.

رد (ماجد فكري) قائلا:

- كلامك صحيح ..لكن الإتفاقية العالمية الجديدة جعلت دولتنا تنتمي للتكتل المعادي لدولة (شيريقانا)، معني ذلك أنه لو تم أي هجوم من (رواتشينا) العظمي على أي دولة في التكتل المواجه سيحدث هجوم علينا بالتبعية،

obeikan.com

وذلك لإننا أصبحنا ننتمي لل(ضلع المنحني)، فلا داعي للتعجب من ان تقوم (شيريقانا) بتهديدنا بالهجوم كوقاية من الهجوم عليها، خاصة أن المعاهدات الدولية الآن لم يعد يعتد بها كما كان من ذي قبل.
دار بجسده ثم قال :
- أم ماذا تري يا نجيب ؟؟ نجيب.. إين هو؟
لقد كان كرسيه فارغا، لكن باب الغرفة قد فتح ودخل منه (نجيب الراوي)، والذي إنتهي للتو من دورة سعاله التي تسبب بها ذلك الغبار الهائم في الهواء، فقال بصوت خافت لم يسمعه احد:
- تبا لهذا الغبار اللعين.
ثم وجه حديثه للموجودين، فقال :
- أنا أري أمرا مختلفا عنكم، أري ان موضوع الهجوم النووي حقيقي، لكن في نفس الوقت هناك أمر لا أفهمه، تلك الغازات التي تنشر في الأجواء، منذ متي والدولة تقوم بإجراءات لصالحنا ؟ لو كان هذا يحدث مثلا في أراضي الصفوة كنت سأقول أنه أمر طبيعي، إنهم يخافون عليهم، فهم سادات الدولة، أو بالأحري.. كان سيتم نقلهم إلى دول أخري خوفا عليهم، إنما نتساوي بهم ؟ هناك أمر لا يبلغ عقلي، صحيح.. نسيت ان أعتذر عن تأخري، فقد كنت أغط في النوم من الإرهاق.
نظر إليه (خالد) نظرات ذات مغزي لم يفهمها إلا كلاهما، لكن قطع ذلك الإتصال البصري كلام (سليم الصباغ) :
- أتفق معك تماما، لكننا مصدر قوتهم، مثلا إذا كانت هناك حرب فعلا فمن سيكون وسيلة الدفاع البشرية ؟ ولو كان أمر الغاز مرضا يتم نشره فمنسيدفع المال ليزدادوا هم ثراءا ؟نحن ..الشعب، إنهم في حاجة إلينا، إين (صبري) يا (خالد) ؟ لم الرجال غائبون اليوم ؟
رد (خالد) الذي بدا عليه أنه مشغول بجهازه اللاسلكي:
- (الطيار).. سيحضر بعد قليل، إنه يجهز تقريرا من المفترض عرضه عليكم

اليوم.
الطيار.. هو لقب ألحق ب(صبري فواز)، وذلك لقدرته على الكر والفر بسرعة أثناء العمليات السرية الخاصة بالتنظيم.
ترك (خالد) جهاز النداء الآلي من يده، فوضعه على الطاولة، ثم قال:
- لا ادري لم أجد صعوبة في التواصل مع مقراتنا الأخرى، لا أحد يرد على من جانبهم.
رد (الصائغ) قائلا:
- يمكن أن يكون عيبا بشبكة الإتصال.
في تلك الأثناء فاجأ سمع أعضاء المجلس طرقا سريعا، كاد من قوته أن ينخلع باب الغرفة.
قال (خالد) مفزوعا:
- ليفتح أحدكم الباب..
قال الراوي، مشاورا بيده اليسري، حاضا الجميع على الجلوس :
- أنا سأفتحه ..
قام الراوي من مجلسه حول الطاولة واتجه مسرعا نحو الباب ليفتحه ، فوجد أمامه (شوكت)، أحد أعضاء (العشيرة)، وقد غطت الدماء جبهته وملابسه ، كان يتنفس بسرعة محاولا إنتشال ذرات الأكسجين من الهواء، قبض بيديه على جنبه الأيسر المتفجر بالدم، قال له (الراوي) بفزع :
- (شوكت) !! ماذا بك ؟ ما الذي حدث؟
روع المشهد أعضاء المجلس، وقام (خالد) من مقامه في ذهول وبدا عليه القلق من شيء بدا أنه كان ينتظر حدوثه وحدث عكس ما توقع، أما (ِشوكت)، فقد دفع باب الغرفة بكتفه وهو يحاول جر أقدام جسده المتهالك ليدخل الغرفة، باحثا عن كرسي خال حول الطاولة ليلقي عليه جسده المتهالك، فوجد كرسيين خاليين أحدهما لل(راوي) والآخر يخص (الطيار)، فجلس على أقربهما إلى خطواته وهو كرسي (الراوي).

obeikan.com

سأله (خالد) وقد وقف قبالته :
- ما الذي حدث يا (شوكت) ؟ وأين (الطيار)؟
قال (شوكت) وقد إنهار في البكاء :
- أفراد الطاقم ماتوا بالكامل يا سيدي، ماتوا، و(الطيار).. (الطيار) ضحي بنفسه كي يحمينا، كلهم ماتوا وانا الوحيد الذي إستطعت الهرب.
-ما الذي حدث بالضبط ؟ إرو لي ؟ (سامح).. فلتبحث عن أحد يمكنه مداواة جروحه.
قال (وائل):
- سأدعوا (ماجد) للقدوم، إنه خبير بالطب..
إرتكز (خالد) على قدميه مقتربا من رأس (شوكت) المتطأطئة:
- قل لي يا (شوكت).. ما الأمر ؟
قال (شوكت)، وقد رفع رأسه محاولا التماسك لإخراج الكلمات من فمه:
- عمليتنا السرية.. إكتشفت، بعدما تسللنا مع (الطيار) لمبني المخابرات، وحصل على المستندات التي كنا نبحث عنها، سمعنا صفير إنذار في المبني، وبرغم من تخفينا، إلا إننا وجدنا قوات الأمن تحدق بنامن كل جانب، قفمنا بتشكيل صفين دفاع لنحمي بقيتنا في المنتصف، وظللنا نطلق الرصاص عليهم، فنعطي فرصة الهرب لبقيتنا، ونجحنا في ذلك، ولكن.. ونحن في الخارج، وجدنا كتيبة من المدرعات تحيط بالمبني ، ركضنا بسرعة ونحن نحاول تحاشي ضرب طلقات الرصاص نحونا، وأستطعنا أن نصل إلى عربة من العربات الموجودة بالطريق، إتجه حينها (الطيار) لإحدي العربات وحده وأمرنا بألا نصعد معه فيها، ركبها وقادها بسرعة نحو التكتل الأمني وفجر نفسه بها ليعطينا فرصة للهرب، هربنا فعلا لكننا وجدنا عربات أمنية تطاردنا، ومن تبقي من الفريق كانوا في سيارتين أخريين، و...و..
وأنفجر (شوكت) في البكاء مرة أخري وأجهش، فلم يستطع أن يلفظ أنفاسه فقال له (خالد) :

- إلتقط أنفاسك.. ببطء.
قال (شوكت) لاهثا :
- إنفجرت إحداهما بعدما وجهت إليها قذيفة نارية، أما الأخرى.. فكنت بها أنا و(سعيد)، (سعيد) كان مغطي بالدم من الرصاص الذي ملأ جسده، لم يستطع أن يتحمل الجروح اللي كانت به ومات ونحن في الطريق، لم ..لم أتمكن من عمل شيء له، لم أستطع مساعدته.
صرخ (خالد) بعلو صوته:
- يا (وائل) !! إين أنت كل هذا ؟؟ فليستعجله أحدكم.. إبحثوا عمن يقدر على معالجة هذا الجرح.ألم تستطيعوا أن تجلبوا المستندات يا)شوكت (؟
هرع باقي أعضاء المجلس للخارج لبحث عن أي وسيلة مساعدة لعلاج جرح (شوكت) فيما بقي في الغرفة)الراوي(و)خالد(.
قال (شوكت) :
- لقد ماتوا كلهم يا سيدي.. ومات الطائر.
- الاوراق يا (شوكت) !! المستندات.. ألم تستطيعوا أن تجلبوا أي شيء منها؟؟
- للأسف لم نفعل.. لكن (الطيار) قبل أن يتركنا ويتجه إلى العربة أطلعنا على أمر هام لنبلغك إياه..
- وما هو ؟
- الحكومة أعدت ملاجيء لتسكين اهل الصفوة فيها، وهناك تعتيم شديد فيما يتعلق بذلك الأمر.
- ملاجيء ؟
- نعم، يظن (الطيار) أنها لتحميهم من أثر الضربة النووية المتوقعة.
نظر (خالد) إلى)الراوي (ثم قال :
- معني هذا أن الضربة النووية أمر حقيقي.
قال)الراوي(:
- وأن الحكومة كانت تعرف بأمر الهجوم منذ فترة طويلة قبل الإعلان عنه،

ما أعطاها الوقت الكافي لبناء تلك الملاجيء.
ثم توجه بكلامه إلى (شوكت) فقال :
- والغاز.. ما أمره ؟ هل هو إحتراز وقائي بالفعل لصد خطر تلك الضربة ؟
رد (شوكت):
- لا اعرف.. لكن كل ما فهمته من (الطيار) عنه أنه نوعان، أحدهما يدعي(كرونيزايمر)، والآخر يسمي (أكيوتيزايمر).شيء آخر أخبرنا به (الطيار)، وهو أنه يوجد تنظيم سري يسيطر على الحكومة، وإنه يعد لمرحلة جديدة قادمة تدعي (TOE)، هذ التنظيم له أفراده المندسين في الصفويين، وهو ما دفع قادة الدولة إلى التوقيع على إتفاقية التحالف العالمي.. هناك أمر آخر أرادنا أن نقوله لك وأنت بمفردك.
هم (الراوي) بالخروج من الغرفة على إستحياء، لكن (خالد) جذبه من يديه يريد منه الإنتظار، ثم قال (لشوكت):
- (نجيب) يعرف أدق الأسرار التي لا يعرفها باقي المجلس، إغلق الباب علينا يا (راوي)، قل يا (شوكت)، ما ذلك الأمر ؟
- أنا .. أنا لا أري أي شيء يا سيدي.. هل.. هل قام أحدكم بإطفاء الأنوار ؟؟ أم.. و.. أم أنني أموت ؟؟
- تماسك يا (شوكت).. سيأتي الآن من يداوي جراحك.
- إنني أموت.. إنني أموت يا سيدي.
- ماالذي رغب (الطيار) في أن تبلغني إياه؟؟
- قال لي أن أبلغك بوجود خائن في مجلس القيادة.. أنا لا أشعر بقدمي، لا أشعر بأطرافي، إنني أموت.
إستند (خالد) على الطاولة وأنتصب ببطء وعلي وجهه علامات الذهول من الصدمة، فقال مندهشا:
- خائن !

***

- ٤ -

عاد باقي أعضاء المجلس إلى الغرفة، وبصحبتهم الطبيب (ماجد)، لمعالجة (شوكت)، في لحظة توقفت فيه الزمن بالنسبة ل(خالد) و(الراوي)، الحياه بدت كلقطة بمشهد في أحد أفلام الحركة، طلب المخرج فيه تبطيء السرعة لتوحي للمشاهد بأهمية هذه اللحظة الفارقة، والتي يكتشف فيها البطل بطلان ما كان يعتقده أصل الحقيقة، ذلك عندما قال (شوكت) كلمته الصادمة.. (خائن).وقعت تلك الكلمة كالرعد على مسامع كل من (خالد) و(الراوي) فأصمتهم عما حولهم من الأصوات، ونظرا إلى بعضهما البعض في ثوان إمتلأ الأثير فيها بشيء من الرهبة والقلق، (خائن)، يوجد بين العشيرة (خائن)، وإين يوجد ؟؟ إنه في لب التنظيم، فيروس مندس في العصب، ضربة مباشرة موجهة بحرفية إلى قلب الأسد، محاولة لقطع آخر خيط مانع للسقوط في بئر ضياع الكيان.

ممسكا بيد (شوكت) اليسري ليتحسس نبضه.. تفوه (ماجد) الطبيب بكلمات غير مسموعة لهما:

- النبض توقف، لقد مات.

لم تثر الكلمات أيا من (خالد) أو (الراوي)، فقد ظلا على حالتهما من الجمود والثبات.

قال (سامح):

- لقد مات (شوكت) يا (خالد)، (خالد).. أقول لك أن (شوكت) قد مات، ماذا

بك ؟ و(نجيب) أيضا ؟ما الذي حل بكما؟ ماذا يحدث ؟
رد (خالد) قائلا:
- الذي يحدث هو أننا ننتهي.
قال (سامي) متعجبا:
- ننتهي ؟ ماذا تعني ؟ ما الذي يعنيه (خالد) يا (نجيب) ؟
قال (الراوي) :
- لقد كان (وائل) على حق..
إنتبه (خالد) :
- (وائل).. !!
أخذ يتصفح وجوه من حوله ثم تساءل:
- إين وائل ؟
نظر الجميع حولهم باحثين عن (وائل)، لكنه لم يكن حاضرا بينهم.
قال (ماجد) :
- (وائل) ليس موجودا بيننا، هل تريد منه شيئا ؟ إنه في الخارج بالتأكيد ..
قال (شريف) :
- لكنني لم أصطدم به في الخارج، عندما خرجنا لنبحث عن ماجد لم يره أحد منا.
دارت رأس (خالد) مصطحبة عيناه فوق محور رقبته لتواجه عيني (الراوي)، وأرتعشت شفتاه وهو يحاول التفوه بكلمات قطعت أحشاؤه قبل خروجها..
- إذن فهو (وائل)
إستدركه (نجيب) :
- (الخائن) !!!
إنتاب الفزع باقي أعضاء المجلس، وهمس بعضهم إلى بعض بهمسات إختلطت على المسامع فلم يستدل على شيء من محتواها إلا على حرفي الخاء والنون، إلى أن قطع رأفت تلك الهمسات بتلك الكلمة التي جلجلت

obeikan.com

كذيل أفعي غاضبة في جو ملبد بالفزع:
خائن !!!
كان وقعها أشد وطأة من ذي قبل ..
تساءل (سامح) :
- أي خائن ؟ ما القصة ؟
متجها نحو المكتب الذي بالغرفة لجلب ما يمكن إنتشاله من الأوراق الهامة من الدرج، تحدث (الراوي) قائلا:
- لا يوجد وقت.. يجب أن نسرع، إننا في خطر.
قال (خالد):
- وائل خائن.. خدعنا كلنا.
تسائل (رأفت) :
- كيف ؟؟
قال (الراوي) متعجلا :
- ليس الآن يا (رأفت) ..، لا يوجد وقت لدينا.
قال (خالد)، وقد تسمر في مكانه مستشعرا بأهمية هذه اللحظة :
- ولإنه لا يوجد وقت يجب أن يعرفوا الحقيقة، الحقيقة يجب أن تعرف لا لشيء إلا من أجل أنها الحقيقة، الحقيقة غاية في حد ذاتها، لقد إتضح أن (وائل) خائن، كان يتعاون مع الحكومة ضدنا، خدعنا طوال الوقت الماضي، العملية التي كان بها (الطيار) إكتشفت، وعندما جاءنا (شوكت) الذي كان في طاقم العملية وهو بتلك الحالة التي كان عليها، عرف (وائل) أن عمليتنا قد فشلت، فهرب مع أول فرصة للهرب، فقد خاف أن يكشف (شوكت) غطاءه امامنا، خاف أن نفتك به لو عرفنا خيانته، لم يكن يعلم ان (شوكت) نفسه لم يعرف من ذلك الخائن، لكنه كشف نفسه بنفسه عندما فر، الإحتمال الكبير الآن هو أن الحكومة عرفت مكاننا هنا، وأنهم في الطريق إلينا للهجوم علينا، فيقضوا على آخر فرصة حاولنا بها أن نحافظ على كياننا.

قال (الراوي):
- وهذا ما يفسر عدم تمكنك من الإتصال بالمقرات الأخرى.
قال (شريف) :
-(وائل) خاننا ؟ معني ذلك أنه لم يتبق في التنظيم غيرنا، (الراوي) معه الحق.. لا يوجد وقت لدينا، يجب أن نهرب، وبسرعة.
قال خالد:
- كيف إستطاع أن يخدعنا طوال هذا الوقت ؟ كيف إستطاع أن يخدعني؟
قاطعه (الراوي):
- (خالد).. لقد جهزت أوراقنا الهامة والتي نحن في حاجة إليها، لازال يوجد لدينا فرصة للفرار والنجاة بانفسنا.
ثم نظر إلى جميع من بالغرفة وقال بحدة :
- لا تجعلوا أمرا كهذا يقتل الأمل في نفوسنا، لا تجعلوا أمرا كهذا يقضي علينا، لازال أمامنا وقت نؤسس فيه أنفسنا من جديد، طالما نحن على قيد الحياة إذن.. فهناك أمل.
و في عجالة ، خرج الجميع من الغرفة وتوجهوا لغرفة الأسلحة والذخيرة المجاورة لغرفة المجلس، حيث دجج كل منهم نفسه بالأسلحة الخفيفة والذخيرة الكافية إستعدادا لأي مواجهة معادية قد تفاجئهم، كان (سامي) قد سبق الجميع ليحذر باقي أعضاء التنظيم المتواجدين في ذلك المقر من اجل الإعداد للفرار.
مرورا بالدهليز السفلي.. صعودا إلى الساحة الواسعة التي تحت الأرض، إجتمع ما يقرب من مائة شخص من تنظيم العشيرة، من بينهم، أعضاء المجلس القيادي.إصطف الجمع أمام قادة التنيظم، منتظرين الأوامر التي إعتاد (خالد) أن يلقيها في موقف كهذا، عندما تكون القوات جاهزة وعلي اعدتها، ولكنه لم يستطع أن ينطق ببنت شفة، وقف أمامهم كمن أصيب بالخرس وفقد الكلمات التي بمعجمه الخاص، إستشعر (الراوي) بعجز (خالد)

النادر في ذلك الموقف، فتقدم ليوازيه من على يساره، وأمسكت يده اليمني يد (خالد) اليسري وقبض عليها، حينها نظر (خالد) إليه وهز رأسه نافيا وهو ضام على شفتيه، ففهم (نجيب) كل ما أراد (خالد) قوله وعجز عن التصريح به، فأومأ (نجيب) برأسه وقد جحظت عيناه اللتان إمتلأتا بالتحدي والإصرار، ثم تحدث بصوت قوي، إهتزت له أركان المقر، فقال:

- عندما بدأنا هذا التنظيم كنا مدفوعين بفكرة، كل رجل منا إنضم للتنظيم كان يعرف تمام المعرفة، ويتوقع ما الذي من الممكن أن يتعرض له ويواجهه بسبب تلك الفكرة، رغم ذلك.. صممنا أن نكون جزءا من التنظيم، لم نسكت، لم نخف أو نجزع، رغم كل الإضطهاد الذي تعرضنا له، رغم كل الظلم الذي لحق بنا، ظللنا متماسكين ووقفنا في وجه الباطل وقفة رجل واحد، لم يتراجع أحدنا في قراره، إيماننا بالفكرة هو ماجعلنا نصمد، هو الذي جعلنا نواجه أي شيء يحاول القضاء علينا بنفس شامخة وقلب قوي، الإختبار الحقيقي لا يأتي في وقت معلوم، إنه يظهر فجأة من مخبئه كالموت، واليوم.. اليوم هو موعد الإمتحان الحقيقي، إمحتان لقوة إيماننا بفكرتنا، والإمتحان.. من المحنة، فمن الممكن أن يقوموا بهدم كل شيء أجهدنا بنائه، من الممكن أن يبيدونا عن بكرة أبينا، ويطسموا أي أثر لنا على هذه الأرض، لكنهم لن يستطيعوا أن يزعزعوا الإيمان في قلوبنا، لن يقدروا على نزع الإخلاص من صدورنا.إنني اثق بكم.. بكل شخص منكم، واعرف حق المعرفة أنه إذا كان الخوف قد تملك من أحدكم، فهو ليس الخوف من الموت، فجميعنا راحلون إليه، إنما هو خوف على تلك الفكرة السامية التي ستموت معنا، لكنني أحب أن أطمأنكم فأقول، إن فكرتنا غير قابلة للموت، فحتي إذا متنا جميعا ستبقي فكرتنا، ستحيا لأنها حق، وإلهنا قال عن نفسه أنه الحق، والحق أبدا لا يموت.

الكلمات التي تخرج من القلب لا تجد لها منفذا إلا القلب، لذلك كانت لكلمات (الراوي) أثرا قويا في نفوس الجميع، هزت مشاعرهم، وأيقظت الحماسة في قلوبهم، وزادتهم إخلاصا فوق إخلاصهم، وتعالت صيحات

التهليل في أركان المكان، فكاد السطح الأرضي للمقر أن يتساقط متأثرا بدوي صيحاتهم المشحونة بالإيمان والغضب والإرادة، حينها نظر (خالد) و(الراوي) إلى بعضهما البعض وهما يبتسمان، وألتف باقي أعضاء المجلس حولهما، مربتين على كتف نجيب، مسرورين بتلك الطاقة التي ألقاها في روح التنظيم، فاحيتها، بعد أن أوشكت على مفارقة الحياه.

***

obeikan.com

- ٥ -

«لازالت أمامنا فرصة للإختفاء، لن يستطيعوا أن يدخلوا مدن العوام عن طريق البر، الحل الوحيد أمامهم هو توجيه ضربة جوية إليها، حين ذلك فإن الفرصة سانحة لنا للفرار بعيدا.»

كان ذلك كلام (ماجد عقيل) الذي قاله بعدما خرج أعضاء التنظيم إلى الطريق الرئيسي الموجود بأعلي المقر، فقد بدت الأجواء على حالتها المعتادة، ودل ذلك على أن هناك متسعا من الوقت يسنح للهروب، فالقوات الأمنية ستجد صعوبة في دخول مدن العوام لطبيعتها العشوائية، والتي ليسوا خبراء بها كأعضاء العشيرة.

تاركة المركز الرئيسي.. تحركت السيارات وبداخلها من تبقي من أعضاء التنظيم، في محاولة للتوجه إلى الصحراء، للعثور على مخبأ يصلح للتواري فيه عن أعين الحكومة وقواتها المطاردة، فبحسب توقعات القادة، لقد هوجمت المقرات الأخرى، ولم يتبق من أعضاء التنظيم غير هذا العدد الضئيل منهم، وكان المتوقع هو ما حدث بالفعل، لذلك كان من الضروري المحاولة للحفاظ على آخر جذر (للعشيرة) صالح للإنبات من جديد، فقد إحترقت الشجرة باكملها، وبالرغم من أن المؤشرات تدل على أن ذلك قد يكون محض خيالات يستحيل تحقيقها في خضم المأزق الحالي، إلا أن شعور الفلول بأهمية القضية التي حملوا على عاتقهم الدفاع عنها يأبي عليهم الإستسلام والخذلان، ويدفعهم دفعا للدفاع بإستماته عما آمنوا به وأعتقدوا فيه، فالإنسان لا شيء بدون فكرة أو إعتقاد يعيش من أجل الدفاع والذود عنه، حتي وإن كان ذلك

obeikan.com

محض تهيؤات يرسلها العقل الباطن في صورة ذبذبات عصبية، توحي للعقل الواعي بأن ذلك الأمر ممكن.. بل أكيد.

ضوء الشمس كاد يختفي من أثر ذلك الغبار الذي ملأ الهواء، فأحال كل شيء إلى اللون الأصفر، فمنذ شهور مضت.. إجتاحت البلاد رياح ترابية أتت من جهة الغرب، حملت في جعبتها المليارات من الذرات متعددة المصادر، فمن هذه المصادر المحتملة.. عوامل التعرية، والتي قد تكون نتجت من تشقق صخور هابطة، سقطت من سفح أحد الجبال، فانتجت بعض الذرات من تشققها، وظلت تعيث في الهواء لأمد من الزمن، فلم تجد لها مستقرا، أو لعلها أتربة سكنت في إحدي المقابر المنسية نتجت عن تحلل لجسد أحد الموتي، فتحركت بتحرك الرياح، أو حتي ذرات من التراب الفضائي والذي أتي إلى الأرض فتداخل مع أشباهه، مكونا ذلك الغبار، إن الصغائر الخفية هي أسس الأشياء الجلية، فذرة واحدة لا تري بالعين المجردة، أصغر من أصغر مخلوق بكتيري، تسبح في السماء بعشوائية تامة، تتقابل مع أخري مثلها فتلتصق بها، ليكونان معا ذرة أكبر، وتستمر الرابطة، فتتكون في الحصيلة حصاة مرئية، قد تصيب أحد الخلق في إحدي عينيه فتؤذيه، فإذ به يغلق عينه المصابة بشذرة الحصاة، ويضع إحدي يديه عليها من الألم، وقد يغلق عينه الأخرى، حتي لا يصيبها ما أصاب أختها، فيصبح غير قادر على رؤية الأشياء على حقيقتها، فيصطدم بمصيبة مفجاءة لم تخطر له على بال، ولم يعد العدة لمواجهتها، كسائق لسيارة ما، يقودها على سرعة قصوي في طريق سريع، تصيب عينه إحدي الحصوات التي تحملها أياد الهواء المتلاطم، فإذ به يترك المقود، وذلك ليحاول تقليل الألم عن طريق فرك عينه، وفي حركة لا إرادية منه يغلق الأخرى السليمة، ولكن.. عندما يفتحهما، يفاجأ بأنه على وشك الإصطدام بحائل ما، فيفقد السيطرة، ويلتقي بمصيره المحتوم.

بفيلق يتكون من أربعة وعشرون سيارة، وكجيش منظم يتكون من مقدمة ومؤخرة، وميمنة وميسرة، وقلب.. إجتاح الفيلق الطريق الأسفلتي المحاط

من كلا جانبيه بالذهب الرملي، مخترقا السد الهوائي الدافع، ناثرا وراءه غبار التحدي والتصميم، وفق تغيير منظم تبادلت السيارات أماكنها أثناء السير في محاولة لتضليل أي عنصر مراقب عن السيارات التي تحمل القادة، فمرة تتبادل سيارة من الميمنة مع مكانها مع واحدة من المقدمة، ومرة تتبادل سيارة من الموخرة مكانها مع أخري من القلب، مع الحفاظ على استمرارية تواجد السيارات التي تحمل القادة بالقلب من أجل حمايتهم.

في إحدي السيارات، كان (خالد) يجلس في الأريكة الخلفية بجانب صديقه (الراوي)، حاملا سلاحه، ومن وراء عدسات نظارته السوداء، والتي إرتداها على غرار بقية أفراد التنظيم حتي لا تتآذي عينه بذرات الغبار، أخذ يتأمل (نجيب) الذي أمسك بإحدي الخرائط، والتي إنهمك في البحث فيها، ظل (خالد) يراقبه لفترة أكتنفها الصمت، حتي أرهقه طول الصمت، فسأل (نجيب) مستفهما:

- تعتقد.. أي مكان يتناسب والتوجه إليه؟

أخرج (نجيب) من جيبه علبة سجائره، إلتقم أحدها بفمه، ثم رد بكل ثقة:

- نحن الآن على أطراف المدن، نتجه نحو الغرب، حيث نسلك طريق (العزازي)، سنجد في نهاية هذا الطريق منطقة تكتلات جبلية بالقرب من الساحل، إطلق عليها (قشر السمك النيء)، وهي مشهورة بإنها منطقة غير صالحة للمعيشه هناك.

- كيف هذا؟

- بعد الحرب الأهلية وخطر الإنقسام الذي كانت الدولة معرضة له في عهد الرئيس الراحل، حدثت معارك في ذلك المكان ما بين تنظيم (الغجر) وبين قوات الدولة، حيث كان يسعي ذلك التنظيم للسيطرة على الدولة باسم الإخلاص، متبعا بذلك وسائل دنيئة، جعلت الناس يظنون السوء في الإخلاص والمخلصين، في هذا الوقت، ظهر مرض غريب لا يعرفه احد، قضي على الكثير من قوات الجيش ومن أفراد تنظيم الغجر، وتتمثل أعراضه في تلك التغيرات

obeikan.com

التي تصيب سطح جلد ضحاياه، فيصبح مثل قشر السمك، هذا إلى جانب تلك الرائحة الكريهة التي تصيب الجثث، والتي تكون مثل رائحة السمك النيء، حتي الآن لا تستطيع السلطات الإقتراب من هذا المكان، لإنه يقال أن المرض بسبب جرثومة تسكن الهواء.

قال (خالد) ساخرا:

- وأنت تتجه بنا إلى هناك ؟

- أعرف أنه أمر غريب.. لكن هناك شيء يغيب عن علمك، هذا المكان صالح لنمو النباتات البرية، ويحتوي على مياه جوفية بكثرة.هذا إلى جانب بعده عن أعين السلطات.

- نعم.. لكن لازال المرض موجودا في الهواء هناك، أي إنه سيقضي علينا جميعاعند وصولنا إليه.

أشعل سيجارته بتلك القداحة التي أخرجها من جيب سترته، ثم قال مبتسما:

- لقد كنت أعلم منذ فترة أن (سامح) يجري التجارب على هذا المرض، والذي عرفته منه، أنه قد إكتشف ترياق مضادا له، وأخضعه للتجربة على الحيوانات، ونجح الترياق بالفعل في علاج المرض، وقبل أن نتحرك أخبرته عن المكان الذي أعتزم التوجه إليه، فأخبرني بوجود كمية كافية من المصل لإعطائها لأعضاء التنظيم، وقد جلبنا تلك الكميات معنا.

- وما هي الجرعة التي تعطي النتائج المرغوبة ؟ومتي يبدأ مفعول هذا المصل ؟

- واحد ملل يكفي لإعطاء المناعة المرجوة، ونتيجته تظهر بعد ساعتين من أخذ الجرعة، من حسن الحظ أن لدينا الوقت الكافي قبل وصولنا إلى وجهتنا، فالطريق إلى هناك يتطلب حوالي الأربع ساعات، أي لدينا ما يكفي من الوقت حتي تصبح أجسادنا مضادة لهذا المرض.

أمسك (خالد) بذقنه، ثم قال وقد رفع حاجباه:

- وماذا لو كانت الضربة النووية حقيقية ؟

obeikan.com

- ستكون كهوف هذا المكان ملجأ مناسب لنا، فالضربة إن وجهت ستوجه نحو المدن، ونحن بمنأي عن ذلك في هذا المكان، وستساعدنا، الطبيعة الكهفية التي عليها الجبال.

- وأين هي حصتنا من المصل ؟

خلع (نجيب) نظارته، وابتسم، ثم أخرج من جيب سترته أربعة أنابيب صغيرة، تحتوي كل منها على مادة قرمزية اللون، وأخرج من جيبه الآخر أربعة محقنات، ثم قال ل(خالد):

-واحدة لكل فرد في تلك السيارة.

-لقد نفعنا أخيرا بهوسه.

تبادل كل منهما الضحكات، في حين أمسك (نجيب) بجهاز النداء الآلي، وتحدث فيه قائلا :

- لقد اقتنع بك يا (سامح).. ويقول أنك عبقري.

رد (سامح) من الجهة الأخرى:

- لا أصدقك ..

إنتشل (خالد) الجهاز من يد نجيب وقال:

- بالطبع، فانت في نظري لست سوي (المحضر).

- قال (سامح):

- لن تتغير يا (خالد).

تعالت الضحكات من (خالد) و(الراوي) وصوت (سامح) في الجهاز كان يوحي بندمه المشوب بالفكاهة، ورويدا تناقصت حدة الضحكات السعيدة، بعدها قال (خالد) ل(نجيب):

- قل لي أنت.. إلى متي ستظل تعذب نفسك ؟

لم يرد (نجيب)، ولكن الأسي بدا على وجهه، فنفث دخان سيجارته في الهواء، قال له (خالد):

- عندما دخلت علينا الغرفة عرفت ماذا كنت تفعل، يجب أن تنسي يا

(نجيب).
قال (نجيب) بضيق:
- إنني أحاول بالفعل.
- بأن تعاقر الخمر كل ليلة !!
- ليس لدي وسيلة أخري ..
- وليت تلك الطريقة تنجح، إنك لا تنسي.
- سأظل محملا بالذنب حتي أموت.
- يجب أن تعرف أنه لم يكن بيدك حيلة، لم يكن الذنب ذنبك.أنت تعرف يا (نجيب) أن كل شيء مقدر.
لكن (خالد) أحس بالضيق والحزن يتسربان إلى قلب صديقه أكثر فأكثر مع التعمق في ذلك الموضوع، وذلك عندما إرتدي (نجيب) نظارته السوداء مرة أخري وأشاح بوجهه بعيدا، فقال ممازحا إياه ليغير مسار الحديث:
- ومن سيعطيني جرعتي من المصل يا سيد (نجيب) ؟
فقال (الراوي) وقد تفككت عقدة وجهه ورفع حاجبه الأيمن:
- من الذي كان يعطيك جرعتك من الإنسولين يا سيد (خالد) ؟
وأمسك نجيب بإحدي الأنابيب، خارقا غطاءها المطاطي بإبرة المحقنة ليعبأها بها، في ذلك الحين سمع (خالد) صوت غريب، فتساءل :
- ما هذا الصوت ؟؟ أتسمعه يا (نجيب) ؟
إسترعي القلق (نجيب) لما أنهي (خالد) جملته، فنظر إليه في تعجب وقد توقف عما كان يفعله محاولا الإنصات الي ذلك الصوت، ثم نظر وراءه من خلال النافذة الخلفية للسيارة، فراي قوات أمنية تتبع بواقي التنظيم، حينها جاءت نداءات متداخلة من اللاسلكي الذي بيد (خالد) من أحد أعضاء العشيرة:
- من الدرع الأمامي الإيمن، توجد طائرة حربية قادمة من ناحية الساعة الثانية، وهي تتجه نحونا.

obeikan.com

- من الدرع الخلفي، مدرعتان أمنيتان تتبعاننا.
- من الدرع الإيسر المتوسط، أفراد من المظلات تهبط من الطائرات.
قال (الراوي) مفزوعا:
- إننا نحاط من كل جهة.. !!
رد (خالد) :
- لا يوجد فرصة اخري امامنا، ليس لدينا خيار غير المواجهة وجها لوجه، الأمل الأخير في الهروب قد فشل، قدرنا الوحيد الآن هو قتالهم بشرف حتي آخر قطرة من دمائنا.
بدأت طلقات الرصاص تتابع من المدرعات والطائرات الحربية للقوات الأمنية، وناور سائقوا سيارات التنظيم بمهارتهم الفذة لتفادي الصواريخ التي تم توجيهها نحوهم، في حين رأح أعضاء التنظيم يردون بنيرانهم على تلك الهجمات، وأطل عدد من المقاتلين في التنظيم من نوافذ سياراتهم حاملين أسلحة دفاعية لضرب الطائرات والمدرعات، وسط ذلك القتال، وعلي تلك السرعة العالية التي كانت تسير بها السيارات في ذلك الطريق، وبسبب ذلك الغبار الذي منع السائقين من الرؤية الواضحة، إصطدمت عجلة إحدي السيارت التي في الطليعة بحجر في الأرض جعل سائقها يفقد السيطرة عليها، مما جعلها تنحرف إلى اليسار فتصطدم بالسيارة الأمامية في الضلع الإيسر، فأدي ذلك إلى إنقلاب السيارتين بعد دورات متتالية في الهواء، كذلك لم تستطع السيارة الأمامية في الضلع الإيمن تفادي إحدي الصورايخ الموجهة إليها فأنفجرت، لتضع ما وراءها من سيارات في مأزق، حاولت باقي السيارات الخلفية الرجوع إلى الوراء بعكس الإتجاه المسلوك في محاولة للهروب لكن دون جدوي، فقد تم ضرب السيارات الخلفية بصواريخ جوية لتنفجر وتترك السيارات الوسطي محاصرة لا تستطيع الحركة، حينها ترجل أعضاء التنظيم من سياراتهم حاملين أسلحتهم الموجهة للقوات المعادية ليتم تدمير المدرعات ولقتل من حولها من جنود، لكن محاولات العشيرة في الدفاع قد فشلت عن

بكرة أبيها، وبعد نصف ساعة من النزال الدامي المتواصل كان قد قتل كل أعضاء التنظيم، وظلت الطائرات تقصف تلك البقعة لتتأكد من موت جميع الأفراد، ثم غادرت قوات الأمن تلك المنطقة.

أغمي على (الراوي) عندما إنفجر أحد الصواريخ بالقرب منه، فقذف بعيدا من أثر الإنفجار، وعندما إستعاد وعيه، وجد أن كل شيء حوله تلتهمه النيران، فقام من مكانه، وظل يدور بين الأشلاء باحثا عن حياة وسط هذه الكومة الفوضوية، فلم يجد، لكنه سمع صوتا ضعيفا يأتيه من الخلف يناديه:

- (نجيب).. ن.. (نجيب).

توجه بجسده المتهالك إلى هذا الصوت ليجد (خالد) ملقي على الأرض غارقا في دماءه، فجلس بجانبه مرتكزا على ركبتيه.

قال (الراوي):

- (خالد).. أنت بخير؟

رد (خالد):

- لقد ماتوا.. العشيرة إنتهت إلى الأبد.

- (خالد).. أنت بخير، سوف تعيش، ستكمل مسيرتك وتصل الي مأربك.

- لا.. إنني اموت يا (نجيب)، إنني اموت، لكن الحمد للإله، لقد أنقذك من الموت.

- لا تقل كذلك.. إنك.

- إسمعني يا (نجيب) وإنصت لكلامي جيدا، إنني على يقين بأن كل شيء يحدث لنا فهو يحدث لسبب ما، قد لا نعلمه، لكنه مقدر وفق خطة إلهية محكمة الدقة، ولعل ذلك ما جعلني حيا إلى تلك اللحظة، وهو أيضا سبب نجاتك من الموت.

- لا تجهد نفسك، وفر طاقتك للتنفس.

- لا يوجد وقت كما قلت من قبل، إن المقبل على الموت تنفتح امامه ستائر الغيب فيري الحقيقة دون حاجب، يجب عليك أن تحافظ على هدف

العشيرة من الضياع، يجب عليك أن توصل دعوتنا إلى الأجيال القادمة.

- لن أستطيع وحدي، لن أستطيع من دونك، أنت من جمعتنا ووجهتنا، انت من تمدنا بالطاقة الدافعة للإستمرار.

- لست أنا.. إنه الإخلاص، إنني بشر كغيري مسيري إلى الفناء، ها أنا اموت بين فكي الذئب كما تموت صغار الشياه.

- لن أستطيع يا (خالد).

- تستطيع يا نجيب، تقدر على ذلك.. لا تنس انك أنت الذي كنت تبعث الأمل في قلوبنا، كنت دائما تقول ان هناك أملا، أنت الذي قلت أنه يجب أن ندافع عن إخلاصنا حتي آخر نفس مغادر فينا، ولازال النفس بداخلك يعطيك وقودا للحياه، إن كان لهذا معني، فهو أن الإله قد إختارك دوننا للقيام بشيء ما لن يستطيع أحد فعله سواك، يجب أن ترجع إلى الناس، فتبحث عن أتباع لك لتتمكن دعوتنا من القيام مرة أخري.

قال (نجيب) باكيا:

- إنني أخشي الفتنة، أخشي الإنحراف عن طريقي.

قال (خالد) واضعا يده الممتدة برفق فوق صدر نجيب:

- الإخلاص يحتاج إلى قلب صادق، وأنت لديك هذا القلب، فحتي لو إهتز قلبك، سيرده صدقك إلى دربه، ويدلك إخلاصك إلى الطريق الصحيح.

ثم رفع بصره إلى السماء وأخذ يحدث طيفا لا يري، فقال:

- حسنا.. إنني قادم.. سآتي مهرولا.. بخطي لا تضل ..

مات (خالد)، وإنهمرت دموع (الراوي) فتساقطت على وجه تلك الجثة الهامدة، فقرب يديه من وجهه ليغلق تلك العيون التي تعلقت بالسماء، ثم نظر إلى أعلي بعينيه، والتي غرقت في بحيرة من الدمع، وصرخ صرخة مدوية، ملؤها الحرقة والألم.

***

obeikan.com

obeikan.com

-٦-

أسدل الليل ستاره الذي يغطي كل آثام البشر عن أعين المترصدين من القضاة منهم، تاركا فرصة للفرائس المطاردة ليجوبوا بقاع الأرض، باحثين عن ملجأ لهم بعيدا عن شراك الصيادين، تحرك (الراوي) كطفل مؤمن أبطل صيامه نحو وجهة بلا عنوان، محاولا الإستتار والإختباء من أي عدو متخف قد يكون متربصا به، لم يكن من الصعب عليه الإستدلال على الطريق نظرا لعقليته الخريطية وخبرته القديمة في الجغرافيا، فقد كان يعمل قبل إنضمامه إلى تنظيم (العشيرة) في إحدي المؤسسات المعنية بإكتشاف المياه الجوفية في المناطق المهجورة والنائية في الصحراء الشاسعة، والتي تحتل حيزا كبيرا من مساحة الدولة، وأثقلت معرفته خبرته العسكرية وقت إنضمامه في الحرب التي اجتاحت البلاد من قبل، لكن بالرغم من ذلك كان تائها في طريقه لا يعرف إلى أين يذهب أو إلى إين يلتجيء، عقله انشغل بالأحداث المستجدة التي تعرض لها هو ورفاقه الموتي في تنظيم (العشيرة)، وكيف أن التنظيم الذي حاول التمسك بآخر ذرة أمل في الإبقاء على الهوية الدينية للناس قد إنهار، لقد مات (خالد) صديق حياته، وألقي على كاهله حملا لايقدر على حمله وحده، أخذ يفكر في أشياء كثيرة، تفكر في حال الدولة إذا ماكان أمر الضربة النووية التي روج لها حقيقي، أو أنه كذبة ككثير من الأكاذيب التي سمعها الناس على مدي سنوات عديدة، تفكر في ذلك الغاز التي بدأت الحكومة في نشره كإحتراز وقائي في أجواء البلاد منذ أسبوعين، بدأ يتساءل.. كيف سيدله قلبه على طريقة لإنقاذ الدعوة، كيف سيجد تلك البذور الأولية

التي سوف تساعده في بدء رحلته من جديد ؟ كيف ؟ وكيف ؟ وكيف ؟، آلاف من الكيفيات التي لا وسيلة لديه لمعرفتها دارت في رأسه وأعتصرت عقله، حتي كاد يفقد صوابه.

- «مستقبل بلا منفذ ينتظرني، وحاضر أكثر غموضا هو أجدر بإهتمامي، وألغاز وأحاج تشل عقلي»

هكذا كان يقول في نفسه، مصارعا مخاوف عقله اللاواعي التي طفت على السطح بعدما كانت غارقة في أعماق التناسي، أجرام بركانية تبحث عن نقطة ضعف تنفجر منه.

- « الإخلاص يحتاج إلى قلب صادق، وأنت لديك هذا القلب، حتي لو تزعزع إخلاصك سيرد إلى دربه، سيدلك قلبك إلى الطريق الصحيح..»

رنت تلك الكلمات في أذن (الراوي) مرات عديدة وهو يسير بين أحضان الصحراء، فأنخرط في جدال فلسفي دار بينه وبين نفسه حول ماهية القلب وماهية العقل، فإيهما هو أصل أفعال الإنسان ومصدر قراراته وشعوره، لطالما علم انه لا يوجد مراكز شعورية أو أخري لإتخاذ القرار في القلب، وأن ذلك من عمل العقل، لكن في ذات الوقت لا يمكن التغاضي عن أثر القلب وسطوته في الشعور وفي إتخاذ القرارات، لطالما كان القلب مساعدا للعقل موجها له، وكم من المرات التي كان العقل فيها متحيرا وقام القلب بعمله في ذلك الوقت منحيا العقل وحيرته جانبا، واثقا في الوجهة التي يسلكها، وبالفعل في ذلك الوقت كان يتم عمله على أكمل وجه ويكون مصيبا، ولكن كم من المرات التي خذله فيها القلب رغم إنقياده له تحت راية الثقة العمياء!! القلب كائن متلاعب ببني البشر ، عندما تضع كل ثقتك به يخذلك ويكون سببا في هلاكك، وإذا تركته ووثقت في غيره يبرز لك عن نواياه الحسنة بنبضات الدفع الحماسية التي يزلزلك بها، نعم.. القلب مصدر للوحي والإلهام، للعزيمة والإقدام، دليل للب والخاطر في الأمور التي لا تستطيع أن تلتقطها الأعين المجردة والعقول المحللة، إترك قلبك يعمل

كمؤسسة إستشارية بعد مرور القضايا على منصة التحكيم أمام عقلك المحلل، إن ذلك روح العدل.. فالعدل بدون روح قد يصبح منبوذا لشدته وصرامته، «الإله يعاملنا برحمته وليس بعدله» هكذا قال في نفسه، متذكرا الشخص الذي ترك أثرا في نفسه وبسببه يجد الحلول الآن لأشقي المسائل الجدلية التي تؤرق الإنسان.. (خالد كرارة).

كم كانت كثيرة تلك الأوقات التي جمعتهما ببعض، وكان الكاتب فيها يتحدث بأروع الكلمات الفلسفية، فسرقت من الراوي لبه وفؤاده، كم كان يعشق الجلوس كالتلميذ أمامه مستمتعا بالأحاديث الفلسفية البناءة، والتي اعتاد صديق عمره الحديث عنها وعن أصولها، مستندا على ما يحفظه عن ظهر قلب من الفلاسفة القدماء، العظام، وما يعيه من الدين وما توصل إليه عن طريق فكره، كان يقول أن الإخلاص والفلسفة كلاهما يبحثان عن الحق، وكلاهما مرآة لمعرفة الحقيقة، كان يقول دائما، أن القلب والمخ والجسد ما هي إلا أدوات، وأن الفؤاد والفكر والروح هي الكيانات المحركة لتلك الآلات، أن الإنسان عبارة عن صخور صغيرة متراكمة فوق بعضها البعض، وأن الإخلاص هو تلك المادة اللاصقة التي تجمع تلك الصخور ببعضها فتحافظ على الإنسان من الإنهيار، كانت لحظات صفاء روحي إعتاد وصفها بأنها (مساج روحاني)، يشتاق إليها من فترة لأخري، فلا يجدها إلا في حضرة صديقه ورفيقه.

تمثلت أمام عينيه صورة هوائية لصاحبه وهو يبتسم، وفي لحظات خاطفة، مر شريط ذكرياته معه بين خلايا فص دماغه المسؤول عن حفظ الذكريات، فتذكر العديد من اللحظات التي جمعتهما في الضحك والفرح، البكاء والحزن، الشدة والضيق، ذكريات لا يمكن انت تنتمي لأحد سوي لخليله الشهيد.

بين الحين والأخر، كانت تمر الطائرات الأمنية في ذلك الظلام الدامس، باعثة ضوءها المبهر والمزعج بين ذرات الغبار السابح لتنير الطريق، فتحاول الكشف عن أي غريب أو مطارد قد يكون موجودا بذلك المكان، حينها كان

يلجأ (الراوي) إلى أحد الكهوف المنتشرة في هذه البقعة، ليختبيء بها عندما يسمع صوت إحدي تلك الطائرات قادمة من بعيد، فيتفادي أعينهم، منتظرا إنتهاء تلك الجولة التمشيطية للمنطقة، حتي يستطيع بعد ذلك مواصلة سيره في طريقه للمجهول، وفي إحدي المرات، أحس بالتعب والإرهاق داخل أحد الكهوف المظلمة، فأسند رأسه على أحد الأحجار الموجودة بالكهف، وأستسلم للنوم.

لم يكن نوما هنيئا أو مريحا بالمرة، بل كانت رحلة خاطفة إلى أرض الماضي، رحلة إمتلأت بالأوجاع والآلام، رأي فيها ذكرياته التي حاول أن يطويها في كتاب مدفون بحفرة مردومة من حفر اللاوعي، تذكر مشهد مقتل إبيه وأمه في أحد الإنفجارات التي كانت من تدبير إحدي الجماعات الإرهابية، مقتل رفقائه في الجيش أثناء الحرب ورفقاؤه في التنظيم، موت (خالد) بين يديه، توديعه لأخيه في المطار وهو مسافر إلى دولة أجنبية، جثة حبيبته الجميلة (رغد) التي قتلت غدرا - بعد إغتصابها - كوسيلة للضغط عليه عندما إنضم للعشيرة، ألمه الذي لا ينتهي بهروبه بين قطرات الخمر المسكر، لحظة معرفته لوجود خائن في التنظيم، جلده لنفسه بذلك السوط الذي إرتوي بدمائه ليتحلل من إثم مقارعته للخمور، الذكري الجميلة الوحيدة التي رآها كانت له هو و(رغد) عند أحد رسامي الوشم ليرسم لها إسم(نجيب) على يديها اليمني، لقد طلبت ذلك منه لكنه كان معارضا لأنها ستتألم من الوشم لكنها قالت له :»إسمك لن يؤلمني أبدا«، فقبل يدها في تلك اللحظة، وفي نهاية الحلم رأي (رغد) تتقدم نحوه حاملة بيدها ورقة بيضاء وقلم حبري وقالت له: « إرسم لي مكانا في حياتك «، فأمسك بالورقة ورسم دائرة كبيرة، ونقط نقطة بداخلها، ثم قال لها :

- أنا تلك النقطة، وأنت.. كل شيء يحيط بي.

ثم طبعت قبلة على خده وأبتسمت إبتسامه إنشرح لها قلبه.

إستيقظ من النوم على إثر قطرات مياه تساقطت على خده وبين جنباته

شعور بالوجع والحنين، مفرقا بين جفنيه المتعانقين، فتح عينيه على بصيص من الضوء تسلل إلى داخل الكهف، نهض على مهل، واحس عن جانبه بحركة لا يري لها أي أثر، دفع أرضية الكهف بذراعيه ليقيم جسده ويعتدل في جلسته، راح يفرك عينيه ليمحو أثر النوم من عليها، ثم قال بصوت مجهد:

- أأنت من جديد ؟

فرد عليه صوت لا علم بمصدره قائلا:

- نعم.. ألم تشتاق إلى ؟

- وإين كنت ؟

- إنني موجود دائما، لكنك لا تدري.

***

obeikan.com

obeikan.com

-٧-

« تحذير ... البلاد سوف تتعرض لضربة نووية بعد سبعة أيام من الآن، نرجو من السادة المواطنين التوجه إلى الشوارع حسب من أجل نيل جرعات مكثفة من الغاز المضاد، تحذير.. إذا لم تستجيبوا ستتعرضون لأخطار الآشعة النووية»

كان هذا هو النداء الذي تبثه الحكومة أربعة وعشرون مرة من خلال الوسائل الإعلامية وسماعات الإذاعة المنتشرة في جميع أنحاء الدولة، فقد قرب موعد الضربة الموجهة، وهاهي تبث نداءاتها للمواطنين حتي يحصلوا على مناعة مكثفة مضادة للإشعاع، لكن ما الذي يجعل الدولة تقوم بصنع ملاجيء تحت الأرض لحماية الصفويون ؟ ألا ينال أهلها نفس القدر من الحماية من هذا الغاز ؟ أم هو زيادة في الإحتراز على حياتهم الهامة ؟ حلقة من اللغز التي ظلت غائبة عن عقل الراوي ولم يستطع إيجادها، كان يفكر بصوت مسموع، حينها جاءه ذلك الصوت قائلا:

- ولم لا تستطلع الأمر بنفسك ؟

كان هذا صوت ذلك الكائن الخفي الذي لازمه منذ إنضمامه لل(عشيرة)، لا يعلم من هو ولا يعلم كينونته، لا يعلم غير أنه مصاحب له، يزوره في أوقات ما، ويغيب عنه في أحيان أخري كثيرة، يعرض أمامه الإختيارات فيختار (الراوي) أيا منهما حيث شاء، لكنه كان دوما يوردها بنصيحة ترشد (الراوي) للقرار الصحيح، رد عليه (نجيب) فقال:

- أذهب إلى الذئاب وحدي ؟ في عقر دارهم ؟
- إن ضآلتك تنتظرك هناك ..
- عن أي ضالة تتحدث ؟
- ألست تبحث عن نواة، فوق أرض خصبة ؟
- وأي خصوبة في ذلك المستنقع ؟ أرضا كتلك لا تنبت سوي رؤوس الشياطين.
- الباحث عن الحق يسلك كل السبل للوصول إليها، إنه يلقي بنفسه في عذاب الجحيم حتي يصل إلى طمأنينة الرياض.
- إنني لا أبحث عن الحقيقة، بل أبحث عن أتباع.
- هذا لون من ألوان الحقيقة.
- إذن فأعزم التوجه إلى هناك ؟
- ليس الآن، فلديك أولا موعد مع الماضي.

على قدر كبير من الحذر، وفي محاولات مستمرة للتخفي عن أعين قوات الأمن، وصل (نجيب) إلى أطراف مدينة (التحويلة) عندما سمع نداءات التحذير، أحس بالحنين لمشهد النهر ورائحته، فوقف تحت أحد الجسور التي تعتلي مجراه، نظر بأسي إلى النهر الأزرق الراكد في مجراه، شريان تجلطت دماؤه يشق جسدا ميتا، الأشجار بالأفق تقف منكسة رؤوسها، تستقبل بصمت العزاء في ذلك البلد الميت، لقد تغيرت رائحة جسده حتي أصبحت جيفة منتنة، رفع بصره إلى أعلي، فرأي القطن الأبيض قد غسلته السماء ببكائها لتمحو أثر الخطايا والآثام، والتي تمثلت في ذلك الغبار الترابي الذي عم البلاد بأكملها، الشمس تستتر من الخجل، إنها تفتقد القدرة على مواجهة سلبيتها الآثمة أمام من رضوا بغير الإخلاص سبيلا، الطيور تنطلق في رحلة إلى أرض التيه، تبحث عن بقعة نظيفة لم تدنس بعد، بيد الإنسان.
قال في نفسه:
- وأنا أبحث عن الإيمان.. في معبد الكفر والعصيان.

Obeikan.com

نزلت من عينه دمعة، تنعي بأسي، ذلك الحال الذي وصلت إليه البلاد، شعر حينها بالخزي والعار لأنه ينتمي إلى الجنس البشري، تفكر في نفسه، أن كلمة (بشر) تتكون من مقطعين، (الباء)... و(الشر)، فالشر ملحق بالإنسان حتي قبل تواجده فوق سطح الأرض، إن زمرة الملائكة التي قالت أن هذا المخلوق الطيني سيعيث في الأرض فسادا كانت على حق، لكن الإله يعلم الحكمة وراء كل حدث حتي ولو كان شرا، فالمخلوقات كلها لا تمتلك جزءا من المليون - وإن شئت فزد - من تلك البصيرة التي للخالق، إن ذلك الإيمان الذي في قلوبنا هو الذي يجعلنا نتطلع إلى العدل الغائب في ذلك الويل الذي نعيش فيه، هو الذي يجعلنا نري نهاية للظلم والفساد والكفر، هو الذي يجعلنا ننتظر بشوق ذلك الفجر، والذي بنوره تنقشع وحشة الظلمات المخيفة، ثم أخذ يتمتم بكلمات، بصوت خافت، فقال :

- إلهي.. إن هذه هي أرضك.. ملكك.. لا أحد سواك.. الهي.. لقد استشري الكفر في ربوع ملكك.. الهي.. إن عبادك قد أفسدوا وخانوا الأمانة.. الهي.. لا تردهم إلا مذلولين.. لقد أرادوا لكلمتك أن تمحي من الأرض.. فرد كيدهم ومكرهم إليهم.. الهي.. وأنا عبدك الضال الضعيف.. قد ضاقت بي كل السبل.. وأسقط في يدي.. فتهت في فلاة من الضياع.. أتعلق بأذيال قدرتك وجبروتك.. فلا تتركني بلا حيلة.. أربط على قلبي.. فلا أكونن من الخاسرين.

أحس بنوع من الشفقة على هؤلاء الناس الذين سخط عليهم في دعائه لإنهم ضحية إستضعاف تلك القيادة الفاسدة لهم، لكنه قال في نفسه إنهم يستحقون كل عذاب لأنهم سكتوا عن الحق، والساكت عن الحق شريك لأهل الباطل.

واصل (نجيب) طريقه، فاتجه إلى بيته المهجور في مدينة (التحويلة)، لم يفهم لم دله رفيقه إلى العودة إلى مكان نشأته، ولم يجهد نفسه في التعرف على السبب، فقد أحس بنوع من الإشتياق لذلك في نفسه، فما إن وصل إلى منزله، حتي أخذ يتأمل مكان نشأته المهجور الذي تركه منذ فترة بعيدة، فأثار ذلك

obeikan.com

نوعا من الحنين في نفسه، إستعاد الماضي في ذرات التراب التي إعتلت اثاث المنزل وجدرانه، تأمل أنحاء المنزل وأركانه، الأريكة الحمراء التي إعتاد أن يمدد عليها جسده وهو يشاهد التلفاز، الطاولة الخشبية المستطلية التتي تتوسط المنزل حيث كان يجلس عليها ليتناول الطعام مع أسرته.

دخل غرفته بعد أن سلك الممر الفاصل بينها وبين صالة المنزل، تلك التي حوت أجمل ذكرياته، تذكر يوم جلس فيها مع صديقه (عمر) وتجرع أول كأس نبيذ يشربه في حياته، فقد أراد حينها تجربة تأثيره على عقل الإنسان، بعد تلك المرة لم يعاود فعلته مرة أخري ساخطا على فعلته، لكنه عاد إليها وأصبحت عادة لديه بعد مقتل حبيبته (رغد)، نظر إلى يساره فوجد مكتبه الذي إعتاد الجلوس عليه ليكتب مذكراته، لقد كان يعتاد الجلوس عليها وهو يحتسي قهوته المفضلة كل يوم في الصباح، إما لانه كان يكتب مخواطره، أو يطالع أحد الكتب الهامة والمشوقة.

أشاح بوجهه إلى اليمين، فوجد أن جهاز الجرامافون المحبب لديه لايزال موجودا فوق تلك المنضدة العالية، والتي تستقر عن يمين غرفته، لقد إشتراه له أبوه كهدية له في ذكري يوم مولده الخامس عشر، لطالما إستمتع كثيرا بسماع تلك الموسيقي الكلاسيكية التي تبث ذبذباتها عبر الهواء فتخترق مسامعه باعثة فيه نسائم الهدوء والراحة، ثم وجد بجانبه تلك الإسطوانات التي كان يحبها، (غرور الشقي)، (مهبة الجنون)، (أسفار الوعد)، (الشفق الحاني) ... وغيرها من تلك المقطوعات العتيقة التي كان يعشق الإستماع إليها ليعيش معها في عالم آخر من وحي خياله.إختار أحدها، وقام بوضعها على الجهاز الذي قام بتشغيله، ثم جلس على كرسيه الهزاز المواجه للشرفة التي كثيرا ما أطل منها ليستمتع بمشهد الشروق الجميل للشمس أثناء الصباح، أشعل سيجارته، وراح يشاهد دخانها الذي إرتفع إلى اعلي، متخذا أشكالا عشوائية تجبر متأملها على التفكير، تفكر فيما إذا أصيب الإنسان بمرض فقدان الذاكرة، بالطبع إنه لأمر جيد أن ينسي ذكرياته وخبراته السيئة

كلها، لكن بجانب ذلك سينسي ذكرياته التي أحب أيضا، إن الذكريات جميلة كانت أو سيئة فإن المحصلة النهائية لها هو ذلك الشخص الذي يمشي على قدميه فوق ذلك الكوكب السابح في ملكوت هذا الكون الفسيح، إنها تشكله وتصنعه، حتي تلك السيئة.. فيها من الجمال ما يجعلنا نتمسك بها وبوجودها في عقلنا الباطن، إنها ترسم لنا حاضرنا ومستقبلنا، فعلي الرغم من أن الموت قد يبدو للبعض على انه أسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان، فهو يفرق بين الأحبة ويعذب النفوس بوجع الفقد، إلا ان نسيان الإنسان لكل شيء مضي يحظى بمرتبة أعلي في السوء من الموت، هكذا تفكر نجيب.

لم يتمكن أبدا من فهم فكرة فقدان الذاكرة، فعندما كان يري شخصا مريضا بالزهايمر كان يقول في نفسه أن ذلك الشخص لو أجهد نفسه قليلا في تذكر تلك الأشياء التي ينساها فسوف يتذكرها، بالطبع كانت إعتقاداته بخصوص هذا الأمر محض هباء، فهكذا هي طبيعة الإنسان، لا يستطيع أن يتخيل فكرة ما ليس هو طرفا فيها، فكما الجنة والنار.. لا يستطيع الإنسان أن يستوعب أمر الأبدية في أي منهما وأنه ليس هناك نهاية لهما، كذلك لم يستطيع (نجيب) فهم معني أن ينسي الإنسان كل شيء ويعود إلى الصفر، الواقع له هيمنته وتأثيره القوي الذي يفرض على عقولنا إعتقادات تسيطر عليها، من ثم على تصرفاتنا وأفعالنا، فهي تفرض علينا منهجا ما في التعامل مع حياتنا التي نحياها.

لم يدر لم تذكر ذلك الآن، فعندما كان صغيرا، علم بقصة ذلك الأعور المنتظر في المستقبل، ذلك المذكورة قصته في كتاب مشكاة الإخلاص، ذلك الكتاب الذي يحمل أخبار الماضي والمستقبل، إذ يذكر أن ذلك الأعور سيشيع الظلم في العالم أجمع، وسيتبعه خلق كثير، ذلك لأنه سيكون بمثابه الإله القادر، ولن يستطيع قتله إلا أكثر اهل الإرض إيمانا يومئذ، ذلك الفارس المخلص، عندما كان يستمع إلى تلك القصة وهو صغير، كان يتمني أن يعيش إلى ذلك اليوم، فيكون هو ذلك الفارس الذي يخلص العالم من فتنة الأعور، لكنه مع

الوقت فهم سذاجة أمنيته، فتخلي عنها، فبعض الأماني قد تكون جاذبة، فلها من قيمة النفيسة مالها، لكنها قد تحمل شرا قد يلم بالشخص المتمني، فقد يعيش بالفعل حتي زمن الأعور، ولكن.. ما الذي يضمن له التمسك بإخلاصه في ذلك الوقت ؟ وفي تلك الحالة التي هو عليها، وجد إجابة لسؤال طالما إحتار فيه، وهو كيف سيجد الأعور من يتبعه، رغم أن صفاته معروفة لجميع الناس ؟ ومعروف أنه مخادع ؟

بعد ان أنهي دورة تفكيره الجدلي، قام من مقامه، وسار نحو المطبخ، حيث إعتاد على مشاهدة أمه وهي تقوم بتحضير أشهي الأطعمة له ولبقية أفراد الأسرة، تخيل في نفسه كم كانت أمه جميلة وحنون، حاول تذكر ملامحها لكن صورتها كانت غير واضحة أمامه، حاول أن يعتصر منابت التذكر في عقله أكثر وأكثر، ولكن دون جدوي، الماضي قد نثر غباره على تلك الصورة فأفقدها نقاءها، أحس بالحزن يتسلل إليه، فاقشعر جسده ونزلت دمعة من عينه، رفع يده ليمسحها بعد أن تسربت من ينبوعها لتستقر على خده، ثم قال في نفسه:

- لعلي قد أصبت بهذا المرض.

بعد رحلته التفقدية تلك لمصافحة الماضي، تسلل من بيته في هدوء حتي لا يثير الريبة، وقام بسرقة إحدي السيارات الموجودة بذلك الحي الذي يوجد به بيته، فقادها حتي وصل إلى الطريق الصحراوي، ليسلكه متجها إلى مدن العوام، بعد أن أرتوي من رجع الذكريات.

***

obeikan.com

وقفة ثانية

قيل أن الله خلق القلم كأول الأشياء، ليكتب به مصائر المخلوقات من ملائكة وبشر، وحيوانات ونباتات وجمادات، في كتاب الأقدار، من ثم يستقر ذلك الكتاب في لوح محفوظ، وبين مؤيد لتلك المقولة ومعارض لها، يبقي القلم محتفظا بمكانته التي لا يستطيع أحد إنكارها، فلولا القلم لضاع الكثير والكثير من التراث الثقافي الذي بين يدينا الآن، ولولا القلم، لأصبحت أحداث التاريخ العظمي والهامة ضحية ممحاة الزمن، ولربما انكسر القلم أو جف حبره، أو مات صاحبه، أو هجر القلم فأصبح آداه لا تضر ولا تنفع، لذلك كانت الكتابة بنفس ذات الأهمية التي للقلم، فهي تترك آثار حبره على الورق حتي بعد مرور الآلاف من السنين، كشهيد.. فقد دماءه فوق أرض المعركة، لتري الأجيال القادمة أثرا لبسالته وشجاعته في الدفاع عما يؤمن به، وبالرغم من أن القلم قد يعد من أصغر الأشياء، إلا أنه آثاره تبقي عظيمة، فقد يكون سببا في تغيير مجري التاريخ، فكم من الحروب اندلعت بسبب كلمة خطها قلم، وكم من معاهدات السلم كتبت بنزيف من قلم، وكم من الممالك سقطت بسبب ثورة من قلم، وكم من الحقائق كشفت بكلمة حق من قلم، فإذا كان للإنسان من حضارة حقيقية فهي باختراع القلم، وإن كان من أولية في الخلق قبل الزمن، فإنها تستحق.. أن تكون للقلم.

obeikan.com

-٨-

وصل مدن العوام، بالتحديد عند المقر الرئيسي لتنظيم (العشيرة)، فبعد أن ترجل من تلك السيارة التي كان يقودها، نزل إلى إحدي البالوعات التي بخارج المدن، ومنها سلك طريقا خفيا بالمجارير خرج منه إلى أحد الأزقة بالمدينة، ومنه إتجه للمقر.

كانت المدينة فوضوية كما عهدها، لكن زاد من تلك الفوضوية ذلك الهجوم الجوي الذي إستهدف مقر التنظيم، فالبيوت محطمة ومهدومة، والشوارع متكسرة، والمرافق قد اتلفت، لم يتعجب (الراوي) مما رآه، فقد توقع ذلك منذ أن قرر التوجه إلى هذا المكان، حاول الدخول وسط الأنقاض المترامية لذلك المبني الذي أتخذه أعضاء (العشيرة) ليكون مقرا لهم وذلك ليبلغ مدخل المخبأ السفلي الملحق به، ولما وصل إلى غرفته أضاء نورها، فوجدها كما هي، وقف فوق بقعة بعينها تتوسط سريره وحوض الماء، دار بجسده تسعون درجة ليواجه الجدار الذي كان على يساره منذ قليل، أزال بعض الأحجار التي به فوجد كيس من البلاستيك به إزميل ومطرقة ومصباح كهربائي، دار بجسده مرة أخري، فأصبح ذلك الجدار وراءه، سار ثلاث خطوات إلى الأمام ثم إلتف إلى يمينه، سار ثلاث خطوات أخري ثم هبط بجسده، وضع يده على بلاطة مربعة الشكل مساحتها ٢٠ سم × ٣٠ سم، مثلها مثل ما حولها من البلاطات، نفض الغبار المعتلي لسطحها بيديه، مستعينا بهبوب الهواء المنفوخ من فمه، فتح الكيس وأفرغ محتوايته، ثم قام بوضع الطرف الحاد للأزميل بين أحد الفواصل التي بين تلك البلاطة وجارتها، جيئة وذهابا.. راح

obeikan.com

يحركه في محاولة لشق مجري في ذلك الإسمنت المتصلب، وذلك ليكتشف نقطة ضعيفة يبلغ من خلالها أسفل البلاطة فيقوم برفعها، نجح في محاولته، فنزعها وما جاورها من البلاطات الأخرى، فبدت رقعة أسمنية سميكة، أمسك بالمطرقة وراح يدق تلك الرقعة إلى أن تكسرت إلى قطع متفرقة، أخذ يزيل تلك القطع ليظهر أمامه باب خشبي ذو مقبض حديدي، أمسك بالمقبض وسحب الباب نحوه فظهر من تحته حبل متدلي موصول بحافة الأرضية إلى الأسفل، أضاء كشافه ووضعه بين فكيه، ثم أمسك بالحبل وتعلق به، وبدأ يهبط.

ثمان وعشرون مترا هو العمق الذي هبطه وهو معلق، متجها إلى القاع حيث مخبأؤه السري، فهنا إحتفظ بكتب التراث والتاريخ، جنبا إلى جنب مع مذكراته ومجلدات التفسير والشروح للإخلاص، وكتاب مشكاة الإخلاص الذي كتبه المخلص الأول، حيث يحتوي على تعاليم الإخلاص من اخلاق وعبادات، ومباديء إرشادية لإستقامة حياة الإنسان في الدنيا، كما يضم أيضا قصص عن التاريخ القديم، وقد احتفظ به ومذكراته في صندوق خاص، هذا إلى جانب أدوات وملابس التخفي التي كان يحتفظ بها.

حاملا مصباحه المضيء راح يتأمل ذلك السواد القاتم الذي غلب على المكان، ذكره ذلك بالدرب المظلم الذي سلكه أهل هذا البلد الملعون، لقد تغافلوا عن حاجة الإنسان لبصيص من النور يرشده في الطريق ليحميه من السقوط في جوف الجحيم، على أن ذلك المصباح الذي يحمله في يده ذكره بنور الإيمان المتبقي في قلبه، راجيا من إخلاصه أن يرشده بهذا النور الطفيف إلى طوق النجاة المغيث من هذا البحر الأسود.

أجل.. قد يكون النور الذي في قلبه خافتا إلا أنه لا يزال نورا، دائرة من البياض تتوسط صفحة سوداء تجتذب ذوي الفطرة السليمة، البصير منهم والاعمي، فالبصير يري فيها ملجأ له من كل مجهول أرهبه، أما الأعمي فإنه يجد فيها مؤنسا لوحشته في ذلك الممر المظلم الذي يعيش به.

Obeikan.com

«لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه»، تلك المقولة التي رفع بها رايته وجعلها مبدأ يعيش ويموت من أجله، بالطبع.. خلق الإنسان ليصبح كائنا إجتماعيا، يسعي للتفاعل والإندماج فيما بينه وبين أخيه الإنسان، لكن ماذا يفعل إذا وجد نفسه منغمسا في بيئة من الوهن التي يحكمها الشر وينظمها الكذب والخداع ؟ قد يترك نفسه تحت رحمة التيار فينجرف إلى قبلة الباطل كالكثيرين ممن حوله، مدعيا أن البيئة هي التي تتحكم في طبائع البشر وتحدد صفاتهم وكيانهم، أو قد يحاول السباحة جاهدا عكس إتجاه التيار محاولا النجاة بنفسه من زمرة الذين إختاروا أسهل الأجوبة، وعلي الصعوبة التي بذلك الأختيار، إلا أنه الأصح والأحق، وصواب الإجابة لا يعتمد على السهولة والصعوبة بقدر ما يعتمد على الحقيقة، وخير للإنسان أن يموت محاولا تحري الصواب الشاق على أن يعيش مطمئنا إلى سهولة الخطأ، فالإنسان لا أهمية له في الوجود بدون قيمة سامية يسعي إلى نشرها بين الناس، أو مبدأ يستميت في القتال من أجله.

الحقيقة.. الحقيقة التي ظل يبحث فيها عن حقيقة، فبين جدلية الحقيقة النسبية والأخري المطلقة ضاعت الكثير من القيم والمباديء النفيسة التي تعلمتها البشرية على مدي السجل التاريخي لظهور العقل، وقد نجحت عصابة الدجالين في وغوشة الأفكار وخلط الأمور ببعضها ، فأحالوا كل ما هو مطلق وثابت إلى نسبي متغير، إلا أن الحقيقة لا تزال محتفظة بوجودها المتفرد رغم ما طبع على القلوب من غشاوة أعمتهم عنها، ففرق بين الرقم ٧ أو ٨ على ما بهما من تشابه قد يؤدي بالناظر إلى التشوش في معرفة أي رقم هو المقصود، إلا أن الإتجاه الذي أتخذه الناقش أثناء نقشه على صفحة الحجر هو ما يحدد أيهما المعني، أو قد يترك الأمر مجهولا فيصعب على الشخص الوصول للأصل، فعلي الباحث حينها التحري والبحث في الخط لمعرفة نقاط الإرتكاز والضغط حتي يصل في النهاية إلى حقيقة الرمز المراد نقشه، لأنه قد لا يكون رقما في الأساس، فقد يكون رمزا ما، الأمر مجهد ومتعب، ويحتاج

إلى كثير من الصبر والإرادة، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة، لكن في ذات الوقت، ليس بالمستحيل.
توقفت هذه المحاورات الأرسطية برأسه عندما وضع يده اليمني على أرضية المخبأ، غرفة مظلمة لا أثر للحياة فيها، المكان الذي كان يجد السلام الخاص به عندما يمتليء جوفه بالكره والبغض نحو هذا العالم المريع، توجه إلى الأمام بضع خطوات ثم دار بجسده خمسة وأربعون درجة ليضع يده على الحائظ الأيمن المحاذي، في حين ظل نور المصباح موجها إلى الأمام كاشفا عن تكتلات ورقية إعتلاها التراب، دار بنور الكشاف في انحاء فبدا كحجرة أرشيفية توسطها مكتب خشبي صغير الحجم، وأنتشرت الكتب والأوراق في جميع أنحائها، حتي أنه ليخيل للناظر أن جدرانها طليت بتلك المصنفات الورقية البارزة، أغلق مصباحه الكهربي وسار بضعة خطوات جعلته مواجها للمكتب أمام كرسيه الخشبي، جلس عليه ومد يده نحو أسفله فتقابلت يده وصندوق من الفولاذ ذي مقبض خشبي مغلق بإحكام، وضع يده على صدره ثم امسك بتلك القلادة التي تشبه القلم وفصل بين رأس القلم وجسده، فظهر بينهما مفتاح حديدي، أخذ المفتاح وقام بفتح الصندوق به ليجد كتاب أخضر ومجلد أسود، أمسك بالمجلد ووضعه أمامه، فتح الدرج العلوي الملحق بالمكتب وأخذ القلم الحبري الذي بداخله وقنينة بها سائل أسود، وضعهما أمامه ثم فتح المجلد وأغلق الدرج مرة أخري، أمسك مرة أخري بتلك القنينة وفتح غطاءها، ثم قام بفك قلمه وغمس راسه فيه، فتح المجلد من منتصفه لتظهر صفحة يمني مكتوب عليها كلام مكتوب واليسري بيضاء، وفي أعلي الصفحة اليسري وضع سن قلمه على السطر وبدأ في الكتابة.
كعادته في كل حدث هام يمر به في حياته وغير مجراه بدأ يسجل آخر الأحداث التي مر بها، كان يري أن دوامة الحياة وطبيعة النسيان لدي الإنسان تجعلانه يحنث بالعديد من العهود التي يعاهد عليها نفسه، وأنه في حياته يتعرض لاحداث جسام، فتضيف له شيئا أو تعلمه درسا جديدا،

أو تنير له طريقا كان مظلما، فتفتح بصيرته على واقع كان مستترا عن الأعين فخفي عن القلوب، فإذا علمه الإنسان النابه إتخذ إجراءاته الوقائية التي يحمي بها روحه وعقله من الفساد بعهد بينه وبين نفسه التي بين جنبيه، لذلك فقد كانت الكتابة وسيلة إستعادة للذاكرة ومعونة للعقل الباطن على ترسيخ المباديء والعقائد التي يلزم بها الإنسان نفسه ويحافظ بها على تاريخه من براثن الفقد وغياهب النسيان، فكذلك كانت كتابة المذكرات بالنسبة (للرواي).

وعلي ضوء المصباح الخافت، -عملا بنصيحة الصوت-أخذ يكتب عن تلك الأحداث التي تتالت بسرعة، كتب عن الإجتماع الأخير لقادة التنظيم وعن خيانة (وائل)، عن (الطيار) و(شوكت)، عن الهجوم المفاجيء لقوات الأمن، كتب عن المشاعر التي تملكته وهو وحيد في الكهوف، عن الحلم الذي رآه وأستيقظ منه على قطرات المياه المتساقطة على رأسه، كتب عن حبيبته (رغد) وعن إشتياقه إليها، عن زيارته لبيته القديم، كتب عن شعوره بالأسي والحزن والغضب والإحتقار، عن المسؤولية والإحباط، كتب عن كل شيء مر به وأحس به خلال الفترة الماضية، وكتب عن الصوت.

«أكتب.. ففي حروفك الخلاص» هكذا سمعت أذنه الواعية، هكذا صرخت نبضات قلبه المتتالية، هكذا إندفعت إرادته البشرية في عروق جسده الفانية، تدفعه دفعا نحو الكتابة وخط الأسرار، من أجل مجهول قد يقرأ كلماته فتثبت قلبه على الإخلاص، في لحظة من الفتنة لا ينجو منها إلا من حظي بإيمان صادق.

توقفت أصابعه الممسكة بالقلم الحبري عن حركتها معلنة إنتهاءه من الكتابة، فأغلق المجلد ووضعه في الصندوق مرة أخري ثم قام من مجلسه، وقف محملقا إلى الأرفف التي رصت عليها الكتب والمجلدات، دار حول المكتب وتوجه إلى ذلك الدولاب الخشبي المستقر أمامه، فتحه فبدت به شعور مستعارة وهيكل رأسي من اللاتكس ومستلزمات وأدوات أخري مثل

الملابس والأزياء التي كان (الراوي) يستخدمها في عمله كفرد من التنظيم، فكثيرا ما كان مضطرا للتخفي عن أعين السلطات ليبقي شخصيته مبهمة وغير معروفة، أخرج بعض الحاجيات من الدولاب ووضعها في الصندوق الذي أغلقه، وتسلق الحبل مرة ثانية ليصعد إلى غرفته، فما أن وصل حتي قام بخلع ملابسه الممزقة والتي كستها الدماء، ثم قام بتنظيف يده وجسده مما علق به من أوساخ ودماء بماء الصنبور، بعد ذلك إرتدي قميصا أبيض اللون وأرتدي فوقه زي عسكري فبدا كضابط من ضباط الجيش، وفوق كل هذا إرتدي رداء طويل أسود اللون فوق تلك الملابس، و زيادة في التنكر، وضع شاربا تحت منخريه ودهن سالفاه باللون الفضي حتي يبدو بسن أكبر من سنه، بعد ذلك أمسك بغطاء الرأس العسكري وخبأه في جيب داخلي للرداء الطويل، ثم أغلق الصندوق بالمفتاح الذي وضعه في غلافه الذي يشبه القلم مرة أخري، وغادر غرفته وهو يحمل الصندوق ، فاجتاز الممر، ثم خرج من تحت الأنقاض وتوجه إلى أحد البيوت المتهالكة التي كان يسكنها شيخ طاعن في السن والذي كان على صلة ب(الراوي)، في الماضي، كان الراوي يعرفه شكلا ليس أكثر، فكثيرا ما كان يراه مصادفة ، خاصة وأن مكان عمله في أحد الدكاكين القريبة من مقر التنظيم، وفي يوم من الأيام إختفي عن الأنظار، فسأل عنه، ولما علم أنه مريض ذهب إليه مصطحبا احد رفقاؤه في التنظيم - وكان طبيبا - ليعالج الشيخ، وبالفعل تم شفاؤه، من وقتها والشيخ يحمل الجميل له على حسن صنيعه، وأصبح أحد المخلصين، خطرت ببال الراوي فكرة ما، وهي أن يذهب للشيخ ويطلب منه إبقاء الصندوق عنده كأمانة، كان ذلك إستجابة لنصيحة الصوت المرافق له، وبالفعل وافق الشيخ على طلبه بكل ترحاب، ثم تركه والشيخ يتمني له التوفيق والنصر، بعد ذلك سار (الراوي) في عجالة إلى تلك البالوعة التي خرج منها إلى أرض العامة، فنزل بها، كانت المجاري أشبه بمدينة أخري تعرف (الراوي) عليها وحفظها عن ظهر قلب، فراح يدخل في أنفاقها وممراتها كمن يتجول فيها، فلما وصل

خارج المدينة وجد سيارته على حالها، فخلع الرداء، ووضع غطاء الرأس فوق رأسه، ثم ركب السيارة وقادها، متجها إلى ملاجيء الصفوة.

***

obeikan.com

obeikan.com

-٩-

تلة (العطافين).. تلك التلة التي إشتق إسمها من كلمة (عطف)، إشتهرت قديما بلجوء الصالحين إليها في يومين محددين من أيام الإسبوع، فاليوم الأول كان مخصصا للصلوات وشعائر التقرب للإله، والتعبد له وحمده على نعمه الكثيرة التي وهبها للإنسان، أما اليوم الثاني، فقد خصص للفقراء والمحتاجين، حيث يذهبون إلى هؤلاء الصالحين، فيقوموا بالإغداق عليهم بالكثير من الأموال والمتاع إبتغاء رضي الإله، هنا أيضا كانت توجد (ساحة المسلات العظمي)، تلك التي ترجع إلى عصر قدماء أهل تلك البلد، لقد كانت مزارا سياحيا أبهر العالم من حرفية صنعه، وطابعه الفني المثير للألباب، كان ذلك من الماضي السحيق الذي طوته يد الإنسانية الآثمة، أما الآن، فقد تحول المكان إلى صحراء جرداء، ليس بها شيء سوي ذلك الملجأ الذي خصص لتسكين الصفويين، فالتلة ردمت، والمسلات بيعت في مزاد دولي.

رغم الغبار الذي تزايد في الجو، إستطاع (الراوي) أن يري المشهد بوضوح، فتأمل انحاء المكان بحزن صامت، متأثرا بذلك الجرح الغائر الذي أصاب أعماق نفسه، وبدأ يتحدث إلى رفيقه الخفي، مشاهدا اللاجئين الذين جاؤا بمحض إرادتهم إلى هذا المكان، فقال :

- أتري.. قطع من اللحم والدم، لا يعنيهم سوي المادة.

- لعله يخلق من بين ظهورهم من يعني بغير ذلك.

- أتصدق ذلك ؟

- إنني أصدق أن الإنسان لا يعلم كل شيء.

- أوتعرف أنت ؟
- لي حدود لا أستطيع تخطيها.
- قل لي.. لم أنا ؟
- سؤالك يقع ضمن الحدود.
- أرأيت ؟ إنني رجل مجنون يتبع شبحا.
- قل لي أنت، لم هنا ؟ لم هذا المكان ؟ لم هذا الزمان ؟ كل شيء مقدر، أنا لا أستطيع التنبوء بالقدر، لكني أستطيع أن أقودك إليه.
- كنت اتمني ألا أكون بشريا، مجرد قط يفر برأس سمكة سرقها على حين غفلة من صاحبها، أو ضبع مشرد يتوه بين أشجار الغابات الطوال، باحثا عن فريسة افترستها مخالب أحد الأسود فيشاركه فيها، أو حتي طائر مهاجر يرفرف بجناحيه، فيشق الهواء في رحلة موسمية إلى مناطق يستطيع أن يتكيف مع مناخها، بدلا من ذلك التقلب الذي أصاب موطنه فلم يعد بإستطاعته العيش فيه، لكن ها أنا ذا، أحمل أثقالا تنوء بي، لا أعلم حتي إن كنت اهل لحملها أم لا.
- أنت سيد، تنتمي للإنسانية.
- فلتنظر ولتتمعن، هذا هو الإنسان الذي تتحدث عنه، يبيع ماضيه ويتخلي عن هويته.
- هذا ليس عيبا في الإنسانية، من قتل وهو ينتمي للإنسانية.. فهذا ليس عيبا في الإنسانية، من سرق وهو ينتمي للإنسانية.. فهذا ليس عيبا في الإنسانية، من باع حقا، من ظلم نفسا، من أضاع وطنا، هذا ليس عيبا في الإنسانية.
- أعلم ذلك، لكن بداخلي بركان من الغضب.
- أشعر بك تماما.
- أعذرني ..
- لا عليك.
- ما العمل الآن ؟

- يجب عليك أن تواصل رحلتك.

- حسنا، لا تتركني، فأنا الآن لا أثق إلا بك ..

- لن أتركك، فانا أيضا لا أثق إلا بك.

المشهد العلوي للطريق يظهر تكتلات لقبائل من النمل تسعي للإختباء في ثكناتها المبنية تحت الأرض، حيث تهرب في بيات شتوي من لسعات الشتاء القارص، وكقطعة طويلة من القماش، رمادية اللون، منقوطة بالسواد، تتصل إحدي نهاياتها بفوهة أحد أجهزة صناعة الأنسجة، أخذت الجموع الغفيرة من الجماهير المذعورة تسير فوق صراط الإنتظار نحو فوهة الملجأ، وكما شقت عصا (موسي) البحر، راح (الراوي) يشق جموع الناس، محاولا النفاذ من بينهم لبلوغ مدخل الملجأ، تساعده في ذلك هيبة بزته العسكرية التي كان يرتديها.

قرص الشمس بدا وكأنه يتهاوي من أعالي السماء، معلنا دنو وقت الغروب، مرسلا آشعته الراحلة لترسم آخر خطوط ظلية على سطح الأرض في ذلك اليوم، ومن وراء الساتر الترابي، ظهر القمر المكلوم في الإتجاه الشمالي وبصحبته كوكب صغير مجاور له من ناحية الشرق، دوي صوت المذياع الموجود بالمنطقة يتردد في الأفق، معلنا قرب موعد إغلاق أبواب الملجأ، من ثم إنتهاء التعبئة، ذلك لأن الضربة قد تغير موعدها وأصبح أقرب، القوات الأمنية منتشرة في المنطقة كرعاة بقر إنتظروا قدوم القطيع، الآلات والمعدات الحربية تحيط باللاجئين من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين تعالت صيحاتهم وصرخاتهم خوفا من المستقبل القريب، غريزة الكفاح من أجل البقاء على قيد الحياة تتأجج بداخل كل نفس واعية منهم، التشاحن والتصارع كان النتيجة الحتمية لتزاحم ذلك الحشد المنجرف كموجة بحرية عاتية، وكما تتساقط براعم النبت الصغيرة إذا أصيبت بالجفاف، تساقطت جثث المساكين من الضعفاء الذين لم يستطيعوا الصمود تحت أرجل لم تأبه لما تطأ، إنها نظرية البقاء للأجدر على السباحة مع التيار، هكذا رأي الدنيا

من حوله تتقلب في حاوية لصهر المعادن، هكذا كانت الصورة التي إنطبعت في نفسه ولن تغادرها مهما حدث ومهما تعرض عقله لمحاولات من محو للذاكرة، فالذكريات المحملة بشعور قوي لا تنسي أبدا، أحس بتوعك في أحشائه، وبرغبة سرابية في قلبه تتمني أن يعود إلى صندوقه الذي إئتمن الشيخ العجوز عليه، ليفتحه، ويقوم برسم ذلك المشهد بالكلمات في مجلد ذكرياته.

كانت لحظة توقفت فيها زفرات الزمن المخضرم، تحتاج للمئات من الملجدات والأوراق لوصف ما تعلق بها من مشاهد حية ومشاعر مصورة مكبوتة، قيامة دنيوية حوت بين أحضانها جنازة العدالة ومراسم إحتفالية لتتويج الظلم، أهوال تراكمت بعضها فوق بعض على جرف هار من المستقبل المنحدر إلى واد سفلي غير مرئي، الفؤاد لا يصدق والعين تشهد بالحقيقة، كابوس حي يتمني من فيه أن يستيقظ على هزة قوية تبعث الميت من رقاده، أو فلسفة مادية تنظر للعالم بعين الشكاك والمكذب فيري أن الحقيقة قد تكون حلما والحلم قد يكون هو حق اليقين، تهيؤات تعجز أرجلها عن السير في مستنقع إمتلأت قيعانه بالأشواك وأنياب الأفاعي السامة.

بعصبية، وضع نجيب يده على صدره وتحسس قلادته التي يرتديها حول عنقه، تمني أن يتحول إلى قلم حقيقي يسطر كل هذا على الورق، تمني أيضا لو أن الكرة الأرضية كلها تصورت أمامه في هيكل كروي محاط بغطاء الرحمة الشفاف فيرسم بقلمه المتحول هذا مجري آخر للقدر، راح يتسائل بينه وبين نفسه :

«إلهي.. هل أرتكب ذنبا بأمنياتي ؟ إلهي.. هل أعصاك بتهيؤاتي المستحيلة ؟»

أحس بالذنب يكسر أضلعه، كفيل هائج فر حديثا من سطوة صياديه تضرب قدماه الأرض بشدة، تهشم ما صغر من المخلوقات فوقها، تسائل وظل يتساءل، ولكن بلا جواب موصول.

في غمرة تفكيره وجد نفسه أمام مدخل الملجأ، لقد ألقته قدماه أثناء غيبوبته

Obeikan.com

الفكرية إلى تلك الفوهة العظمي، وجد عددا من الجنود يقفون امام المدخل لينظموا حركة دخول اللاجئين، وبجانب كل منهم جهاز يسمي(العراف)، حيث يطلب من كل شخص منهم أن يضع رسغه بين إسورة معدنية بوسط الجهاز تقوم باخذ عينة دقيقة من دم المفحوص لتدل على هويته في جزء من الثانية، أحس (الراوي) أنه في مأزق، لم يكن يعلم بأمر ذلك (العراف)، بالتأكيد الجهاز الجديد سيفضح هويته خاصة وأن الحكومة لديها بنوك من عينات الدم المخزنة لكل شخص موجود على أرض الدولة، تراجع (الراوي) بضع خطوات للخلف، محاولا الإبتعاد، لكن الصوت قال له:

- تقدم.. لا تخف.

وراعه أمر الجندي له:

- ضع يدك في الجهاز ..

حاول الإرتجال فقال :

- إنني ضابط بالفيلق الثالث، جئت بمأمورية لمساعدة القوات هنا.

- يمنع مرور أي شخص للداخل دون التحقق من شخصيته.

- أقول لك أنني ضابط، وملابسي تدل على ذلك بالتأكيد.

- لا يعتد بهذا الكلام، يجب أخذ عينة للتأكد من هويتك يا سيدي.

في تردد أدخل يده اليمني بين الجهاز الذي من خلال شاشته الملحقة به ظهرت صورة لشخص صورة (نجيب) الحقيقية، بالطبع كان الأمر غريبا بالنسبة للجندي، فقد رأي شخصا غير الذي أمامه، نظر الجندي له نظرة تعجب وقال :

- كيف ؟

- كيف ماذا ؟

- أقبضوا عليه ..

- بالتأكيد يوجد خطأ ما ..

- إقبضوا عليه.. إنه مجرم هارب.

حينها مد الراوي يده اليسري إلى الخلف، واضعا إياها على السكين المغمود في حزامه متأبها للهجوم على الجندي.

- يوجد خطأ بالجهاز بالفعل.

جاء صوت عن يمين الراوي متحدثا، لقد كان احد الجنود المنظمين لحركة الدخول إلى الملجأ، وكان أعلي درجة من صاحبه، فرد الآخر:

- كيف ذلك ؟.. إنه أفضل تطور تكنولوجي لدينا.

- ولهذا فهو قابل للخطأ، دعني آخذ مكانك لتري.

وتقدم الجندي المتحدث ليحتل مكان قرينه ووضع رسغه بين الجهاز، فظهرت على الشاشة صورة شخص آخر.

- أرأيت ؟.. إنه الرائد سامي، خدمت معه من قبل، خطأ العراف حدث معي أكثر من مرة.

نظر (الراوي) بدهشة إلى ذلك الجندي الذي بادله بإبتسامه بسيطة، وأوما رأسه له إيماءة خفيفة، لقد كان هو.. ذلك الشاب جاره القديم في (التحويلة) الذي عرفه صغيرا، لقد ساعده منذ زمن عندما توفي والداه وأصبح يتيما، كان يتكفل بمصاريفه حتي لا يلقي به إلى منطقة العامة، لقد أصبح شابا يافعا الآن، لقد تعرف عليه من صورته الظاهرة على الجهاز، إنه لم ينس إحسان (نجيب) إليه في الماضي، قال (الراوي) بصوت مملوء بقدر كبير من الثقة :

- نعم.. أنا الرائد سامي، لقد طلب مني القائد دخول الملجأ لمساعدة من بالداخل.

وجه الجندي الآخر لزميله الأعلى رتبة فقال له:

- إليس من الممكن أن يكون هذا المجرم في الداخل الآن !!

- هذا ليس ممكنا.. هذا أكيد، بالطبع دخل إلى الملجأ على حين غفلة منك من شدة الزحام، لكن ليس من مصلحتك إن تخبر أحدا بهذا الأمر، سيعتبرونك مقصرا ويحيلونك إلى محكمة عسكرية بتهمة التكاسل والتقصير، من رأيي أن ننتظر ولا نحدث جلبة قد تكون مضرة لك، في كلا الحالات سيكون هذا

الشخص محبوسا بالداخل، وعندما تنتهي الأزمة نستطيع أن نلقي القبض عليه بسهولة، أما الآن فمن الصعب علينا العثور عليه وسط ذلك الزحام.
ثم قال للراوي مبتسما:
- تفضل سيادة الرائد.
وأعطاه التحية العسكرية التي ردها (نجيب) بالمقابل.
تقدم (الراوي) بخطوات إلى الأمام، وظل متابعا بنظراته ذلك الجندي الشاب، أومأ إليه برأسه كعلامة شكر وعرفان له، وأبتسم إبتسامة أفصحت عن فرحته برؤيته، وأسفه للتلاقي في هذا الموقف السيء، ملأ هذا الموقف قلب (الراوي) شعورا بالأمل والإطمئنان، فقد كان بمثابة علامة من الإله له أنه يسلك الدرب الصحيح.
واصل السير في الممر الذي بدا كإنبوب إسطواني طويل قطره ثلاثون مترا قد قسم طوليا إلى نصفين متساويين، أحدهما هو ذلك الممر، أما النصف الآخر فلا علم بمكان تواجده، طول الممر يقترب من المائة متر ينتهي ببوابة كبري فتحت على مصراعيها تؤدي إلى دهليز ينحدر إلى الأسفل، بطانته من سبائك الألومنيوم التي أرسلت رائحتها في المكان فكادت أن تغمره لولا أن غطت عليها روائح عرق الجمهور المتشاحن، في مكان وموقف كهاذين، لا يستطيع الشخص أن يفعل شيئا سوي أن يترك نفسه لينجرف مع الحشد المندفع، ليس من مصلحته الآن أن يسبح عكس التيار، مبدأ إتبع القطيع مضاد تماما لمبدأ « لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه «، إنه عكس ما آمن به، مع ذلك.. فهو الأنسب في ذلك الموقف، فالحياة الشعورية للإنسان لا تسير دائما وفق قواعد وقوانين جامدة، وعلي الإنسان أن يكيف نفسه والأحداث التي تمر به، لأنه إن فشل سيصبح ضحية الإنكسار والفناء لعدم قدرته على التكيف ومواكبة الحدث.ليس معني هذا أن يتخلي الإنسان عن مبادئه، لكن لكل موقف قوانينه وقواعده التي تحكمه.
سار في طريق المدخل إلى وجهة غير معلومة، لم يدر هل كانت قدماه هي

التي تحمله أم التيار، وعلي الرغم من أنه كان يرتدي زيا عسكريا إلا أن الجماهير لم تلق له بالا، لقد كان كريشة ألقت بها رياح شمالية إلى أقصي الجنوب، لكن شعورا في النفس طغي على كل ما حوله، شعور بالمعية والتثبيت.

غطت جموع الحشد على رؤيته فلم تستطع عيناه أن تري مبلغ وجهته، كان أشبه بمختطف غمضت عيناه بوشاح كي لا يعرف إين المخبأ المتجه إليه، لم يستطع سوي أن يري سقف الممر المنحني، والذي كان أشبه – في مخيلته- بموجة تسونامي إرتفعت إلى الأعلي وأوشكت على إلتهامه، إنه مخيف أكثر من نفق (إرنستو ساباتو).

لم يحط بما حوله، ولم يتمكن من إدراك شيء إلا عندما وصل إلى الباب الذي أتصل بسلم ينحدر إلى الأسفل، وقف على عتبته جمع من الجنود المزودين باسلحتهم، وجد نفسه ينحدر لا تلقائيا مع الجمع الغفير إلى الواد الأسفل، من هذه البقعة التي وطئها بقدميه إستطاع أن يشاهد صورة شمولية للمكان، جمع غفير من الناس الذين تجمعوا عند نهاية هذا السلم المنحدر في ساحة كبري لم يستطع أن يتبين طبيعة أرضها، كشافات تشع النور الأبيض في كل مكان في تلك الساحة، مذياع قد أصدر صوتا يبعث فيه المتحدث تعليمات للاجئين لينظمهم، عدد كبير من الجنود والضباط الذين تواجدوا بالأسفل للمشاركة في التنظيم، قرر (الراوي) أنه الآن عليه التخلي عن زيه العسكري وعن ملامحه المزيفة، ففي وسط هذا الجمع لن يستطيع أحد ملاحظة ما يفعله، راح يخلع سترته ويلقيها تحت قدميه، وبعد عدة خطوات أخري خلع بنطاله وكوره، ثم أزال شاربه المستعار عن وجهه ورماهما، وحينما أنتهي من مهمته الصغيرة وجد نفسه قد وصل إلى إلى نهاية السلم، نظر إلى ورائه، فوجد شلالا من البشر يندفع إلى الأمام في مسافة تقدر بالخمسة وسبعين مترا، هاله المشهد فنظر إلى الأمام ثانية، ثم أغمض عينيه قليلا وراح يبحث في ماضيه عن ذكري جميلة تنسيه هيبة الحدث،

فوجد نفسه يجلس على حافة شلال بجانب حبيبته (رغد) وقد أمسك بيدها الصغيرة الناعمة، يقلبها بين كفيه ويستشعر نعومتها الحريرية، لم يلمس قط في حياته ما هو أنعم من يدها الملساء الرقيقة، لقد أحس يومها أنه وضع يديه على قلبها البرعمي الذي فتح عينيه على العالم للمرة الأولي، رفع يديها إلى أعلي وأحني رأسه ليقبل باطن كفها العذب، ثم رفع عينيه إلى ناظرها، وجد من عينيها نظرة لم يختبرها من قبل، أرادت أن تلقي بثغرها على يديه، فتنهال عليهما بقبلات تشع كنوزا من الحب والشعور بالإنتماء، فرغبة في أحشائها تريد أن تفصح عما حاولت مداراته من حبها له، إلا أن مانعها كان الخجل والحياء، لم يحتاج وقتها أن تتلفظ هي باي شيء أو تبلغ في كلماتها، لقد كانت نظراتها له كافية لإبداء كل شيء ملأ قلبها نحوه، كانت قبلته تقول أنه لو كان متاحا لعبد مثله أن يقدس شيء آخر غير خالقه لكانت هي الأحق، وكانت نظراتها تقول أنها تشعر بالإتصال الأبدي به حتي قبل خلق تلك السماوات والأراضين السبع، أنه كعبة الحياة بالنسبة لها، أحس بنغزة في قلبه ومرارة لرشفة من قهوة غير محلاة في أقصي حلقه، ففتح عينيه ليجد إنعكاس مرارته الشعورية في ذلك الواقع الحنظلي، تقدم إلى الأمام على مهل، إنتبهت مسامعه إلى المذياع المعلق بسقف الملجأ، الصوت يخبر الموجودين أن عليهم الإلتزام بالهدوء والإنصياع لتوجيهات الرجال العسكريين الذين راحوا يوجهون الحشود إلى الداخل من أجل تعريفهم بالملجأ، نظر (الراوي) نظرة تفحصية للمكان فوجد منافذ للتهوية إنتشرت على جدران الملجأ المصنوعة من الحجر الجبلي، مصادر الإضاءة عبارة عن صفوف متوازية من المصابيح الملحقة بالسقف العلوي الممتد لمسافة شاسعة إلى الأمام، والذي كان علامة لمساحة الأرضية المختفية عن الأنظار والتي قدرها ب ٢٣٠ قدم، عرض الملجأ يقترب من ١٦٠ قدم، خمن أن هذه المساحة تتسع لتسعة عشر ألف شخص وقوفا، تقدم الراوي إلى الأمام، متبعا ذلك الحشد الموجه من قبل فصيلة من الجنود الذين راحوا يعرفون الناس بأماكن الملجأ، فأتجهوا

أولا إلى ساحة الطعام، وهي غرفة كبري مغطاة حيطانها بالبلاط ذو اللون السماوي، تحتوي على طاولات كثيرة جدا، متراصة جنبا إلى جنب، وملحقة بكراسي قابلة للطي، تستوعب كل واحدة منها ثلاثمائة شخص، بحيث ان كل صف من نواحيها يتحمل مائة وخمسون شخصا، زودت بأنابيب رأسية تتصل بالسقف وترتفع مترا فوق الطاولة بحيث يسقط الطعام من فوهتها ليستقر على طبق معدني مقعر من الألومنيوم.توجهت فصيلة الإرشاد بعد ذلك إلى ساحة الحمامات، والتي أعدت لقضاء الحاجة والنظافة، كانت عبارة عن منطقة غطت حيطانها بالسيراميك الأبيض، وتحتوي على عدد كبير من الغرف مفتوحة السقف تؤدي إلى السقف الأعلي للملجاء، بكل واحدة منها مقعد للفضلات مزود بمصدر للمياه، في حين إحتوت كل غرفة على باب ليغلق على الشخص أثناء إستخدامه لدورة المياه، ثم توجهت الفصيلة إلى منطقة الإيواء، حيث قسمت إلى منطقة لإيواء السيدات وأخري للرجال، وكانت كل منطقة تحتوي على عدد كبير من الأسرة التي تتكون من طابقين رصت بجانب بعضها وزود كل سرير بغطاء من الصوف ووسادة للنوم عليها، كل هذا والمذياع يدوي صوته في أنحاء الملجأ ليعرف اللاجئين بتلك الأماكن، ويلقنهم إرشادات إستخدامها والمواعيد المخصصة لكل منها، بعد ذلك وجه اللاجئين إلى الساحة العمومية من الملجأ حيث تم الإستماع لإرشادات المكوث في الملجأ.

كانت عقارب الساعة المغتربة تسير بثبات على مضمارها لتشير إلى الواحدة والربع صباحا، الساعات الماضية قد مرت ببطء دون محاولة ناجحة في دفعها بقوة إلى الأمام للإسراع من حركتها، أوقات مثل تلك من الأفضل لها أن تمر بسرعة، من الأفضل لها ألا تكون موجودة بالأصل.. ولكن هيهات.

كان الملجأ يكتظ بالقادمين الذين أتوا بحثا عن ملجأ لهم من الخطر المقبل، و بالرغم من أن مساحة الملجأ لا تستوعب سوي مائة وعشرين ألف شخص فقط، إلا أن اعداد اللاجئين كانت أكثر من ذلك بكثير، بالطبع أمر

مثل هذا لهو مأزق جلل لم يتم إستيعابه إلا وقتما أحس الناس بالتعب والإجهاد وغزاهم النوم في عقر جفونهم، فأتجهوا إلى مناطق الإيواء راغبين في الراحة بعد ذلك اليوم المتعب، ولكن صدم اللاجئون بعدم قدرة الأماكن على استيعابهم جميعا، فأضطرت كل مجموعة للنوم على سرير واحد، أما هؤلاء ممن لم يجدوا مكانا لهم، فقد إتخذوا من الأرضية فراشا، وكذلك فعل (الراوي) الذي شعر بتعب اليوم كله ينصب فوق رأسه، فجلس في مكانه، وأسلم نفسه بين أحضان النوم، ليختطفه بعيدا.. بعيدا جدا، عن أرض اليقظة المرير.

***

obeikan.com

obeikan.com

-١٠-

« ربما أستيقظ فأجد نفسي في كوكب آخر.. في عالم آخر.. في زمن آخر.. ربما تتبدل خياشيمي.. فأستنشق هواءا غير الهواء ..هواء غير معبأ بالغبار.. ربما أجدني شخصا غير ما أنا عليه.. رب آخر خير من هذا وأفضل.. إنني أستنكر كلمات من الماضي الشاذ الذي لعن حاضري.. فصوت يعدو من فوق رأسي.. كشهاب يخترق حاجز الأسماع.. يقبض على أنفاسي.. إنني وما أنا عليه لا أعلم.. لا أعلم حتي إن كنت لا أعلم.. ألقيت في فلاة من الجهل واللايقين.. وتركت بنفس.. تستحق النذر اليسير من الشفقة»

همهم (الراوي) بتلك الكلمات وهو يجابه قوة جفنه التي ثقلت على عضلات عينيه، كلمات سافرت من أقصي اللاوعي لتؤرق وعيه، كان كمن أعيته الحمي، فراح في ظلمات عالم مجهول من الأحداث اللامعقولة.

للحظة.. أحس أنه فقد ذاكرته، تأمل تلك اللوحة الزرقاء، والتي وجدها أمامه عندما فتح عينيه، كانت ثابتة.. جامدة، كجمود جبل من الكتل الثلجية التي لا تذوب، كان الغبار قد تعدت آثاره جميع الحواجز والموانع، فمرت من تحت أعقاب الأبواب، وبلغت أعماق المكان، ليترك ترابه في فم)الراوي(طعما تأذت له نفسه، ذكره ذلك بكل شيء من حوله، وعاد إليه وعيه المفقود، فتذكر إين كان.. وأين أصبح هو الآن، تحسس صدره، فوجد قلادته لاتزال في مكانها، إطمأن إلى إستقرار رفيقته دون حراك، إن حالة شعورية قد جمعت بينهما فجعلت رفيقته تتأثر بصاحبها لتصبح جثة هامدة مثله، على الأقل وجود جثة صامتة مؤنسة خير من وجود لا شيء، هكذا قال

obeikan.com

في نفسه، إسترعي إنتباهه طنين من الذبذبات المتتابعة التي إنقضت على مسامعه فأفزعت سكونه، أغمض عينيه مرة أخري في محاولة منه لشحن طاقته السلبية، وعندما فتحها ثانية وجد نفسه مستلقيا على أرضية إحدي جحور النمل المهجورة، فنبت بها أطنان من التكتلات الطفيلية الحية.

دوي صوت المذياع في الملجأ صاحبه إنبعاث حركة في الأرجاء، إستيقظ كل من في المكان على نداء الإفطار، عدم وجود ساعة في المكان جعل من العسير على أي أحد التعرف على الوقت، لكن الجميع ظن أن الساعة تشير إلى السادسة صباحا، النداء كان يتضمن إرشادات التوجه إلى ساحات الطعام من أجل تناول وجبة الإفطار، على عجل قام الجميع متوجهين إلى ساحة الطعام التي إكتظت اولها عن آخرها بالجوعي من الرجال والنساء والأطفال، إنضم الراوي للحشد المتقدم حتي يحصل على دفعته من الطعام ليجد ان المجالس ملأي على آخرها، حينها سمع الجميع صوت المذياع يقول : أن على الجالسين في ساحة الطعام القيام من أمكانهم عند سماع صوت الصافرة، وهذا كي تتمكن المجاميع الأخري من الحصول على حصتهم من الطعام، وهكذا فإن كل مجموعة من الناس تجلس لتنال وجبتها، ثم تقوم بعد سماع الصافرة لتفسح المكان، فتتمكن مثيلاتها من التساوي بها.

مر ما يرنو على ساعتين والناس وقوف منتظرين لدورهم، وبالرغم من أن الفرق بين كل صافرة والاخري كان لا يتعدي الخمسة دقائق، لكن إستيعاب هذا القدر من الساكنين الذين وصل تعدادهم تقريبا إلى الأربعمائة ألف شخص كان أمرا صعبا، كانت المجموعات تدخل من مدخل ثم بعد سماع الصافرة تخرج من الناحية المقابلة لها، فتسمح بدخول مجموعة أخري من الجوعي من ذلك المدخل التي قدمت منه، وحينما جاء دور المجموعة التي كان)الراوي(فردا منها، وجد من أمامه يتجهون إلى حائط ملحق به أرفف خشبية، رصت عليها صحون حديدية، وأخذ كل شخص من المجموعة صحن له، ففعل مثل ما فعل من سبقوه، ثم اتجهوا إلى الكراسي الملحقة

بمناضد الطعام الطويلة، وعندما جلس الجميع، سمعوا صوت المذياع يلقي توجيهات لكل شخص بوضع طبقه الخاص تحت فوهة الأنبوب التي تقابله، حيث يسقط منها الطعام، وبعد الإنتهاء من الأكل فإن كل شخص مسؤل عن تنظيف والحفاظ على هذا الصحن الذي أكل منه، لأنه سيكون خاصا به خلال تلك الفترة التي سيقضيها في الملجأ، وبالفعل وضع كل من جلس صحنه تحت فوهة الأنبوب، حيث تساقطت منها كتلة هلامية غير محددة الشكل، حينها قال صوت المذياع أن تلك الوجبة تحتوي على عناصر هامة للجسم، وأنها سوف توزع مرتين في اليوم على سكان الملجأ، نظر)الراوي(إلى صحنه الممتليء بتلك الكتلة من الطعام غريب الملمح، مطيلا النظر إليه، حتي راعسماعه صوت الصافرة التي نبهت جميع الجالسين وأمرتهم بالإنصراف.صوت الصافرة كان إلكترونيا، شبيها بصوت صفير بوابات الكشف عن المعادن في المطارات والأماكن الهامة، قام (الراوي) من مجلسه متبعا مجموعته التي سارت نحو مخرج ساحة الطعام، في حين ظل ينظر إلى صحنه في تأمل.

مد (الراوي) إصبعه بداخل الصحن وأغترف منه غرفة بمقدار عقلة الأصبع وقربها من أنفه، إشتمها، فوجد رائحتها أشبه برائحة لحم التون الممزوج بالجبن الأبيض، خليط غريب جعل عنده الفضول في تذوق طعمه ، مما حدا به إلى وضع طرف إصبعه فوق لسانه ليتذوق ذلك اللون من الطعام، كان طعمه شبيها بطعم البيض المقلي المخفوق، تذكر كم كان يكره البيض في حياته السابقة، لكن شعوره بالجوع والإجهاد جعله ينسي أي كره وأي إختيار، لا مفر من أن يأكل من ذلك المصنوع الغريب ليتقوي به، لا يوجد خيار آخر في ذلك المكان إلا الموت جوعا، تذكر حينها أيام تجنيده وإنضمامه للجيش، حيث كان يقدم له أردأ الطعام ومع ذلك كان لا يبالي، ففي حين رفض قرناؤه وقتها هذا الطعام وأصاب الغثيان الكثير منهم بسببه، إلا أن (الراوي) أخبر نفسه وقتها بأنه ليس في مطعم بهي او في فندق من الفنادق

المشهورة كي يقدم له أفضل وأشهي الطعام، بل إنه في الجيش، لذلك هجم حينها على طبقه وراح يأكل من الطعام كما لم يأكل من قبل، التجربة جعلت منه شخصا قادرا على التكيف وتقبل الأسوأ، راح ينظر إلى من حوله من الناس الذين أصابهم القيء واللذين لم يستطيعوا تقبل هذا الطعام، في حين راح هو يلتهم ما في صحنه إلتهاما وسط نظرات الآخرين له في تعجب وفضول.

أنهي طعامه الشهي المطعم باللزوجة، وأتجه بعد ذلك حسب التعليمات إلى مصدر المياه الموجود بالملجأ كي يغسل طبقه الذي سيحتفظ به ويكون مخصصا له خلال فترة الإلتجاء، كان يسير بين الناس كأنه ينتمي إليهم، واحد منهم، رغم ما حملته نفسه وروحه من أمور ومواضيع معنوية جعلته لا منتمي لهم في عالم الموجودات الغيبية، لكن ذلك لم يضف على هيكله الخارجي أي غرابة عن الآخرين، رغم أن عالم الماديات لا يعترف إلا بالمرئي والملاحظ إلا أن الحقيقة في كنهها لا تستلزم أن تكون مرئية، حقيقة الإنسان ليست في جلده وعظمه ولحمه ودمه، حقيقته دائما لا مادية، تختبيء في الداخل بين ثنايات مادية تملأ الضوء المنعكس على شبكيات الأعين، لذلك فإن الصور الكلية قد تلهي عن التفاصيل التي تحمل أهمية جمة في جعبتها، وليس من الأمر اليسير على المرء إكتشاف تلك القيم العظمي في التفاصيل، الأمر مرهق وصعب، ولكن لزاما على المرء، بل إن الإنسان مكلف بالتعمق للوصول إلى الحقيقة، نعم.. مكلف بذلك، حتي ولو لم يكن أمر التكليف شفهيا أو مكتوبا، إنه تكليف روحي حمله الإنسان معه لحظة وجوده كفرد في زمرة الخلق.

لقد كان أمرا عاديا، على أي مار بذلك المكان أن يري ذلك الرجل ذا الخمسة والأربعين عاما، والذي جلس على أرضية الملجأ وحوله طفله، فلا يتكترث له ويواصل سيره، رد فعل طبيعي من هذا التكتل البشري الذي لأ يأبه فيه أحد لأي شخص سوي نفسه، خاصة وأن هيئة الرجل كانت لا تثير أي ريبة،

فهو متربع على الأرض، ينظر أمامه، أسند ظهره إلى أحد حوائط ذلك المكان، يحمل صحنا ممتلئا بالطعام بين يديه اللتين إستراحتا على فخذيه، بصحبته طفل على الأغلب هو إبنه الصغير، والذي قد إنشغل باللعب عما يحدث من حوله، بالنسبه للجميع فقد كان مشهدا لرجل، جلس ليستريح من إجهاد ذلك اليوم الزائل، وتعب اليوم الحاضر، لكن الأمر بالنسبة (للراوي) كان غير ذلك، الفضول بداخله جعله يتمعن ولا يمر على ذلك المشهد مرور الكرام، سار نحو الرجل ليستكشف أمره، الفضول أشعل بداخله محرك الرغبة والإرادة في التقدم، أقترب اكثر.. وأكثر.. وأكثر، حتي أصبح قبالة الرجل الذي لم يعر أي إهتمام لهذا الغريب الذي وقف قبالته، وظل ينظر أمامه كأن أمرا ما قد شد كلية تركيزه، جثم (الراوي) على ركبتيه ونظر في عيني الرجل، لكنه ظل متسمرا على حالته تلك، فلم يرمش له جنف، عندها أمسك (الراوي) بيده اليسري ليتحسس نبضه، فوجد أن نبضه قد توقف، نظر إلى بؤبؤتي عينيه فوجدهما متسعتان إتساع فوهة بئر أصابه الجفاف، رفع يديه نحو وجه الرجل ليغمض عينيه وهو يشعر بأسي، لم يكن جديدا عليه مشاهدة أحد الأموات أمامه ثم يقوم بتغميض عينيه، ذكره هذا الموقف بتغميضه لعين رفيقه (خالد) الذي مات بين يديه، أحس بوخزة في صدره، لكن الأمر الذي وخزه بقوة أكبر هو رؤيته لذلك الطفل الذي تيتم حديثا، لم يتعد عمره الثلاث سنوات، إنهمك في لهوه بتلك الكرة الصغيرة دون وعي لما أصاب هذا الرجل الذي هو بصحبته، أخذه المشهد أكثر.. وألقاه في عالم ناء، يبعد أميال ومسافات ممتدة في عمق الشعور الإنساني، رحلة قصيرة إمتزجت فيها مشاعر الإشفاق بالرحمة، وطالت بسؤال رقيق من الطفل له :

- هل أبي حزين ؟

راحت نظرات الطفل البريئة تفتت قلبه كذرة من القمح بين شقي الرحي، تصحر حلقه الأجرد، وتلجم لسانه ففقد القدرة على النطق، دمعة أوشكت على الهروب من سجن جفونه لكنه منعها، إرتأي أن التماسك في هذا الموقف

المحزن هو الأفضل، تنحنح ليطرد الغصة الملقاة في أقصي حلقه، ثم فقال:

- لا يا عزيزي ..

- إذن لماذا لا ينظر إلى ؟

- إنه نائم.. يريد أن يستريح قليلا.

وبحركة لا إرادية منه، إجتذب الطفل نحو صدره وأحتضنه بقوة، لم يدر من منهما كان في حاجة لذلك الحضن، أهو الذي كان في حاجة إليه كغطاء لكذبته البريئة التي أحس بالذنب يفترسها، رغم حسن السريرة والإنسانية التي تغلفها، أم الطفل هو الذي إحتاج لتلك الضمة التي تحيطه فتحميه من أوجاع الواقع الذي نسي أن يضع في رحاله النذر اليسير من الشفقة، لكن سرعان ما تبدد أثر السبب الأول حينما تذكر أن الكذب مرخص في ثلاث حالات لا غير، أولهما في الحرب، من أجل خداع العدو، وثانيهما، ففي الإصلاح بين المتخاصمين من الاحبة والأهل والأصدقاء، أما السبب الثالث، فكان دوما ينساه، لكنه في تلك اللحظة وجد أن حالة كالتي يمر بها، وأمرا مثل هذا الأمر، لهو أحق بان يكون سببا ثالثا.. يرخص فيه الكذب.

أثنا ذلك الوقت، بدأ اللاجئين يشتكون من ذلك الغبار الذي تسلل إلى المكان، وأصاب ذلك الهواء المستنشق بترابه المزعج، فضاقت منه صدورهم، ولم يقف تأثيره عند ذلك، بل لقد أصابهم في طعامهم وشرابهم، حتي ملابسهم.. لم تسلم من تأثير الغبار، فقد إعتلتها الصفرة رغم مرور أيام قليلة عليهم في الملجأ، أوحت للرائي بقدم وجودهم في ذلك المكان.

***

obeikan.com

-١١-

« مرت فترة أقدرها بالستة أشهر، لم أعد أستطيع تبين حقيقة طول الوقت لتشابه الأيام ببعضها البعض، الليل لا يختلف عن النهار، لا وسيلة هنا للتفريق بينهما، لا جديد منذ أن وطأت قدماي أرض هذا الملجأ، لم يختلف شيء في تلك الحياة الروتينية التي لا يعلم لها آخر، مملة هي، في سجن منحوت في باطن الأرض، مدنس بأوساخ وعفن أتباع البشرية الموبوءة بمرض اللامبالاة، فأصبحوا أنعاما لا تهتم بأي شيء يحدث فوق الأرض، فقيل لهم إهبطوا منها جميعا، إين أنت يا رفيقي؟ إنني أبحث عنك دون جدوي، أناديك دون إجابة منك، قلت لي أنك لن تتركني لكنك حنثت بوعدك، من كان ليفهمني غيرك الآن، من كان ليشاركني محاوراتي العقيمة غيرك الآن ؟»

بالفعل لم يكن هناك أي تغيير، التغيير الوحيد كان في ملامح اللاجئين الذين أتشحت وجوههم بالوسخ وصاحبتهم الرائحة النتنة المتعلقة بملابسهم التي بدأت تتهالك، فهي وسيلتهم الوحيدة لمداراة العري الخارجي منهم، والتي كان من الصعب غسلها نظرا للإنقطاع الدوري للمياه في الملجأ، فانعدمت وسائل النظافة اغلب الوقت، حتي أن الغبار الذي تسلل إلى الملجأ، أصبح شيئا عاديا، فلم يعد الساكنين بالملجأ يشتكون منه كما كانوا يفعلون من ذي قبل.

الكدر أصاب أهل الملجأ من وجودهم الطويل به، فبدأ الملل يتسرب إلى صدور أغلبهم، حتي (الراوي)، لم يكن هناك أمر يجعله يتحمل طول تلك الليالي الفاترة.. المتكررة، وهذا العفن البشري المقزز، سوي هذا الطفل الذي

أتخذه أبنا له، أسماه (واصل)، وإهتم برعايته وملاطفته، وحماه من حيوانية إجتاحت من حوله من الناس، ليصبحوا أكثر طمعا وجشعا من ذي قبل، فقد وصل بهم الأمر لدرجة تجعلهم يحاولون إغتصاب حصة طفل صغير من الأكل، من أجل إرضاء شهوة نفسية وجسدية أنانية، ظل أمر آخر يؤرق (الراوي) غير طول البقاء في الملجأ وهو إختفاء الصوت المتحدث معه، صوت رفيقه الخفي، ففي خلال تلك الفترة الماضية لم يحدث وأن حاوره كما كان يفعل، فأحس بوحشة وإشتياق، وأخذ يعاتبه بينه وبين نفسه لأنه نكص بما وعده، وهو ان يكون بجانبه، فلا يتركه.

في يوم من الأيام، تجمع حشد كبير من الناس في حلقة دائرية بقلب الملجأ، حيث هرع الجميع إلى ذلك التجمع الذي حلق برجل أمسك ملعقة من رأسها، ثم راح يصرخ بأعلي صوته ويقول:

- لقد تعبت، كان من الأفضل لي ان اموت في الأعلي، اننا في سجن، لم نأت إلى هنا من أجل الحماية، إنقدنا إلى هنا كي نسجن، تتبعنا آثارهم، إنقدنا لأوامرهم، قمنا بالتصفيق لإقتراحاتهم، بعنا كل شيء لهم من أجل ماديات مسيرها إلى الزوال، تخلينا عن حقوقنا واملاكنا، نسينا الحقيقة وتمسكنا بالوهم، تغافلنا عن الواقع وركضنا وراء السراب، تركنا الإخلاص، لإجل ذلك خسف بنا في هذا المكان السافل، بلغنا درجة من الوطو نستحقها، أنا لست مجنونا.. لكني على وشك الإصابة به، بسببكم، بسببهم، بسببي، الموت أصبح الحقيقة الوحيدة بالنسبة لي، أن أموت أفضل بكتير من الحياة بين انعام أمثالكم ، الموت أفضل لي من أن أجن ..»

ثم صوب مؤخرة ملعقته نحو رقبته وقام بنحرها، فأفجرت ماسورة من الدم المتدفق، وأصاب الفزع تلك الجماهير العريضة التي أتت لمشاهدة هذا العرض المسرحي، لقد أبلغ ذلك الرجل وأخرج ما في جعبة (الراوي) الذي لولا إيمانه ومهمته الشاقة التي يحملها على عاتقه لفعل مثله، إن شجاعة هذا الرجل وإقدامه على فعل ما فعل لهو أمر يستحق التقدير، تمني (الراوي)

حينها لو كان يمتلك ذلك النذر من الشجاعة التي تمكنه من أن يحذو حذوه، لكنه تفكر في نفسه وفي أمر مهمته، إن مهمة كالتي يتحمل مسؤليتها توجب عليه الحفاظ على الكتمان، على السكوت وقت الغضب، على الصبر وقت نفاذ ما لدي الآخرين، على التمسك بإيمان قوي يجعله قادرا على الصمود، كل ذلك يتطلب شجاعة من الشخص الموكل بالمهمة، فالشجاعة ليست مجرد إندفاع وثورة، الشجاعة قد تكون قبضة يقبضها الإنسان على روحه ونفسه من الوهن والإنكسار، إنه شجاع بالفعل ولكن بدون إعلان وصخب، فليس منوطا بالشجاع أن تكون شجاعته ظاهرة للملأ، يكفي تجلي صدي صيحاتها في أرجاء نفسه.

تناثرت دماء ذلك الرجل في أرضية المكان، وتعالت صرخات الجميع من ذلك المنظر البشع، وأنفجر الأطفال في البكاء من الخوف والفزع، في حين راح (الراوي) يجتذب الطفل بقوة إلى صدره، ليواري عن عينيه بشاعة الحدث، ثم قال له عندما أحس به يرتجف:

- لا تخف.. لا تخف

- أبي.. ما هذا الذي حدث ؟

- إنه مريض.

- ما معني مريض ؟؟

« مريض مثل بقية من حولنا يا بني، مريض نهش الوباء في جسده حتي لم يعد يحتمل ألمه، الموت بالنسبة له كان أكثر رحمة من قلوب متحجرة وعقول خاوية «

- به شيء ضار، يأكل في جسده.

قال الطفل والبراءة تشع من وجهه:

- لا أريد أن أكون مريضا يا أبي، ولا أن تكون أنت مريضا.

- اطمئن.. أنا وأنت لا نحمل هذا المرض، إننا أصحاء.

في تلك الاثناء فتح باب الملجأ، واقتحمت المكان من فرقة من العسكريين

أحاطوا بموقع الحادث، فراحوا يبعدون الناس عن جثة الرجل المنتحر، ثم حمله ثلاثة من الجنود وذهبوا به إلى خارج الملجأ، في حين راح الضابط المترأس لتلك الفرقة يتحدث موجها كلامه لكل الموجودين :

- لستم هنا من أجل سجنكم، أنتم هنا لنحميكم، لستم على علم بما يحدث في خارج هذا المكان، أعرف أن الفترة طالت عليكم والمكان ليس معدا إعدادا تاما، لكن يجب أن تعرفوا أنكم هنا في مأمن، العالم في الخارج يحترق، الحرب في الخارج على أشدها، حاولوا ألا تفقدوا إخلا.. صبركم، أرجوكم.

فهم (الراوي) من كلام الضابط أمرين، أولهما أن بالملجأ كاميرات لمراقبة المكان ومتابعة الحياة فيه، اما الأمر الثاني فهو أن الضابط لازال يحتفظ بإخلاصه مثله، وان ما يفعله ليس إلا إمتثالا لأوامر قادته، مثله في ذلك مثل كثير من المأمورين الذين إنساقوا لأوامر قادتهم وقلوبهم تحمل غير ذلك، فقد كاد أن يقول « إخلاصكم»، لولا أن تدارك نفسه بسرعة وقال « صبركم «.

بعد أن إنتهي الضابط من كلامه دقت الاسماع صوت قعقعة شديدة، صاحبها رجة قوية إجتاحت المكان، هنالك صدرت إشارات الإنذار من المذياع وصوت محذر يقول :

« الهجوم النووي قد بدأ، نرجو من الجميع الإلتزام بالهدوء.. الهجوم على أشده، يجب على الجميع الإلتزام بقواعد التواجد بالملجأ «

حينها هرع الجميع صارخين في هلع بعيدا عن مدخل الملجأ، فتدافعوا من أجل الوصول إلى أعماقه إستجابة لنداءات الضابط الذي أمرهم بالإبتعاد عن البوابة والإحتماء في الداخل، ثم إسرع هو جنوده متجهين إلى بوابة الملجأ التي سرعان ما أغلقت فور خروج القوة العسكرية.

أسرع الراوي حاملا الطفل وأتجه به إلى الداخل، محاولا حمايته من تلك المعمعة التي إجتاحت المكان فجأة، ومن ذلك الحشد البربري المتدفق الذي يقضي على الحياة تحت أقدامه دون مراعاة لأي شيء أو أي أحد، حمله كأم تريد حماية طفلها من بركان قد ثار فجأة فكاد أن يأكل كل شيء يسد

طريقه، الأمر كان صعبا، أثار في مخيلة الراوي شيئا من الماضي القريب، فتذكر كيف كانت الجموع تندفع إلى بوابة الملجأ ذلك اليوم الذي أتي فيه هذا المكان، وكيف داست الأقدام على تلك الأجساد التي ماتت جراء الحمل الثقيل الذي تحامل عليها، هاهو ذات المشهد يتكرر الآن أمامه بقسوة هي أشد و أقوي من ذي قبل.إهتز المكان من حوله متأثرا بإصطدامات خفية تنهال على سطح الأرض، موقف يجعل من يعيشه يشعر كأنه مستقل لحافلة إرتطمت بقطار مسرع لا تبطئه عوامل الإحتكاك القضيبية، ذلك الإصطدام الذي لم يات على دفعة واحدة ولكن على دفعات متتالية، مشهد يجعل الأبصار تشخص والأجساد ترتعش والقلوب تسقط من عليائها إلى أقصي الأطراف في هاوية الأقدام المشلولة، و(الرواي) راح يتمتم بكلمات فيها يسبح فيها الإله كردة فعل منه لما يحدث، بيقين في قلبه يخبره بأن الذاكر للإله لا يصيبه شر إذا ما وقع.

لم تكن تلك الإهتزازات هي الشيء الوحيد المفاجيء، ففي تلك الأثناء، إنبعث دخان أزرق من نفاثات موجودة بسقف الملجأ، فراح يعوم سابحا في أرجاء المكان، وصدر صوت من المذياع يخبر الموجودين بان ذلك الدخان هو نفسه الذي كان ينشر في الأجواء من قبل، وأن تلك جرعة مكثفة منه لحمايتهم من خطر أي تسريب إشعاعي قد يحدث داخل الملجأ، غمر الدخان أركان المكان لدرجة جعلت الجميع يتخبطون، فلم يكن بمقدور أحد من اللاجئين الرؤية بوضوح، فسقط بسبب ذلك الكثير من العجائز والأطفال والنساء ممن لم يستطيعوا مواكبة التدافع، وتعالي الصراخ ورجت صيحات الهلع والفزع أنحاء الملجأ، وبعد خمسة دقائق في خضم ذلك الحفل العشوائي سقط الجميع في إغماءة أصابتهم، فافترش المكان بالأجساد المترامية في كل ناحية، حتي إختفي سطح أرضية الملجأ عن الأبصار.

إستيقظ الجميع من إغماءته، ليجدوا أنفسهم وقد تمددوا على الأرض، ولما

بدأت تدب الحياة في أجسادهم، بدأوا في النهوض واحد تلو الآخر، لكن كان هناك العديد من الأجساد التي لم تستجب لرمقات الأنفاس والحياة، فظلت على حالها، وعندما راحت الحركة تجوب في أنحاء الملجأ مرة أخري، إكتشف الأحياء ان هؤلاء من ظلوا على حالة السكون، ليسوا إلا موتي ، كانوا كثيرين بعدد يقدر بالآلاف، فإعترتهم الحسرة وأعتصرهم الألم، وذلك لإنه كان عندما يستعيد أحدهم وعيه بالكامليجد ان تلك الجثة الممدة بجانبه تخص أحدا من أقربائه، أو أهله، أو أصحابه، فاخذ يبكي كل من كان على قيد الحياة ألما لفراق ذويه الميت، وتعالت نهنهة البكاء والعويل المتفجرة من القلوب المحترقة من الوجع، حين ذلك بدر صوت المذياع بإنذار وأمر للجميع :

«نحذر جميع الموجودين من الجثث الموجودة بالمكان وخطرها على الصحة، لذلك يجب على الجميع التعاون في التخلص منها، سوف يفتح باب أرضي في ساحة الملجأ الكبرى يؤدي إلى فوهة سفلية، ويجب على الموجودين نقل تلك الجثث إلى تلك الفوهة وإلقائها فيها حتي يتم عزلها عن باقي اللاجئين، الأمر هام ولا يقبل التباطؤ أو التخاذل، وإلا سوف يؤدي وجود هذه الجثث إلى إنتشار المرض وموت كل من في الملجأ.»

شرع الجميع في حمل الجثث الملقاة في كل مكان بالملجأ وإلقائها إلى مثواها الأخير، في تلك الفوهة التي إبتلعت أجسادا مسلوبة الإرادة، المشهد كان أشبه بجنازة تعددية لقتلي كثر مصحوبا بنحيب وعويل، ينتهي برمي كومة من القمامة البشرية في سلة كبري للمهملات، للتخلص من أثرها الضار على صحة شرذمة من المرضي، تضمنت الجثث رجالا ونساءا وأطفالا، وانقسم الأحياء إلى مجموعات لحمل تلك الجثث، وكلما كانت تتخلص مجموعة ما من حملها تعود أدراجها باحثة عن كتلة لحمية أخري تلقي مصير أختها، الأمر الذي إستمر نصف يوم كامل بسبب ذلك العدد الهائل من الموتي الذين راحوا ضحية تدافع الجمع الغفير من الموجودين في هذا السجن السفلي. وبالنسبة للراوي، فقد شارك الجميع في هذا العمل، إلا أنه فوجيء بشيء

أثناء عمله كاد بسببه أن يصاب بذبحة صدرية، وهذا عندما وضع يده على صدره.. فلم يجد القلادة.

***

obeikan.com

obeikan.com

-١٢-

إنتهي الجميع من عملهم وأعياهم التعب، فعاد المشاركون في الدفن الجماعي إلى تجمعهم حيث ألقوا بأجسادهم المنهكة على الأرض لتستريح، وتجمع حول كل رجل من الرجال أهله وأقاربه، وبغير إتفاق مسبق راحت أعين الموجودين تتلاقي مع بعضها في حوار صامت عن أمر مبهم، وكأن احدهم يريد أن يسأل الآخر عن شيء لكنه يخشي ذلك، ولما طال ذلك السكون، ثار صوت أجش مبددا إياه، فقال:

- ما الذي حدث ؟

راحت نظرات الجميع تتبع مكان هذا الصوت الذي بدا كمكشاة ضوء في ليلة حالكة السواد، ورغم مطاردة الأسماع والأنظار لهذا الصوت، إلا إنه لم يستدل على صاحبه، لكنه تفوه مرة أخري قائلا:

- ألا يسمعني أحد ؟؟ انني أسألكم.. ما الذي حدث ؟

إكتشف مصدر الصوت، رجل جلس متربعا في الخمسينيات من عمره، شعره أسود اللون أجعده، إلا قليل من الخصلات الجانبية التي تلونت باللون الفضي الباهت، شاربه ولحيته السوداوان ملأتا وجهه، إلا من بعض النقاط التي لم ينم شعر وجهه فيها، ملامحه قاسية نوعا ما، حاجباه تعلقا إلى الأعلي بحبل شفاف لا يري، تكلم وهو مغمض لعينيه كأنه يستجيب لحوار خفي في حلمه، لم يجد ردا على سؤاله فراح يتكلم بنبرة أكثر حدة فقال:

- ما الذي قتل هؤلاء الموتي ؟

- أنا أيضا لا أعرف ..

قال تلك الجملة شاب في العشرينيات من عمره.

- لكني اعتقد انهم جاءوا بنا هنا كي يقتلونا.

تحدث آخر:

- إنه فخ ألقينا به.

ودار حوار بين الموجودين :

- من ألقانا به، هه.. قل لي، وما مصلحته في ذلك ؟

- ألازلت لا تستطيع أن تري المغزي من وراء كل هذا ؟

- أنا لا أفهم عم تتحدث.

- هذا العالم الوهمي، عالمهم، ذلك الذي ظللنا نركض وراءه وتركناه يقودنا، أردنا تقليدهم في أي شيء، أيا كان هذا الشيء، كنا نظن أن حضارتنا ومجدنا سيعودان مرة أخري إذا تتبعنا خطاهم، غيرنا من جلدتنا فأستبدلنا ماهو ادني بما هو خير، قلدناهم في أمور بلا قيمة ولا أهمية ونسينا سبب تقدمهم الحقيقي، كنا كقبيلة هجم عليها جيش جرار، فاغتصب أرض اهلها، وكان أفراد هذا الجيش يمتلكون انوفا فطساء، فظن أهل القبيلة أن هذا هو سبب إنتصار الجيش عليهم، فراحوا يلجأون إلى طرق كي تكون أنوفهم فطساء مثلهم، دون أي وعي لحقيقة الأمر.

قال الآخر هازئا:

- ماذا تقصد من تلك الخطبة العصماء ؟

- أقصد أننا تركنا أنفسنا تحت رحمة جماعة من الضآلين فأضلونا، بعنا الإخلاص، بعنا الأرض، بعنا المباديء والعادات والتقاليد التي تميزنا، بعنا كل شيء حتي نشبههم، فصرنا مسوخ، فلم نعد ننتمي إلى أنفسنا، ولم نصبح منهم، ولهذا.. فنحن هنا الآن، هنا منتهي المسوخ.

- لكن هؤلاء من ماتوا.. كيف ماتوا ؟

أصاب الصمت الجميع، فلا احد يدري ما سبب موت هؤلاء الناس، فقال أحدهم :

- أظن ان هناك غاز سام لا رائحة له ولا لون، بثوه بالأمس ونحن نائمون فمات بعضنا.
رد آخر ساخرا :
- إذا فلماذا لم نمت كلنا ؟ لا.. هذا تفكير ساذج، ولم يقتلونا من الأساس؟ إنهم يحموننا، لو أرادوا بنا سوءا بالفعل ما كانوا ليتركونا ندخل إلى هنا، أنسيت التشاحن والتزاحم وتقاتلنا مع بعض كي نفر إلى الملجا ؟
وقف أحدهم وقال متسائلا :
- أليس الغاز الأزرق الذي يبث في الهواء هو مصل للحماية من خطر الإشعاع؟
هز الجميع رؤسهم موافقين، فأستطرد قائلا :
- إذن فلا قيمة لوجودنا في هذا المكان، إذا كان هذا الغاز يقي بالفعل، فسيحمينا ونحن في الخارج.سألته إمراة :
- ماذا تقصد ؟
- اقصد اننا جئنا إلى هنا بمحض إرادتنا، ونريد ان نخرج من هنا بناءا على رغبتنا، وإذا كان هناك إحتمال من الموت في الخارج، فلإن نموت في الخارج أفضل بكثير من الموت بين أحضان هذا السجن.
تعالت الهمسات المؤيدة لهذا الرأي، فقال أحد الموجودين:
- كلامه صحيح.. وإذا كانوا فعلا لم يأتوا بنا إلا لحمايتنا، فبالتأكيد إذا طلبنا الخروج لن يمنعونا.
سأله آخر:
- وكيف سنفعل ذلك ؟
- نتجه جميعنا إلى البوابة، فنقوم بالطرق والدق على أبوابها، ونصيح بأصواتنا عاليا، بأننا نريد الخروج من هذا المكان، فإن لم يستجيبوا.. لنا نقوم بهدم ذلك الباب لنخرج منه.
- ثورة ؟!
- نعم.. ثورة.

obeikan.com

- النووي.. الإشعاع.
- إذا خرجنا من هنا سنموت، إنهم لم يقوموا ببناء ملاجيء لأحد غيرنا نحن الصفويين، لأننا ذو مكانة مرموقة في المجتمع.
- معني ذلك أن الغاز ليس إلا كذبة، وهذا يجعلني أشك في أمر الملجأ، نعم.. نحتاج لثورة.
- إذا ظللنا هنا فبالتأكيد سنموت.. أما إذا خرجنا فالموت إحتمال.
- ثورة.. ثورة.. ثورة

وقام عدد غفير من الناس، الذين صاحوا من أجل الثورة على هذا الوضع الذي هم به، فاتجهوا نحو الساحة الكبري من الملجأ، أما الآخرون ممن رأوا في هذا العمل درب من الجنون فقد بقوا في أماكنهم، والبعض منهم رأي السلامة في الإنزواء إلى داخل الملجأ، خوفا من أي رد فعل سلبي قد يحدث جراء ذلك العمل المندفع، وتبقت مجموعة من الناس قررت الوقوف في المنتصف لمشاهدة ما سيحدث، حتي إذا كان هناك نتيجة إيجابية لتلك الثورة إنضموا إلى الثوار، أما إذا كانت النتيجة وخيمة أو خطرة فبإستطاعتهم الهروب إلى الداخل بسرعة والإحتماء من مغبة الأحداث، كل هذا يحدث و(الراوي) يمسك بيد طفله ويشاهد ما يحدث ويراقب، وتسمرت قدماه اللتان إستجابتا لحالة الشلل والذهول التي أصابت عقله وفكره، لم يدر أي إتجاه يسلك أو إلى أي فئة ينحاز، في يوم غير هذا وبدون وجود الطفل معه كان بالتأكيد سينحاز بكل طاقته وإرادته إلى الفئة الثورية، فلا يوجد ما يخسره، أما في وضع كالذي هو فيه، متحملا مسؤولية ذلك الطفل، فالأمر يجعله يتفكر في الهروب به إلى الداخل وحمايته من أي شيء خطر قد يهدد حياته، لكنه في نفس الوقت يري أن في الهروب تجابن وتهاون، أما الإختيار الثالث، وهو أن ينضم لتلك الفئة التي قررت الرقص على السلالم، فرأي أن فعلهم فيه خسة وإنتهازية، وتلك من الرذائل التي لا تقبل بها نفسه، كانت رحي الصراع تدور في عقله وقلبه على أشدها من كلا الجوانب، ولم تنجح أي

قوة من تلك القوي المتقاتلة في إرجاح كفتها، وفي أثناء تلك المعارك القائمة بداخله، كانت الجموع الثائرة قد تجمعت في ساحة الملجأ الكبرى، فتعالت صيحاتها وهتافاتها، وشحنت بطاقة الهجوم والإنقضاض على تلك البوابة التي تمنعهم والخروج إلى الموت المحتمل، تدفق الثوار في سرعة وبقوة نحو بوابة سجنهم، وراحوا يدقون عليه ويدفعونه بغضب، وسط صياحات عالية متتالية :

- نريد ان نخرج.. لن نموت في هذا السجن.. إفتحوا الأبواب.. نريد أن نخرج.

أثناء تلك الإنتفاضة الإحتجاجية، قامت مجموعات من القوات الثائرة بجلب عدد من الأسرة الموجودة بأماكن الإيواء، وراحت تدفع بها البوابة بقوة في محاولة لتحطيمه، كان صوت إرتطام الأسرة بالبوابة قويا مزعجا، وراح يدوي صداه في أرجاء المكان، وأخذ عرق الجموع يغلي من تلك الحرارة التي إنفجرت داخل صدورهم، وبعد دقات عنيفة من تلك الجموع سمع صوت طقطقة للبوابة، أتبعتها صيحات فرح من الثوار، فراحوا يدقون البوابة بقوة أكبر وبعنف أشرس، وصوت الطقطقة يتكرر مرة بعد الأخري إيذانا من البوابة بالإنهيار أمامهم، لتتعالي الصيحات أكثر، فدوي الصخب بفرحة الإنتصار القريب، إلى أن فتحت البوابة فجأة، وخرج منها دخان أبيض، ظهرت من خلاله قوة عسكرية إقتحمت المكان، فراحت تطلق النار عشوائيا على كل من واجهها، لتصدر صرخات الألم وعويل الخوف والهلع، حينها حاول البعض منهم الهرب من شراك تلك الرصاصات ومن بطش تلك القوة الضاربة إلى داخل الملجأ، في حين أخذت تلك القوة العسكرية تطيح بمن أمامها حتي أبيد من تبقي أمامهم تماما، لم يدر الراوي بشيء حينها إلا عندما وجد نفسه يجري إلى الداخل ومعه الطفل محاولا إنقاذه من شر ذلك الخطر الذي ألم بالمكان، ولم يتمكن من أستيعاب شيء مما يحدث، إلا أنه قد إستطاع رؤية زي تلك القوة العسكرية، كانوا يرتدون أقنعة غازات على وجوههم، أما عن ملابسهم فكان لونها أزرق قاتم، الأمر الذي جعله يقول في نفسه إنها قد

Obeikan.com

تكون إحدي قوات الإقتحام، رغم انه كان يوما من الأيام فردا من الجيش ولم يعهد زيا بهذا اللون لفرقة من فرق الإقتحام، إلا إنه لاحظ الشارة المعلقة على كتف أحد أفراد تلك القوة فوجد بها أربعة خطوط عرضية، اما ألوانها فقد كانت تختلف عن ألوان علم دولتهم، الأمر الذي أطلق هزة في قلبه ورعشة في أطرافه ففغر فاه، وقال لا إراديا وهو يجري بعزم قوته، وقد شخص بصره:

- إنه ليس جيش دولتنا، إنه ...

ثم سكت من الصدمة، وركض بعزم قوته إلى الداخل، وبصحبته الطفل، ولما بلغ إلى سكان الملجأ، صاح فيهم بعلو صوته قائلا :

- الدولة.. أرضنا.. لقد غزينا.

***

Obeikan.com

-١٣-

مر شهران على هذا الحادث الأليم، والذي راح ضحيته آلاف من هؤلاء الذين ثاروا من أجل حرية خادعة، مر شهران وقد سلب الأمل والحلم من نفوس من تبقوا في سجنهم، مر شهران وأنقلب الحال إلى إستسلام تام للواقعالفارض لنفسه، والروتين القاتل ببطء، فتقبلت الحياة الميتة كما هي، دون أي رغبة في إحياءها، فقط.. هي إستكانة منهم لأمر لم تعد عقولهم تشك فيه، وهو أنهم سيقضون بقية حياتهم في ذلك المكان، فكان لابد منهم التأقلم مع تلك الحالة الجديدة التي لم يألفوها، بالطبع يحتاج الأمر من الإنسان لوقت كي يتكيف مع حالة جديدة لا يألفها، خاصة إذا كان لب الإنسان مصحوبا بتوقع كاذب ومخادع غير ذلك الواقع الحاصل، ولإن المتوقع في عقول اللاجئين كان هو أن المكوث في ذلك المكان هو أمر عابر وسينتهي في وقت قريب والذي حدث كان عكس ذلك تماما، فقد تطلب الأمر منهم فترة من التحليل العقلي والتهيئة النفسية لكل شخص حتي يستطيعوا تقبل الأمر، ولإن البشر يتفاوتون في ردود أفعالهم نحو الواقع، فقد إختلفت ردود أفعال الموجودين بعدما إصطدموا بالحقيقة المرة، فمنهم من آثر الموت فانتحر، ومنهم من أصابته الحقيقة بشلل تام في حواسه التفاعلية مع من حوله فآثر الإنزواء النفسي وتقبل الحياة الروتينية بقلب آلي، يستجيب لحاجات طبيعية وأساسية كالأكل والشراب والنوم والإخراج فقط، أما الفئة الثالثة التي وجدت الحظ في ذلك الوضع - رغم قلة تلك الفئة - فهي الفئة المتأملة والتي عشقت التفكير، فقد إستطاعت التأقلم وبقوة دون إنكسار مع هذا الواقع المؤلم، بل وجدت فيه أمرا يزيد من صلابتها وقوتها وتأملها في الماضي

المسروق والحاضر الغريب والمستقبل المجهول، تلك الفئة التي ضمت رجالا من امثال (الراوي) ومن هم على شاكلته، غدر بهم عاملي الحيلة والقدرة على التغيير، رغم وجود عاملا نبذ الواقع والرغبة في تحويله.نعم.. لم يكن (الراوي) غريبا في هذا المكان، لكن الصمت كان حاجزا شبه مادي فصل بينه وبين من هم على شاكلته، إلا ان ذلك الفاصل إنهار بعد حادثة مقتل الثوار، ومعرفة أن الوطن أصبح محتلا من قبل إحدي القوي المعادية ، والتي طالما جاهدت لإسقاط تلك الدولة، الأمر الذي إستنبطه (الراوي) على الفور وقت الهجوم، ثم تأكد من صحته جميع من هم بالملجأ بعد ذلك، فقد إذيع في مذياع الملجأ، بأن الدولة قد سقطت في أيدي قوة أخري، وان جميع من في الملجأ ليسوا إلا سجناء لهم، على كل.. فقد بدأ السجناء في التعامل مع هذا الأمر على حاله، وشرع البعض في إختراع أشياء مطلوبة لم تلبها الأدوات الموجودة، فمن الرجال من تفكر في كيفية إستخدام آداة حادة للتخلص من الشعر الزائد بالجسم، فقام بحد طرف اليد لملعقته وأستخدمها كموسي للحلاقة وتهذيب الشعر، ومنهم من أزال بعض الألواح الحديدية التي في حوائط الملجأ وراح يحد بها سريره كي يحظي بنوع من الخصوصية، وأغلب من أقدم على هذا الفعل كانوا من المتزوجين، الذين أحسوا بالغريزة تشتعل في نفوسهم وغلبهم الحياء، قلة هم من فعلوا ذلك، فكثيرون غيرهم راح ينفس عن رغباته المكبوتة في أروقة الحمامات بطرق مريضة، وأخري فاحشة، دون خجل أو إستحياء، ومنهم من إقترح بنزع ملابس الموتي الجدد قبل التخلص من أجسادهم في تلك الفوهة حتي يستفاد منها في أي شيء قد يشغل محل الحاجة، وهكذا.. فقد راح كل من الموجودين يبتدع شيئا يسد به حاجته، أما (الراوي) فقد كان شغله الشاغل هو تعليم هذا الطفل مباديء اللغة وحروفها، فبدأ بتعليمه رسم الحروف ونطقها، وراح يستخدم ملعقته في الحفر على حائط إحدي أركان المكان، راسما الحروف على أشكالها المعروفة، وبالرغم من حالة الإحباط التي كانت تعتري الجميع وغياب أي

علامة من علامات الخلاص إلا أنه رأي أن في تعليمه واجب محتوم عليه، فطالما يجد الهواء مخرجا له بعد دخوله رئتي الإنسان، فهناك دوما أمل في غرس فسيلة خير تعمر النفوس، وأي خير أسمي من تعليم طفل يخطو أولي خطواته لفهم الحياة لغة يستطيع بها أن يتعرف على كل شيء من حوله ويتواصل بها مع غيره من البشر، إلا أن هناك شيئا آخر شغل بال (الراوي) وهو عباداته، الأمر الذي كان يخفيه عمن حوله تلك المدة البائدة ووجد أنه لا مجال لسترها بعد الآن، فراح يلجأ إلى إحدي زوايا بالمكان وأتخذها كمصلي له يمارس به طقوس الإخلاص، وكان (واصل) يقلده في حركاته وهمهمته أثناء صلاته، وأصبح (الراوي) محل انظار الكثير من الموجودين بالملجأ ممن شغفهم الفضول والرغبة في الإنضمام إليه ومشاركته.

ذات يوم من الأيام وهو يصلي، إقترب منه ثلاثة رجال وخمس نساء وراحوا ينظرون إليه، وعندما إنتهي من صلاته، قال له أحدهم:

- هل يمكن أن تعلمنا كيف نصلي ؟ لقد نسينا هذا منذ زمن.

تعجب (الراوي) مما قيل، قالت إحداهن:

- كنا نعتقد أننا وحدنا، لكن يبدو أن هناك من أخفي إخلاص قلبه غيرنا.

سألها (الراوي) :

- ماذا تقصدين ؟

فقال أحد الرجال:

- تقصد أننا كنا نخفي إخلاصنا، كل شيءحدث قبل أن نأتي إلى هنا جعلنا نخاف ان يكتشف أمرنا.

فرد (الراوي) مبتسما والفرح يملأ جنباته:

- إذن فلست وحدي ؟؟

فقالت إحدي النساء:

- لا.. وأبدا لم تكن وحدك، لقد كنا موجودين.. ننتظر.

سأل (الراوي) بأسف :

Obeikan.com

- كنتم تنتظرون ؟؟

فرد أحد الرجال :

- نعم.. الخوف جعلنا نضيع الكثير من الأشياء التي كانت قلوبنا مقتنعة ومؤمنة بها، لكننا عرفنا الحقيقة، عرفنا أن ما ألم بنا فهو من صنع إيدينا، لم نقف وقفة رجل واحد، جعلنا الخوف يتحكم بنا وبمصائرنا، بالطبع.. لا يوجد مجال للعودة إلى الوراء، لكننا نادمون، نريد أن نعود إلى طريق الحق، صحيح أننا عشنا في تيه طوال حياتنا البائدة، لكننا لا نريد أن نموت ونحن غرباء.

أطرق (الراوي) ينظر في الأرض قليلا ، ثم رفع رأسه وكأنه ينفض عن نفسه غبار الهم، ثم قال:

- كيف أستطيع أن أساعدكم الآن ؟

ردت إحداهن قائلة:

- نريد أن تعلمنا الصلاة من جديد، علمنا كيف نكلم الإله، لقد نسينا كيف نصلي، كيف نكلمه ونناجيه.

ثم إستدركه أحدهم قائلا :

- وأنت ستكون إمامنا.

تناسي همومه، فألقاها مع أقرب موكب للأنفاس المهاجرة، وشاع بداخله نوع من الراحه والإقبال على الحياة مرة أخري، لقد أحس في تلك اللحظة بالمعية الإلهية في كل خطوة خطاها من قبل، فالموقف كان إشارة كالإشارت التي تلقاها منه من قبل، والتي تخبره بصحه مكانه، تخبره بأن وجوده على قيد الحياه ليس أمرا من قبيل الصدفة أو العبث، بل هو أمر مدبر وفق خطة محكمة أعدت من قبل النشء، وعلي إثر ذلك.. فقد حمل على عاتقه تعليم من إلتجأوا إليه، فراح يعلمهم الصلاة والدعاء وأمهم فيها، ثم أخذ ينعش ذاكرة المؤمنين القدامي منهم ليذكرهم بإيمانهم الذي خبت، أما المحدثين.. فقد بدأ في تلقينهم أساسيات الإخلاص للإله وبكيفية تنقية هذا

الإخلاص من كل الرواسب التي قد تشوبه وتعكر صفوه، ويوما بعد يوم كان أتباعه يزدادون ويزداد معهم نور الإخلاص في المكان، وأخذ عدد الراغبين عنه في الإنحدار ، حتي أصبح كل من في الملجأ تابعا له، كانوا في صلاتهم يناجون إلههم ليخلصهم من هذا العذاب الذي ألم بهم، ويطلبون منه الصفح والغفران عن نسيانهم إياه، وعن تخلفهم عن ركب الذين سبقوهم في الإخلاص له.

في احد الأيام صدر صوت من المذياع يخبر الموجودين أن وجودهم في الملجا أمر مؤقت، فبالرغم من وقوعهم كأسري بين يدي هذا الجيش المحتل، إلا أنه سيتم التعامل معهم كمدنيين عاديين، لإنهم لا علاقة لهم بالحرب، وانه بعد فترة ما سيتم الإفراج عنهم جميعا، وهذا بعد التأكد من خلو الجو من آثار خطر الإشعاع، فقد تعرضت البلاد لهجوم نووي، لذلك سيظل الغاز الأزرق يبث في الجو حتي لا يتضرر أحد من المدنيين.

بعد سماع هذا الخبر تولد الأمل في قلوب الأسري مرة أخري، وانتظروا ذلك اليوم الذي يعفو فيه هذا الإله الرحيم عنهم ويخلصهم من عذابهم، فقد تأكدوا من قدرته على تخليصهم من هذا الأمر الذي هم فيه إذا أخلصوا بصدق، وهاهو يفي بوعده، فقد رأوا أنهم أخلصوا له فاخلص لهم، وأستجاب لدعائهم وصلواتهم.

أصطبغت حياتهم كلها بذلك اللون الإيماني، فكان لا يموت منهم أحد إلا ورتلوا عليه تراتيل طلب الرحمة والمغفرة له، لا يولد طفل إلا ويطلبون له الصلاح والحياه المحفوفة بالتقوي والإخلاص، أكلهم وشرابهم-الذي ظلت القوات المحتلة تمدهم به-إقترن بذكر الإله وحمده على نعمته التي أعطاها لهم، حتي قبل نومهم كانوا يذكرونه، ويسألونه التثبيت والإخلاص له.

وفي ظل هذا الحال، أصبح (الراوي) معروفا بإسم الإمام بين الموجودين بالملجأ، وشعر بحلاوة في قلبه من هذا الجو الإيماني الذي أحاط بالمكان، إلا أن بعض رقع الخوف والقلق من أمر ما أسره، ظل يؤرقه قليلا، الجدير

Obeikan.com

بالذكر.. هو أن ذلك الغبار الذي صاحب تلك الرياح التي إجتاحت الدولة، هدأ قليلا، فأصبح الهواء نظيفا منه ومن آثاره، ولم تعد له تلك الرائحة الترابية، أو حتي ذلك الطعم الذي يؤذي الألسنة، فعادت الأمور إلى طبيعتها الأولية، حتي إن من بالملجأ ظنوا- كما (الراوي)- أنهم بدأوا يعتادون الأمر الذي إستمر لوقت طويل، لكنهم لم يعلموا أنهم كانوا قد تخلصوا بالفعل.. من هذا الغبار.

إستمر الحال هكذا لمدة عامين، وفي إحدي الليالي، بعدما فرغ (الراوي) من صلاته التي كان يصليها، أحس بثقل في جفنيه، فغلبه النعاس ونام في مكانه، فرأي في منامه خيالا لشخص اكتسي بالنور، قد شع منه لدرجة جعلت (الراوي) لا يستطيع النظر إليه، فأشاح بوجهه بعيدا عنه، لكن صدر صوت من ناحية ذلك الشخص يقول:

- إنظر لي.. لا تخف.

تعجب (الراوي) عند سماعه لصوت هذا الشخص، فقد كان صوته مألوفا لديه ، فنظر إليه إستجابة لأمره، وعندما نظر نحوه، أحس بقوة في عينيه مكنته من رؤيته هذا الشخص على حقيقته، رغم تلك الهالة النورانية القوية التي أحاطت به، وعندما تبين من ملامحه تهللت أساريره، فقال مستبشرا :

- (خالد) ؟؟

وبدون إرادة منه، وجد نفسه يرتفع إلى الأعلي رويدا رويدا حتي أصبح قبالة صديقه، عندها قام (خالد) بتطويق رأس (الراوي) بيديه، ليستكين الأخير بدوره، ثم راح ينظر في عينيه بنظرات جعلته يشعر بالألفة، وبعد لحظات خاطفة.. أحس (الراوي) بغضب يدق في أحشائه، فراح يتلوي وينتفض صارخا :

- لا.. لا يا (خالد).. مستحيل.

ولكن (خالد) لم يقم باي ردة فعل، فأستمر (الراوي) في صراخه وغضبه :

- لا.. كيف ؟؟ كيف يا (خالد) ؟؟

ولكن بعد هنيهة إستكان (الراوي) مرة أخري، وأحس بشيء من الراحة والطمأنينة يتسربان إلى قلبه، فأرتسمت على وجهه إبتسامة أبتسم خالد على إثرها، وأبعد يديه عن رأسه، ثم ظهر في الأفق نورا لخيال لم يتبينه (الراوي) إلا عندما إقترب، لقد كان (لرغد) حبيبته، (رغد) التي إشتاق إليها ولم يخبت حبها في قلبه، إقتربت منه ثم أمسكت بيديه اليمني، فهبطت به إلى الأرض، ثم أمسكت القلادة التي حول رقبته فغرست طرف هيكل القلم في الأرض الحجرية فتشققت، ومن تلك النقطة التي غرس القلم فيها إنفجرت عين مائية أخذت تغمر أماكن الشقوق بالماء، وبعد لحظة تحولت الأرضية الحجرية إلى أرض زراعية خضراء، هذا كله يحدث و(الراوي) يشاهد بتعجب وملامحه تتغير وأحاسيسه تتقلب بين الفرح والإنقباض والإطمئنان، حتي إذا ما إنتهي ذلك المشهد وجد النور يشع من فوقه، فنظر إلى أعلي فوجد كل زملائه وأصحابه وأحبائه ينظرون إليه من مكانهم والإبتسامة تعلو وجوههم، حتي أحس بطاقة تنبعث من بين جوانبه حملته ليجد نفسه يقترب منهم ويرتقي إلى الأعلي و(رغد) ممسكة بيديه، كان هذا ولم ير شيئا بعدها، فإستيقظ من النوم وقد وضع يده على صدره محاولا إقتفاء أثر قلادته التي ضاعت، وعندما فتح عينيه، وجد (واصل) قد وقف فوق رأسه مبتسما، ممسكا بتلك القلادة في يده اليمني، يلهو بها.

***

obeikan.com

-١٤-

قام (الراوي) من رقاده، ثم إعتدل، وبشائر الفرحة تعلو وجهه، فقال للطفل:

- إين وجدت هذا ؟

- سقطت من ملابس احد هؤلاء الذين كانوا على وشك إلقاءه في المقبرة، ما هذا يا أبي ؟

جذب)الراوي(الصبي من يده ليقربه من صدره، وأمسك بيده الأخري تلك القلادة التي إتخذت شكل القلم، فتأملها ثم قال :

- هذا.. !! هذا أقوي شيء من الممكن أن يمتلكه إنسان، اتعرف يا)واصل(، يمكن للإنسان أن يموت ويختفي من على وجه الأرض، لكن هذا.. هذا الذي يجعل الإنسان يعيش للأبد، إنه قلم يا (واصل).. الشيء الذي لا يستطيع احد ان يمحوه أو يمحو أثره، إنه فرقان، يفرق بين الحق والباطل، بين الصادق والكاذب، بين المنصف والمنافق، يصنع معجزات بجرة منه.

- هذا قوي ؟ إنه لا يتحرك ..

- قوته إمتداد لقوتك.. القلم لا يستطيع أن يفعل أي شيء إلا إذا كان حامله شخص قوي، فيحدث تواصل روحي فيما بينك وبينه، إنه إنغماس لإرادتك ومشيئتك، فيتحول من مجرد آداة إلى كيان مرتبط بك، تشعر وقتها إنه أنت.. وأنك هو.

قال (واصل) ببراءة :

- أبي.. أنا لا أفهم شيئا مما تقول.

obeikan.com

- أعرف.. لكن ستفهمه عندما ينضج عقلك أكثر.
- لكن كيف أأ.. ؟ كيف ... مممم ؟
- تستخدمه !!
- نعم ..
- تعال.. سأخبرك.

أخذ (الراوي) يعلمه كيفية عمل هذه الآداة وطريقة إستخدامها، ولإن هذا القلم لم يكن حقيقيا، فقد أخذ (الراوي) يعرفه ما هو الحبر وكيف يتم إستخدام القلم به، فلما وعي الصبي لفكرته قال :

- إنه مثل الحجر الحاد، الذي ينقش به الحروف والكلمات التي كنت تعلمها لي.
- لا يشترط أن يكون القلم بهذا الشكل، القلم أي شيء تستطيع به أن تخط كلاما مقروءا أو رسما مرئيا، فتجعل غيرك يعرف ما بداخلك من كلام أو صور أردت مشاركتها مع العالم، فيبقي أثره باقيا، حتي لو مر آلاف السنين على موت صاحبه.
- وكيف يستطيع هذا أن يحدث المعجزات ؟
- سأحكي لك ..

عندها عزم (الراوي) أن يحكي للصبي قصصا وحكايات من التاريخ كان للقلم فيها دور كبير، إلا أنه لما هم بالكلام ألجم لسانه، فأصبح غير قادرا على النطق، وذلك لإنه لم يستطع أن يتذكر شيئا مما كان يعرفه عن الماضي، أحس لحظتها بتلبك في أحشائه، لم تكن تلك المرة الأولي له في هذا المكان التي يكون فيها ناسيا لشيء قديم، فقد حدث أكثر من مرة، أن حاول تذكر شيء من الماضي ولكن تخذله ذاكرته، حينها كانت الأحداث والمعارف تمر امام عقله، لكنها كانت تبدو ضبابية الهيئة، أو بها شيء يعكر صفو صورتها، وكنسمة عابرة، كانت تمر الذكريات من امامه فيحاول ان يقبض عليها بيديه، لكنه يفشل في ذلك، تذكر تلك المرة التي كان يصلي فيها بمأموميه، وأثناء

إنهماكه في الصلاة، توقف عن الدعاء لأنه نسي بعض شعائر الدعاء في هذا الموضع، حاول جاهدا وقتها أن يعتصر عقله ليتذكر ما كان يجب أن يقوله فلم يستطع، عندها قام بتخطي هذا الركن من الصلاة للركن الآخر، حتي لا يدرك احد ما الم به، تغيرت ملامح وجهه وطال سكوته، فقال له (واصل):

- ما بك يا أبي ؟

لم يلق (الراوي) بالا لسؤاله، لقد كان عقله منشغلا بشيء آخر، شيء أهم، حقيقتان صادمتان إكتشفهما للتو، (أكيوتيزايمر)، (كرونيزايمر(، هذان المصطلحان اللذان سمعهما من (شوكت)، شهيد المعركة الذي مات متأثرا بجراحه، أخبر عنهما قبيل مفارقته للحياة بدقائق، ليسا سوي فصل عن الطريق التسمية لنوعين مختلفين من هذا الغاز الأزرق الذي كان يبث في الجو، أحدها يصيب العقل بفقدان حاد للذاكرة، فيجعل الإنسان ينسي أحداثا قريبة العهد، وهذا ما حدث عندما أفاق من في الملجا ولم يعرفوا سبب موت أصحاب الجثث التي كانت ملقاة في أرجاء الملجأ، أما الآخر فيصيب الذاكرة بفقدان طويل الأمد، وهذا ما جعل المعارف والمعلومات القديمة التي كان عقله يحتفظ بها تغيب عن ذاكرته، أما عن مصطلح (TOE) والذي كان عن تلك المرحلة التي ستقبل عليها البلاد، فقد كانت إختصار لكلمة The one Eyed، وهي تعني الأعور، تسارعت نبضات قلب (الراوي)، وشخص بصره فجأة، فحملق في اللاشيء، وسأل نفسه سؤالا.. عرف إجابته على الفور.

مرت أربعة أيام إعتزل فيها (الراوي) جميع من بالملجأ، لم يجمعه شيء بهم غير أوقات الصلاة التي كان يؤمهم فيها، فقد إنزوي إلى نفسه، حتي أن ، (واصل) نفسه لم يستطيع التواصل معه، كان الملاحظ منه في تلك الأيام هو تجواله المستمر الذي لا ينقطع في أرجاء الملجأ وكأنه يفكر في إختراع شيء هام، لكن السبب كان أكبر من ذلك بكثير، إنه يصب في فحوي الألم وجوهر الوجود، وجهة يسير إليها القدر بخطي ثابتة لا تقبل الخطأ، ولا يشوبها

الضلال.
في اليوم الخامس، وحينما تجمع الموجودون في صلاة إمتلات خشوعا وخنوعا، وتذللا ورجاءا- طمعا في أن يخلصهم الإله من معاناتهم - ، إرتجت ارجاء المكان بأصوات دعواتهم وجهش بكائهم، وتردد صوت (الراوي) داعيا بالرجاء والمعونة، حينها سمع صوت رنان قادم من ناحية بوابة الملجأ ينم عن إحتكاك المعدن ببعضه البعض، وحيث أن المصلين كانت ظهورهم قبالة البوابة فقد إرتاعوا للصوت، فتولوا عن صلاتهم، وألتفتوا للخلف لمعرفة سبب هذا الصوت، إلا أن (الراوي) إرتفع صوته بالصلاة في تلك اللحظة وهو يقول بحرقة :
- إلهي فخير.. إلهي فخير.
لكن هذا الصوت كان أشد في تأثيره على المسامع وأكثر قدرة على شد الإنتباه من صراخ (الراوي)، فأخذ يصرخ بقوة أكبر :
- إلهي فخير.. إلهي فخير.
تحركت الجموع فتركوا مصلاهم، وأتجهوا للبوابة التي خيل لأبصارهم أنها تتحرك، وتعالت صيحات مهللة مطلية بأمل حف القلوب، فراح أكثرهم يقفز إستبشارا بتلك العلامة التي تدل على إنتهاء معاناتهم وفترة سجنهم، وخروجهم للعيش مرة أخري على الأرض بعدما هجروها منذ فترة أنستهم رائحة الحياة في طينها الأسود، تجمهر الجميع أمام البوابة التي رأوا انها بدأت تنفتح رويدا رويدا، كاشفة عن خط رأسي لضوء يتسع عرضه شيئا فشيئا، قطع حدود البوابة إلى نصفين متناقصين، باسطا معه تلك السعادة التي ملأت نفوس شخصت أبصارها وأرتجت أجسادها متناسية كل الألم والشقاء الذي إختبرته في تلك الفترة البائدة من تاريخها النحس، فتملكها رجاء في الغد بعدما كادت تخبت نزعات الأمل فيها، وهكذا.. فقد ظلت الهوة تتسع بين دفتي البوابة شيئا فشيئا، حتي غمر الضوء المتجلي جميع الأركان، وحيث إنتهي (الإمام) من مراسم خشوعه فقد قام من مقامه وألتفت لتلك الصحوة

العارمة التي ملأت المكان، نظر إلى ما يحدث دون أي إستجابة لملامح وجهه، أغمض عينيه، فرأي كما يري النائم صورة حية لقط يأكل جثة أخيه الميت، ففتح عينيه فزعا، ثم اخذ يتمتم - وقد تباطأت أنفاسه -بكلمات لم يسمعها إلا هو، فقال:

إلهي فخير.. إلهي فخير.. نور إتشح بالظلمة.. وطرائق في محيط من اللهب.. إلهي فخير، أمل حنيف.. ونهم يجتاح أرواح الجوعي.. إلهي فخير، مشكاة تزرف الدمع.. ورغبة مهددة بالإنتحار.. إلهي فخير، صفحة من إشراق تبدد في طية قراطيس من الغروب.. ونفحة من الإيمان تتعلق بتلابيب رحمتك.. إلهي فخير، إنك الخير.. ومنك الخير.. وإليك الخير.. إلهي فخير.

وكما للحق من نور فللباطل كذلك، والباطل يصيب بمخالبه العالم والجاهل، ولكن تكمن الحقيقه في عمق الكيان حيث الجوهر، فليس يدرك زيف نور الباطل المخادع إلا صاحب نفس إستنارت بنور الحق، فتقدر روحه ويستطيع قلبه أن يستبينا زيف نور الباطل، حتي ولو توقفت عيناه عن أداء واجبها، فينجو ويسلم من شر فتنة، توشك أن تفترس الأحياء بين براثنها.

***

obeikan.com

-١٥-

«على أرض بلا معالم.. تهديكم الأبصار المسلوبة، ترشدكم إلى منابت الكفر في الأعماق، فتقطع دابر الإيمان الكاذب في مكامن الصدور، وتردكم إلى درك الإطمئنان للباطل.»

هكذا سار الجميع فوق أرض إحترقت بكاء على ماضيها، وأسفت على عقيدة لم تجد لها مكانا في قلوب هوت الضلال فهوت، فراحت الأرجل تتخبط على رؤوس حبات الحصي المتناثر فوق طريق يؤدي إلى وجهة لا معالم لها، وتعالت أصوات أعلنت كفرها وأجهرت بتقديس الطاغوت، بل إنها أخذت تقسو في جلدها على من مد لها يد المعونة، فرشقته بأحجار من الأدعية التي لم تجد لها منفذا في أرجاء السماوات العلا، بل إنكمشت على أصحابها فأحاطت بهم، وأصابتهم بلعنة لامعافاة منها.

لم يجد)الراوي(ملجئا من ذلك السباب الذي حصدته نفسه من هؤلاء القوم سوي مولاه، فبعدما أصيب الجميع بالعمي عندما خطت أقدامهم خارج الملجأ بسبب ذلك النور المبهر المسلط عليهم، أصبح)الإمام(يشكل بالنسبة لهم كتلة من الخداع والكذب، فهاهي صلاتهم لم تنفعهم بشيء، وهاهو تذللهم وتضرعهم قد ضاعا هباء تحت سطوة الإله المتخاذل، أما عن آمالهم ومطالبهم فقد أضحت سرابا في يوم إشتد فيه الحر، فسلبت حرارته لب الضائعين، أما هو، فقد ظل مستمسكا بإيمانه وإخلاصه، والتزم بمناجاته التي روت لسانه وربطت على قلبه، ممسكا بيد واصل الذي إرتاع لما حدث

لهما وللجميع.
من جهة أخري.. أخذت قوي غير مرئية تقود تلك الشرذمة من الخلق إلى جهة خفية، فشرعت في تقييد الجميع بسلاسل تربطهم وراحت تقتادهم بقسوة إلى خارج الملجأ، أما عن تلك الفئة.. فمنهم من تصرف على سجيته نتيجة للمفاجأة التي تعرض لها وإصابته بالعمي، فأندفع مهرولا على غير هدي، فمن هم على شاكلته لم يسمع لهم سوي صوت صريخ أتبع صوت تتابع لإطلاق الرصاص، في حين إستكان الباقون بعد توجيهات صدرت من تلك القوي تخبر الجمع بأن من يحاول الهرب سوف يتعرض للقتل الوقتي، فأرتعدت فرائصهم، وتملك الخوف منهم، وأصبحوا كالأسخال المهتداة بأسواط الذئاب.
كان الوقت يدل على أن الشمس توسطت الساحة العليا للسماء، وقد أستدل هؤلاء المنقادين على الوقت بتلك الحرارة الشديدة التي تعامدت على رؤوسهم، فجعلت كل خلية سطحية لجلودهم تنز عرقا متبخر، وبالرغم من تلك الحالة المزرية التي كانوا عليها، إلا أن ألسنتهم لم تتوقف عن سب ولعن هذا الإمام المخادع الذي وعدهم وأخلف وعده، أما عن ذلك المنبوذ، فقد كان مؤمنا في قرارته أن ما حدث كان له حكمة كبري، وهي إبانة أن هؤلاء الناس لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، حيث أن هذا الإيمان الصوري لم يكن بالنسبة لهم سوي وسيلة للتسلية من أجل القضاء على ملل أيامهم التي طالت عليهم في كنف هذا السجن، فبحثوا عن شيء يعطي معنا لمعاناتهم، او كان للبعض محض محاولة لإستبانة شك تأكدوا منه في قدرة ذلك الإله، أو لعله بحث حقيقي من آخرين عن الحق وطلبا له، إلا أن سطحية إيمانهم جعلتهم يزلون مع غيرهم ممن كانوا ينظرون للأمر على أنه إحتياج ثانوي، وقد كانت النتيجة هو أنهم فشلوا في أول إختبار يتعرضون له، وبالرغم من سقوط الكثير منهم في فوهة هذا الإختبار، إلا أنه تبقي عدد قليل من الرجال الذين تملك الإخلاص من قلوبهم، فحفظوه .. وحفظهم، فما حدث لم يكن

إلا فتنة فصلت الشوائب عن الذهب، فصمد أمامها من صمد، ونكص أمامها من نكص، وهل آمن الناس أن يقولوا أخلصنا وهم لا يفتنون ؟ على أية حال.. فقد بدأ الركب في رحلة مجهولة بالنسبة له، مسيرة عذاب مصحوبة بالركل والإهانة والشتم والسباب من هؤلاء الذين إقتادوهم كالعبيد، وأستمرت هذه الرحلة ستة ساعات لم يحظ مسافريها بنذر من الراحة، فتشققت أقدامهم وتسلخت جلودهم، بين تساؤلات منهم عن الوجهة التي هم متجهين إليها، وعن هذا العمي الذي أصابهم كافة فاودي بأبصارهم، طوال تلك الرحلة، ظلت الأذان تسمع من حين لآخر أصوات لمحركات طائرات تحلق من فوقهم، جنبا إلى جنب مع تعرفهم على رحيق ذلك الغاز اللامرئي الذي إختبروا رائحته من قبل، فعرفوا أنه الغاز الأزرق الذي كثيرا ما كانوا يستنشقونه، بلغ ببعضهم الإجهاد والتعب لدرجة جعلتهم يموتون على إثرها ، نظرا لعدم تحملهم لمشاق المسيرة، فلم يرحم الصغير أو المسن، ولم ترحم المرأة الضعيفة، وكثر عدد الموتي المقيدين بالسلاسل والذين جرت جثثهم جرا مع حركة تلك القافلة المستعبدة، وعند نقطة ما وصلوا إليها بعد كثير من العناء والمشقة، صدرت أوامر من القوات الآسرة بالتوقف والمكوث في هذا المكان، عندها توقفت القافلة، وخارت قوي من تبقي على قيد الحياة من هؤلاء العبيد، فقعد كل منهم في مكانه، وتمددوا على أرض ذات طبيعة رملية، وبدأت أصوات التأوه والأنين في الصدور منهم حتي غلبهم النعاس.

على أعتاب الفجر، وعندما حان طلوع الشمس من مخبئها، ترددت في الأفق أصوات أبواق مخيفة، فأقلقت الجميع، فقاموا من رقادهم، وكأنهم سمعوا بوق أيقاظ الرفات من موتها، فنهض الجميع على مفاجأة لم يتوقعوها وهي عودة الأبصار لهم مرة أخري، ففرحوا فرحة مكتومة قتلت قبل إنجابها، فحال واقعهم لا يدعو لأي فرحة ولا يفسح مجالا لأي إستبشار، فأي سرور هذا الذي قد يحتل حيزا في نفس الإنسان وقد فقد حريته وأصبح يقاد كالبهائم ؟ بدأت القافلة تسير في رحلة صحراوية أخري تحت إمرة تلك القوة

العسكرية، والتي بدا أفرادها وكأنهم يتنتمون إلى جيش من الأشباح، فقد إختفت وجوههم تحت تلك الأقنعة الغازية التي سترت ملامحهم، أما عن معداتهم، فقد تجهزوا بأقوي الأسلحة التي من خلالها يفتكون بأي شخص يفكر في عصيانهم، تعرض أفراد القافلة لمعاملات عنيفة، ونالوا قسطا لا بأس به من الإهانة، وأستمر الحال هكذا عدة ساعات، حتي وصل الجمع إلى منطقة نصبت بها خيام كبري وجهوا لإحداها وكانت تتسع لهم، فجلس الجميع على الأرض مقيدين بسلاسلهم، وتركتهم تلك القوة بعدما نبهوا عليهم أن من يحاول الفرار فإن القتل سوف يكون جائزته المنتظرة، وأنه يجب عليهم الإلتزام بالهدوء لحين صدور اوامر أخري تقرر مصيرهم، ومع مغادرة آخر رجل عسكري بدأ الحوار بين الأسري، وبدأه شاب في منتصف العشرينيات بأسئلة إستفهامية فقال:

- إين إلهك يا إمام ؟ إين هو من دعواتنا وصلواتنا ؟ ألا يسمعنا ؟ ألا يري ما نحن فيه ؟ أصنم هو يا إمام ؟

وجه كلامه (للراوي) الذي قد إتخذ وضعية القرفصاء ورفع يديه إلى السماء وبدأ يصلي قائلا:

- إلهي.. إغفر وأرحم.

- ألازلت تحدثه ؟ إنك مجنون ، أنت بالفعل كذلك.. كنت تريد منا أن نتبعك كالبلهاء.

- إلهي.. فهم لا يعلمون.

- ولا نريد أن نعلم.. لقد تخلي عنا، تركنا نعاني قسوة الظلم، إين هو يا إمام ؟ أنني لا أراه.، لا أشعر به، إنه صامت جامد، لا يستطيع فعل أي شيء حيال هذا الكم من الظلم الذي تعرضنا له، أنا أعلن كفري به، قل له أن ينزل على عذابا من عنده، عذاب !! أي عذاب ؟؟ هل يوجد عذاب أكثر مما نحن فيه ؟ لقد كذبت علينا يا إمام.

حينها، خرج أحد المخلصين عن صمته فقال:

- الإمام لم يكذب علينا، لقد حاول أن يطلعنا على طريق الحق ويرشدنا إليه، لم يقل لأحدنا تعال.. سأخرجك من محنتك إذا أصبحت مخلصا، نحن من ذهبنا إليه وطلبنا منه أن يذكرنا ما نسينا، طلبنا منه أن يعرفنا على الإله مرة أخري، أن يخبرنا ما هو الإخلاص، وكيف نكون مخلصين بحق.

ثم تدخلت في الحوار إمرأة في الثلاثين من العمر وقالت:

- وبم نفعنا إخلاصنا ؟

- إخلاصنا للإله كان لأنه الحق، هو الأوحد والأعظم، لم نخلص من أجل هدف مادي مؤقت، أو لمتعة وهمية ستفني مثل غيرها، الإخلاص في حد ذاته غاية، ولهذا إطلق عليه إخلاصا، وسمينا بالمخلصين.

لكن الإمام ظل غارقا في مناجاته :

- إلهي.. أحمدك ..

- علام ؟ قل لي على ماذا ؟

- إلهي.. وأستجير بك من نفسي.

- فلتدعوه لآلاف الأعوام القادمة، لن يستجيب لك، لقد تخلي عنك يا إمام .. ومنهم ...

حينها سأله بصوت خافت رجل آخر من المخلصين، والذي كان بالقرب منه، فقال له :

-لم أنت ساكت يا إمام ؟ تكلم.. إدفع عن نفسك التهم، قل أي شيء، توقف عن صلواتك قليلا وقم بالرد عليهم.

-إلهي.. أخلصت لك.. فأجرني في إخلاصي.

وفرغ الإمام من صلاته ثم قبل يديه وأعتدل في جلسته، ثم بدأ في توجيه حديثه للموجودين كافة بصوت كانت نبرته تميل إلى الجدية المطعمة بالرقة:

- الإنسان المدرك لنعمة العقل الموهوبة له يدور طوال حياته باحثا عن الحقيقة، فلا يهدأ ولا يخبت إضطراب عقله إلا عندما يصل إليها، في رحلة دائرية لا يستطيع أن يصل إلى نهايتها إلا عندما يمسك طرف حبل يمد له،

obeikan.com

فيخرجه من متاهتها الأبدية، كل إنسان منا يمد له طرف هذا الحبل في لحظات كثيرة من حياته، ليخرج من وحشة الظلام إلى ونسة النور، وهنا المغزي والجوهر، فهل يقبل بالحقيقة من أجل مصلحة شخصية له ؟ أم رغبة فيها في حد ذاتها ؟ هذا هو جوهر دعوة الإخلاص، عندما أتيتم إلى لم أقل لكم أنني سأخرجكم من سجنكم الذي انتم به، لم أقل لأي شخص أنني سأحميه من أي سوء يتعرض له، طلبتم مني أن أعلمكم الإخلاص وكيفية ان تكونوا مخلصين، رأيت إنكم تريدون العودة للحقيقة التي هجرتموها، شعرت أنكم تريدون أن تتبعوا الحق لكيانه، ليس من أجل مصلحة أو غاية خاصة داخل صدوركم، ولكن للإسف، فأهواؤكم كانت تعكر صفو الإخلاص، عندما نخلص فإننا نخلص لأن الإخلاص واجب وليس إختيار، وجودنا في العالم ليس مجرد محض صدفة، إننا جميعا ننتمي له.. سواء شئنا أم أبينا، لقد حاولت أن اعطيكم مفتاح الحق، الحق الذي سيسود الأرض في يوم من الأيام، أعرف ان الباطل أصبح سيدا اليوم، لكن الحقيقة هي التي تبقي، هي التي تستمر، وليس لزاما أن نري الحق ينتصر أمام أعيننا، قد نموت وتتحلل أجسادنا، وتتابع أجيال وراء أجيال حتي يجلس الحق على عرشه المغتصب مرة أخري، إذن فإننا نتبع الحق ليس من أجل وقت مقضي، لكننا نتبعه من أجل الدوام، من أجلنا ومن أجل أبنائنا وأحفادنا، من أجل البشرية جمعاء، ولإن العالم كله ملكه وبين يديه، فمن المستحيل أن يسود على الساحة شيء غير إرادته، التي إن لم تنصروها اليوم، فسيأتي من بعدكم رجال مخلصون ينصرونها بحق، لست أقول لكم أن معي كنوز الأرض، أو تأشيرة ضمان لأي شيء، لكنني أحمل مفتاحا لطريق الحق، فلتعلموا.. هؤلاء من بالخارج ليس لهم نصيب من أرض الوجود الأخروي، ذلك الوادي المقدس، إنهم يعرفون ذلك، ويوقنون منه، كل همهم هو أن ينالوا حظا من الحياة المادية الصرفة، وهم يعرفون أيضا أننا إذا أخلصنا من قلوبنا فسيكون العالم المادي والوادي المقدس كلاهما لنا، وحقدا وكمدا منهم، فكما جعلونا نخسر الماديات، أرادونا

أن نخسر الحياة الأخرى، إنهم يسعون لذلك بكل ما يملكون من قوة، تذكروا كلامي إن كان له أن يدوم في عقولكم، أنا ليس لي مصلحة أنجزها من وراء إقناعكم، لن أفوز بشيء إذا أخلصتم، كذلك لن أخسر شيئا إن آثرتم طريق الضلال، إن كلمة حق هي التي تدفعني، إخلاص من داخلي يصرخ في لإحاول أن أنقذكم، إن لم يكن من الدنيا فمن مغبة فلاة التيه، ولكن إذا آثرتم الباطل على الحق وذهبتم إليه بكل جوانحكم، فأرجوكم.. أرجوكم.. دعوني أتعبد في هدوء، خلوا بيني وبينه، أتركوني وجنوني كما تدعون، فإن كان جنونا فما أجمله من جنون، إنه يجعلني أري كل شيء فان يضمحل ويزول أمام عيني فلا يبقي إلا ماهو حقيقي وباق، فكل شيء غيره باطل.. وهو وحده الحق، الأبدي.

obeikan.com

obeikan.com

-١٦-

«أنا الكوكب الآفل، وحفنة الريح التي تمر ولا تعود»

في يوم عاودت فيه الشمس عادة لم تأنفها، وأنقبضت صدور السماء التي ضاقت بكتل من الغبار الذي هب من جديد، فأغلق أسراريها، وتغنت الطيور بترانيمها المنتقاة من كتاب الموتي، إستيقظ الجميع بعد ليل مخضب بالصمت والحقيقة، ونوم إتسم بالهدوء القاتل في عتمة صيفية باردة، بأرواح مثقلة بخواء من الإخلاص، فارين فرار المستنجد بالظلام، مكبلين بقيود الإصطدام بالواقع، ممتلئة شعابهم بهواء إكتسب عفونة الذل للخضوع والإستسلام، وذرات من الغبار، وعلي تلك الحال التي لا تسر الموتي الذين رغبوا في العودة الي الحياه.. أقتيدوا إلى خارج تلك الخيمة الكبري التي سترت عورتهم التي بدت بالأمس أمامهم، وأجلسوا متربعين جنبا إلى جنب على أرض فقدت في معركة خسيسة، في حين راحت القوات العسكرية تقوم بعمل إستعراضات قتالية أمامهم ليزدادوا خوفا فوق خوفهم، وإستسلاما على إستسلامهم، وتمدهم بيأس يعزز يأسهم.

إلتزمت تلك القوات في عرضها بترابطها وإنسجام رجالها في حركات منتظمة تنم عن الدقة والإنضباط، الأمر الذي كان بمثابة رسالة صورية لتلك الفئة البربرية عن الفوضوية المهلهلة التي كانت تحكمهم، وعن إستحالة الوقوف موضع التحدي والمجابهة لذلك الكيان الجديد الذي يحكم قبضته على كل ماهو محيط، إنعكاسات ضوئية إنطبعت فوق الخلايا البصرية ففتقت رتق المهابة في نفوس المشاهدين، ونقشت فوق حجر بواطن العقول فكرة

إستنفدت العديد من السنين والكثير من الجهد والفكر لزرعها، هاهي اليوم تتخذ مكانة حق اليقين بين أيدي المتفرجين، ولما إنتهت القوات من آداء مهمتها التي إستمرت حتي إرتقت الشمس إلى زاوية حادة في عنان السماء، صدر صوت مناد أتي من الأفق البعيد، فراحت القوات على إثره تنتظم في طوابير متوازية في حركة واحدة، لا تتقدمها يد ولا يتأخر عنها إصبع، وأفسحت عن ممر رملي يشطر الجمع لنصفين متساويين، فظهر من بعيد سراب لم تتبين معالمه أعين معمية بضوء الشمس الحارق، إلا إنه مع إقتراب هذا السراب بدأت ملامحه تتبين شيئا فشيئا، فأسفر عن مجموعة تبدو وكأنها إحدي فصائل الحراس المحتجزين بقاع من قيعان الويل، يتقدمهم رجل أغلب الظن أنه أحد نواب الشيطان المقربين والمحببين إلى نفسه، وبخطوات تتسم بالخيلاء والفخر والثقة، تقدم هو ومعاونوه المحيطون الأقل مرتبة منه، فإقترب من هؤلاء العبيد الذين نظروا إليه في رهبة وخوف، حتي إذا وصل لبقعة بعينها، مكنته من رؤية كل شيء حوله بوضوح تام، توقف عن سيره، ضم ذراعيه إلى صدره، وراح ينظر إليهم نظرات مملؤة بالإحتقار، ثم إلتفت إلى يمينه بكليته، فتحدث بلغة غريبة مع ضابط هرول سريعا ليقف قبالته بعدما أعطاه تحيه غريبة بيديه، حيث رفع ذراعه في الهواء بزاوية ستين درجة من المرفق، ليستقر باطن كفه الأيمن أمام عينيه اليسري، فرد هذا القائد التحية بالمثل، وأثناء حديثهما، فأجأ الجميع صوت القائد الذي تحدث بلغتهم، وقد قال بصوت عال موجها كلامه للأسري:

- لا.. يجب ان يعرفوا، الحقيقة يجب أن تكون ظاهرة وواضحة امامهم.

فانتحي ذلك الضابط جانبا بعدما أعطي قائده تحية الإنصراف، ليلتف الأخير ويلتقي بأوجه رسم الهوان تحتفه على حدودها، ثم بدأ يوجه حديثه إليهم بلغتهم التي تحدثها بطلاقة، فقال بتهكم:

- يجب عليكم أن تعرفوا ان الأقلام قد نفدت وهي تكتب تاريخكم، لقد إنتهي الحديث عن ماضيكم البائد وخطت له كلمة النهاية، وها نحن هنا

اليوم نكتب لكم تاريخا جديدا باقلأم حديثة، إمتلات عن آخرها بحبر لا ينفد، فهو كالبحر الجاري.

ثم بدأت حدة صوته تزيد، فقال:

- عليكم نسيان الماضي، لا يوجد مصطلح عندكم بهذا المسمي بعد الآن، هذا ليس إختيارا بمقدوركم تحاشيه، إنه أمر انتم واقعون فيه، من اليوم أنتم عبيد ليس أكثر، ونحن هنا السادة، سادتكم، نأمركم فتطيعون، نوجهكم فتنقادون.

وقطع كلامه بإشارة أعطاها لذلك الضابط الذي كان يتحدث معه، فما إن تلقاها حتي تحرك في عجالة، ثم إستطرد كلامه ثانية :

- أي شخص منكم يفكر أن بمقدوره عصيان اوامرنا، أو يحاول تحريضكم ضدنا، أو مواجهتنا، سيكون مصيره القتل الوقتي، وبابشع الطرق، أعرف انكم ترغبون في العيش، لكن أن تعيشوا يعني أن تطيعوا أوامري، فأنا الآمر والناهي هنا، إستجابتكم لأوامر جنودي سيبعث في نفسي الرضا نحوكم، فهو إستجابة لأوامري، اما عصيانكم لهم فسوف يثير سخطي وغضبي، فهو عصيان لي، وأنا لا أقبل بأي عصيان لأوامري.

هنا.. برزت مجموعات من الجنود تحمل هياكل حديدية مثلثة الشكل ، مفرغة من الداخل، زودت بأغلال عند اركانها، وألحقت بقوائم خشبية تحملها، بحيث تكون قاعدة المثلث موجهة لأعلي والركن المقابل لذلك الضلع المرتفع، يكون إلى الأسفل، حينما إستقرت تلك الهياكل على الأرض أمام المشاهدين أطلق القائد يده في الهواء وراح يشير نحوهم، توجيها منه لجنوده ليهجموا على بعض الأشخاص المعنيين، فتم القبض على خمسة من العبيد وعلي رأسهم (الإمام)، ولما أحكم الجنود قبضتهم عليهم، قاموا بفك قيودهم وساقوهم ليمتثلوا أمام هذا الجمع المذهول، عندها قطع القائد ذهولهم بكلامه الذي إقترن بصوت هاديء :

- إن تلك المجموعة كانت تخبركم بوجود إله يستحق منكم الإخلاص،

سأصدقكم القول ولن أكذب، نعم.. لقد كانوا على حق، كانوا يريدون هدايتكم للحقيقة التي أغفلتموها بمحض إرادتكم، ولذلك.. فإن لهم منا أفضل الجزاء.

حينها قام الجنود بتقييد كل من الخمسة المعتقلين بإحدي الهياكل بحيث أن يكون يدي أحدهم مقيدة بكل زاوية بقاعدة المثلث المتجهة لأعلي وقدماه بذلك الركن الموجه لأسفل، ثم تم إقامه تلك الهياكل وتثبيتها في الأرض، فأصبح الخمسة معلقين في الهواء، إستطرد القائد كلامه مرة أخري ولكن بحدة بالغة، فقال :

- جزاء هؤلاء هو الموت، إخلاصكم لا يجب أن يكون لأحد إلا لساداتكم، لقد تخلي عنكم إلهكم ذلك اليوم الذي تخليتم فيه عنه.

أعطي القائد إشارة أخري من إشاراته التي لا تنتهي لرجاله، فظهرت مجموعات من الجنود حملت بين أيديها قضبان حديديه عقفت رؤوسها ذات الأسنان الحادة، وأتجهوا نحوا ضحاياهم وبدأوا في تعذيبهم، فأخذوا يحكون أسنة تلك المقابض بجلودهم التي تجرحت وأنفجر الدماء منها، فتعالي صراخ الضحايا من الألم الشديد، في ذات الوقت بدأت أضلاع تلك الهياكل تطول بحيث أتجهت أطراف كل ضلع في إتجاه يقابل إتجاه الطرف الآخر، فأخذت الأضلاع تتمدد جاذبة معها أطراف الضحايا، وأستمر ذلك الأمر إلى وقت ما، فإزداد صراخهم من الوجع المفرط، في تلك الأثناء تملكت (الإمام) حالة شعورية خاصة، فراح يتلو صلوات فكانت بمثابة الدواء العاجل لآلامه المهلكة، أما الجمع الغفير فانهمك في دموعه المتصارعة التي إنهمرت تألما وشفقة على (الإمام) الصادق، ولذلك الإحساس بالذنب الذي قطع في مشاعرهم، كل ذلك و(واصل) يشاهد ما يحدث وهو منهمك في دموعه التي لا تجف.

أخذ القائد المتوحش يسير جيئة وذهابا في المكان، يشاهد بإستمتاع ما يحدث، منشرحا بتلك العلامات التي إعتلت وجوه الضحايا وتلك الحالة التي

تملكت المتفرجين من العبيد، وكمقدم لاحد العروض الترفيهية، أخذ يكلم الجماهير الصامتة شارحا لهم ما يحدث، فقال :

- إنظروا لهم.. إنصتوا لهذه الألحان الجذابة، هذا هو جزاء من يعتقد في الإخلاص، تأملوا هذا المشهد جيدا حتي لا تنسوه كما ستنسون بقية ماضيكم، فذلك الغاز الأزرق الذي كان يبث لكم ماهو إلا صيغة كيميائية تذهب بالذاكرة، لن تتذكروا شيئا عن حضارتكم، عن تاريخكم، عن أرضكم، ستتذكرون فقط أنكم وجدتم أنفسكم عبيدا لنا، حقيقة أخري أردت أن تعرفوها قبل أن تنسوها مع كل شيء ستنسوه.

وأستمر الجنود في دورة تعذيبهم التي لا تنتهي لضحاياهم، وفي كل دورة تكتمل تتآكل المزيد والمزيد من طبقات جلودهم فيصاحبها صراخ وآهات الألم، ويتشرب الرمل الظمآن مزيدا من قطرات الدماء المتساقطة عليه، ظل الحال هكذا حتي صدرت أوامر نائب الشيطان للجنود بإمالة هذه الهياكل على الأرض بعد ضمها جنبا إلى جنب لتصبح في وضع أفقي، فتكون أوجه الضحايا موجهة للسماء، ثم أمر الأسري بالمرور فوق هؤلاء المحبوسون ليزدادوا ألما على ألمهم، وحينما رأي القائد التردد على وجوه العبيد أمر بجلب ثلاثة أشخاص منهم وقتلهم على الفور، ثم أصدر أوامره لهم مرة أخري فراح الجميع يمتثل لأؤامره، ووسط بكاء الجميع وألمهم تعالت أصوات الضحايا، فتجرعت كأس الموت البطيء، أما الراوي فحاول التمسك بإيمانه الذي أعطاه القوة رغم ما عاناه من ألم شديد، فبالرغم من الجحيم الخارجي الذي يعاني منه، إلا أن إخلاصه الداخلي جعله يستشعر بنفحات الوادي المقدس، فأخذ بصوت مسموع يناجي الإله قائلا :

- إلهي.. إن قوسا من الظلمة قد إعتلي عرش السماء.. لكني أري غصونا من الزيتون تلوح في الأفق.. إن مراجلا من الغيرة تجتاح قلبي ..لكن غيث نورك يثلج الصدر.. إلهي.. عدوك الثعبان نفث بسمه في جسدي.. وإخلاصي يجعلني أشعر بنفحات المسك فيه.. إلهي.. عيناي ثكلي.. وآمالي تطفو على

سطح الخطايا.. فما تحرسه عيناك لا تنتزعه مخالب الشيطان.. إلهي.. إن قلبي يرقد فوق جبل من إيمان.. يسبح في محيط من الأحجار والصخور.. عسي أن يحملني وأرتحل إليك من فوق الأرض دون عائق.. فاقبض على مجاديف زورق الترحال إليك.. إلهي.. وأنت أنت.. أنت الذي لا إله إلا أنت.. فأنا الكوكب الآفل.. أنا حفنة الريح التي تمر ولا تعود.. وأنت الحي إلى لحد الخلود.

دموع تنهمر كالمطر، ووقع أقدام تشبه حشرجة الموت، وقطع من اللحم المسلوق في دورة شواء تحت فحيح آشعة الشمس التي لا ترحم، ولكن.. آلام الجسد والنفس لا تصيب روحا أخلصت بصدق في إخلاصها، فالبرغم من العذاب الداخلي الذي يحسه إمرؤ يداس بقدم لطالما كرمها وحفها بالأمن، إلا أن النوايا قد تشفع لأصحاب الإرادات المسلوبة، ففي لحظة توقفت فيها الأنفاس وعجزت فيها الألفاظ في التعبير عن المشاعر، إلتقت عيني الراوي بعيني واصل عندما أوشك على المرور فوق جسده المتهالك، فتبسم في وجهه، وهز رأسه طالبا منه المرور دون خوف أو إحساس بالذنب على فعلته التي إجبر على فعلها، وبصوت عال راح يصرخ فيه:

- أعبر من فوقي، وطأة قدميك لن تزيد من آلامي، خطواتك بها أمل للغد، انفاسك سنابل قمح في حفرة من الجحيم، لا تخف يا بني، لا تحزن على، مر من فوقي، مر لتحيا.

وأجهش الصبي بالبكاء الحار الذي تقطعت به أنفاسه، وبقوة الدفع غادر مكانه الذي وطئه، وبعد مرور جميع الطوائف المقهورة توقف هذا العناء، وقام الجنود بفك قيد هؤلاء الضحايا الذين وضعوا أقدامهم على أعتاب الموت، ليعلن القائد بدء فقرة جديدة من العذاب النفسي والجسدي، فيأمر زمرة من الزبانية بدفن هؤلاء المخلصين أحياءا تحت الرمال الشتعلة، فيجعلهم يلفظون آخر رمقات من الهواء تحت المسام الرملية المسدودة، وبالفعل.. قامت تلك الزمرة بحفر خمسة حفر عميقة بين أحضان الرمال،

ليقوموا من بعدها بإلقاء أجساد المخلصين الخمسة فيها، ثم يردمون عليهم الرمال ليموتوا مختنقين، وأثناء الردم ظل الراوي يردد:

- إلهي.. لم تتركني.. إنك في معيتي.. لقد ذابت أنصال الفؤوس وأحتالت أجنحة ترقي بروحي إلى السماء.. أري بابا لا تنتهي حدوده قد فتح من أمامي.. لا توجد عوائق.. لا توجد أسوار.. فقط أنا منك وإليك.. فقط أنا أعود لموطني وإنتمائي.. إلهي فخير.. إلهي فخير.

حينها رأي الراوي طيفا بالقرب منه، وسمع له صوتا مألوفا هجره منذ فترة من الزمن، فقال له الصوت :

- لا تخف ..

فرد (الراوي) مبتسما :

- أنت ؟ لقد إشتقت إليك ..

-وأنا أيضا ..

-ولكن.. لم عدت الآن ؟

-عدت من أجل وعد قطعته على نفسي، وعلي الوفاء به، وهو ألا أتركك.

بعد تمام الأمر وإنتهاء الدفن توقفت الأياد عن العمل، وأنتظر الجميع موت هؤلاء ببطء، حتي إذا مر ما يقرب من الساعة أمر القائد بإخراج تلك الأجساد التي كانت هامدة بزوال أرواحها، عندها بدأ يوجه حديثه للعبيد مرة أخري قائلا :

- لقد كان همكم في الحياة هو المصلحة الشخصية لكل فرد منكم، كنتم تأكلون بعضكم البعض بصورة معنوية، والآن.. ولإن العرض لم ينته بعد، فسأجعلكم تشاركون به حتي لا تكونوا مشاهدين فقط، المشاركة ستجعلكم تستمتعون أكثر، سأجعلكم تطبقون ما كنتم تفعلون عمليا، ستاكلون لحوم موتاكم هؤلاء كما كنتم تأكلون لحوم إخوانكم لتعيشوا، وهذا شرطي الذي لا يقبل التفاوض كي أسمح لكم بالعيش.

أخرج الجنود أجساد الضحايا واحدا تلو الأخر، وتقدم خمسة منهم وفي

أيديهم سكاكين حادة، قامواشقوا بشق بطون تلك الجثث وشرحوا أطراف جلودها بها، وبعدما أنهوا مهمتهم عادوا لأماكنهم ليصرخ القائد في العبيد :

- هيا.. قوموا إلى وليمتكم.

ولكن أحدا لم يستجب، فصرخ في أحد جنوده قائلا :

- أيها الجندي.. هات هذا الرجل.

وأشار لأحدهم ..

- إذبحه وقم بتشريحه، من سيعصي أوامري منكم سيحدث له مثلما يحدث لهذا الرجل الآن، ثم يؤكل مثل قرنائه.

وقام الجندي بالفعل بذبح هذا الرجل وقام بشقه وتشريحه، ولما رأي العبيد جدية الأمر وراعهم المشهد قاموا بأرجل متثاقلة، فأقبلوا على تلك الجثث التي راحوا يأكلون منها كما تأكل الضباع لحوم فريستها الميتة.ونهشت أيادي المجبورون جوعا في أجساد الموتي، وقطعت أسنانهم تلك الجلود الملطخة بالدم والرمل، عندما رأي القائد هذا المشهد صرخ فيهم وقال:

- لا أريد أن يبقي منهم أي فتات، فإذا حدث، سأقتل أحدكم، فيؤكل جسده مثلهم.

ثم أطلق ضحكات سادية دوت في الأفق، شاركه فيها أعوانه من الجنود والضباط القتلة.واستمر هذا العذاب وقت طويل، حاول فيها الجميع صراع ذلك النفور والتقزز الذي إجتاح أذواقهم، فتعلقهم بالحياة أقوي من أي شيء آخر، أقوي حتي من نفورهم من أكل لحم أخوانهم، حتي ولو كانت الحياة تعني العيش في ذل وهوان.

تم إخراج إجساد جميع الضحايا الذين قتلوا بالدفن أحياءا، لكن حفرة واحدة أذهلت الجميع عندما تكشفت وأزيل ما عليها من الرمال، لقد كانت حفرة (الإمام)، فعلي النقيض من أمثاله الذين وجدت أجسادهم في مكانها التي دفنت به، لم يكن جسده موجودا.

***

obeikan.com

وقفة ثالثة

رغم أن الغبار هو أصل الوجود، فبه صنعت تلك المجرات المناسبة لإستقرار الحياة على سطحها، وله ماله من حمائد أخري مثل تكوين السحاب، إذ تترسب قطرات المياه المتبخرة من البحار حول ذراته، فيصنع بذلك سحابا محملا بالماء العذب، ثم تكتله فوق بعضه في طبقات متتالية، وذلك لتكوين الجبال التي تحفظ للكواكب توازنها، إلا أن بعض الغبار قد يكون له من الأثر ماهو فاسد، مثل ذلك، أنه قد يتسبب في موت بعض المخلوقات، وذلك لما يتسبب به في ضيق للتنفس، أو أنه قد يؤدي إلى عطل آلة من الآلات، فلا تعود صالحة للعمل كما كانت من قبل، او حتي يترسب فوق مجلد او كتاب ما، يفصح عن أحداث مكتوبة بقلم مخلص، لتصير تلك الكلمات المنسية حبيسته لفترة من الدهر، أو قد يطمس حقائق جلية، كانت من قبل واضحة للعيان وضوح الشمس، حينئذ.. يتجلي الغبار في أبشع صوره، وتكون له عاقبة مذمومة، قد تكون أسوأ من الموت نفسه.

obeikan.com

obeikan.com

-١٧-

إنطلقت مجموعة من العبيد، تحت إمرة سوطه الذي لم يرحم أجسادا تعرت، فتآكلت بلهيب الحر وضربه الذي لا ينقطع، لكن بالرغم من الألم الذي طبعه هذا السوط بتلك الندوب التي تركها منحوتة على الجلود فدلت عليه، إلا أن الأمر قد إتخذ محل العادة اليومية التي لا تتغير، بل إنه أصبح مألوفا إلى حد كاد أن يجعلهم لا يرتاحون إلى يوم فرغ من هذا الجلد التعسفي، الأمر الذي جعل يد تلك الشخصية السادية تقسو وتضرب بقوة مفرطة، إذ تعتريها لذة لا تنتهي من إقدامها على هذا العمل الذي لا تمله، وليزد صاحب ذلك الخلق السادي من رهبته في نفوس العبيد.. أخذ يصرخ بصوته المملوء بالغضب ليدفعهم بذلك إلى العمل بهمة أكبر في جر العربات الخشبية، والمحمل على ظهورها صخور ضخام، لينقلوها إلى موقع العمل، من ثم يتم إستخدامها في إتمام البناء الذي لا ينتهي، فإذا ما وصل الجمع إلى محل البناء يقومون بإنزال تلك الصخورالعظمي، فترفع على رافعات تنقلها من درجات أدني إلى أخري أعلي، لتوضع إحداها إلى جانب مثيلاتها الموضوعة قبلا فينتظم البناء، أو تتخذ كنواة لبناء صف جديد ذو مستوي أعلي من الذي قبله، وتلك هي مهمة العبيد الموجودين في موقع البناء، أما عن هؤلاء الناقلين، فعليهم العودة مرة أخري لمواقع الجبال حتي يقوموا بجلب صخور جديدة، من تلك التي قامت بتكسيرها أياد العبيد المعنيين بذلك.

كان ذلك الأمر يتم يوميا، يبدأ بطلوع الشمس وينتهي بزوالها، أما في الليل،

فكانت جموع العبيد تعود إلى أكواخها المبنية من الطين والموجودة في قرية بالقرب من قلعة السادة، باحثين عن القليل من الراحة، أو النذر اليسير من التسلية الملهية، ولإن ليل الصحراء معروف بزمهريره الذي لا يرحم، فقد أحيطت تلك البيوت بالوبر الطبيعي المتخذ من الإبل أو الماعز، وغيرها من الحيوانات التي كانت تذهب لحومها الي الأسياد، خاصة وأن ملابس العبيد كانت بسيطة وغير قادرة على منح الدفء الكافي والمطلوب.

مجتمع كهذا، نشأ والعبودية تحيط به كدائرة مغلقة، جدير بأن يكون أرضا خصبة لمبدأ.. البقاء للأقوي، فكما أن هذا القانون هو المرجع الأساسي لفعل أي حيوان مفترس في الغابة، كذلك كان الأمر بالنسبة لهم، وعليه.. فقد كان النصيب الأكبر في كل شيء لهؤلاء ممن تمتعوا بقوة جسمانية أكبر من تلك التي لنظرائهم، ولم يكن هناك من خجل أو مداراة في أمر كهذا، فاستخدموا سطوتهم وقدرتهم التي تمتعوا بها في نهب حقوق الغير والسيطرة عليها، زد على ذلك.. تلك الأسوار المانعة، والتي أحاطت بقريتهم، فأبوابها توصد عند عودتهم من عملهم اليومي الذي ينتهي بغروب الشمس، وكأنهم في سجن قروي.

الخوف منقول في خلايا متوارثة جيل بعد جيل، فبالرغم من أن الحرب العالمية قد دمرت كل مظهر من مظاهر الحضارة والتقدم، وجعلت هؤلاء السادة يفقدون تميزهم الذي منحهم القوة والقدرة، فأصبحوا أضعف من ذي قبل، إلا أن أي محاولة للتخلص من سطوتهم ماتت مع ذلك الخوف الذي زرع في الأنفس وتوارثته الأجيال دون وعي، خاصة وأن هؤلاء السادة قد حافظوا على مظاهر الترهيب، والتي أوحت للعبيد أنهم لازالوا يحتفظون بقوتهم وسيطرتهم القديمة.

عالم يخضع بكامل قواه لهيمنة الوهم، مستسلم إلى ثوابت واقعية غير حقيقية، يقتل نفسه بنفسه، غير محمل بأمل، أو أي رغبة في التطلع إلى ما هو أفضل، مجتمع كهذا لا يوحي بأي خير، ولا يبشر بأي أمل لمستقبله.

Obeikan.com

رغم ندرة الحدث.. إلا أنه قد توجد أحيانا بذرة من بذور الثمر في مستنقع من الوحل، تحاول أن تستجيب لنسائم من الرياح التي تطل عليها من موسم لآخر، فتقوم تلك البذرة بالتخفيف من وزن كتلتها لتحملها تلك الرياح، هربا من تلك البيئة التي لم تخلق هي للنمو فيها، على أن تلك النسائم الطيبة قد تكون معجزات خارقة للطبيعة في زمن فقد المنطق، أو علامات يستدل بها صاحبها في طريق تفكيره العقلي، أو حتي ظل يهجر صاحبه فيجعله يتسأءل بينه وبين نفسه :

- ألست كمن حولي ؟

وهنا.. وفي تلك القرية الحبيسة التي إعتزلتها المعارف، وتحت آشعة الشمس الملتهبة، إشرأبت أعناق الفكر في عقل أحس باللانتماء لهذا المكان، وظل في حيرة من أمره بغير هدي، إلا أن حيرته التي كان يعيش بها كان لها مذاق حلو، لم تستطعمه تلك العقول التي إستجابت لمباديء الإستكانة والرضوخ، فظل يفكر فيما بينه وبين نفسه ثم يتساءل، فأصبح ذلك عادة لديه في يومه، لكن في تلك المرة.. قاطعه صوت أخيه الملازم له في عمله، والذي أرهقته حرارة الشمس المباشرة، إذ لم يمنع آشعتها هذا الغبار الذي فرض نفسه بقوة في الأفق، والذي ألفة القوم منذ زمن بعيد العبودية، فاعتقدوا أنه جزء من الطبيعة المحيطة كما أعتقدوا أنهم ولدوا عبيدا، راح جسد هذا الأخ يفرز كميات هائلة من العرق، كأنه بئر تدفق ولن يجف، فقال له:

- أتعرف ما الذي يجعلني أتصبر على عمل اليوم؟

جز الآخر على أسنانه، محاولا استجماع ما لديه من قوة لجر العربة، ثم رد عليه فقال :

- ما هو ؟

- ظافرة.. معشوقة قلبي.

بدت نواجذه، وإهتز صدره من ضحكة ساخرة باغتته، ثم قال :

- أنت هكذا، لا يهمك سوي الطعام والنساء.

Opelkan.com

رد اخوه متعجبا :
- وهل يوجد شيء آخر أهتم له ؟ إنهما تسليتي في تلك الحياه.
سكت قليلا، وانهمك في عمله، كانا قد وصلا إلى وجهتهما، فتركا شغلهما ليستريحا قليلا، حينها قال:
- ثم إن اليوم تنتظرنا وليمة رائعة.
سأله أخيه عابسا :
- أتسمي تلك وليمة ؟
- بالطبع وليمة، لا تقل أنك لن تشارك فيها.
- لا.. بالطبع لا.
- لماذا يا (عابد) ؟ أتريد أن تقنعني بأن ذلك الطعام المزروع أفضل من اللحوم ؟
- الأمر ليس كذلك ..
- (عابد)، إننا ننتظر ذلك اللون من الطعام من فترة لأخري، فإلي جانب طعمه الحلو، إنه يعطي أجسادنا القوة اللازمة لمواصلة هذا العمل المضني.
رد عليه (عابد)، وقد بدت دلائل النفور على وجهه:
- حلو ؟ لا أريد تلك الطاقة، إنني أرغب عنها.
- أعرف أنك صائم عن ذلك، لكني لا أعرف لماذا، حتي ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمك، أردت أن أفهمك حينها لكنك لم تفهم.
- ما الذي ترغب مني فهمه ؟ أن اكلي للحمها أفضل من أن أكل غيري له ؟ لم آكل لحمها من الأساس ؟
- لانك إبنها، الأحق بأكل لحمها دونا عمن غيرك من العبيد.
- لا.. لا يا (نجد)، لا أقتنع بكلامك.
- وما أهمية الإقتناع، أنا لم أكن مقتنعا برأيك هذا حينها، ومع ذلك.. إستجبت لرغبتك في عدم الأكل، الإقناع من عدمه لا يغير من الحقيقة، على كل.. فقد وجدنا جثتها محترقة في صباح ليلة موتها، فلم تؤكل على أية حال.

- (نجد).. كف عن هذا الحديث، أرجوك.

- حسنا، لكن ستشاركني فرحة اليوم، لا تأكل.. أنت وما ترغب، لكن على الأقل كن معي وقت الإحتفال.

- سأري ..

- لن تري، إنني أطلب منك يا أخي الحبيب.

بدا الأخ مستنجدا، فوافقه (عابد) قائلا :

- حسنا يا (نجد).. حسنا.

إبتسم عابد وهو ينطق عبارته، ثم نظر إلى الأفق الذي غلبت عليه حمرة الغبار، فتأمل تلك الأهرام التي كلفتهم كثيرا من العناء والمشقة والدم في بنائها، تخيل كم من الرجال ماتوا وهم يعملون تحت وطأة الجلادين الذين لا يرحمون، لقد لحق بهم هذا الرجل الذي سقط أمامه الآن من إعيائه ولم يهتم به أحد، لقي حتفه كما والده، والذي مات ضحية هذا العمل الذي لا هدف له، وطرق سؤال لبه وهو.. لماذا ؟ لماذا تلك المباني ؟ لماذا نحن ؟ لماذا تلك العبودية ؟ لماذا الإبتسام وأنا في هذا الوضع المزري؟

في وقت متأخر من اليوم غابت فيه الانوار الصبحية، وفي حلقة دائرية، تجمع العديد من المشاهدين الذين انتظروا لحظتهم التي يعايشونها حاليا، على وجوههم دلائل الفرحة والإستبشار لأمر بات في متناول الأيدي، إستقبلوه بالصفير والتهليل والدق على القطع الخشبية المستديرة، فتعالت أصوات متداخلة تغنت بلحن موسمي غدا مألوفا في أوقات غير محددة، تتعاقب مع زيارة الموت لهم، مصحوبا برقص إيقاعي يمتاز بالفوضوية الخلاقة، وبالرغم من أن المشهد يبعث على الجنون، إلا أن وقعه في نفوسهم كان أطيب من سحابة غطت السماء في يوم إستعرت فيه الشمس، فتحولت إلى قطعة من اللهب المشرق، النساء كن مشغولات بإعداد النار وتأجيجها، والأطفال منهم من إنهمك باللهو بالرمال الذي قام بتسويته في شكل هرمي، ومنهم من

إلتجأ لذلك الرجل الذي إكتسي بملابس فضفاضة متسمة بالسواد، والذي قد أخذ يشير بيديه إلى تلك المباني البعيدة التي واراها ستار الليل المظلم، فراح يحكي ويتحدث عنها، واصفا إياها بأنها إحدي الآيات الدالة على قوة السادة، وتميزهم بتلك المكانة التي لهم، ولأنه بدا ذا مكانة خاصة بين الجميع، فقد جلسوا جميعا أمامه ينصتون بإهتمام، ثياب الأطفال.. بسيطة مثل ذويهم من الرجال، تتكون فقط من سروال من جلد الماعز يصل ما بين السرة وما فوق الركبة، ليبقي الجزء العلوي عار، اما النساء فكانت ثيابهن كتلك التي للرجال، ولم تختلف في شيء سوي تلك القطعة الوبرية التي تستر أثدائهن، فلا فرق بين صغير وكبير في الملبس، الكل يرتدي زي واحد مناسب لجميع الأعمار، اما ذلك الرجل.. فقد كان يرتدي على رأسه عمامة هرمية الشكل، وهي أكثر شيء ميزه عن باقي الموجودين.

خرج (عابد) من كوخه الذي يسكنه مع أخيه، تملكه إحساس مليء بالنوء والرفض، لكنه إستجاب لخطاه التي أرشدته إلى بقعة قريبة من تلك الحلقة التي تجمع حولها هؤلاء الخلق، فجلس متربعا على ربوة إبتعدت عنهم، إتخذت حالته منحني آخر يختلف تماما عن ذلك الذي سلكته أنفسهم، فبالرغم من الفرحة التي كانوا عليها لتلك الوليمة التي يتنظرونها بعد فترة من الزمن، إلا أنه على النقيض أحس بشيء من النفور، ما ألذها تلك الوليمة التي تزورهم بعد هجران يدوم لسنوات.. فلا يوجد ماهو أشهي من جسد فتاة عذراء جميلة، أعدت من قبل لذلك اليوم الذي يلتهم فيه هؤلاء المتوحشون جسدها الطيب، إن نعومة لحمها تجعلهم يتصبرون وقتا طويلا على تلك الوجبة البشرية لهؤلاء الموتي الذين يقتاتون عليهم، رغم فظاعته الأمر.. إلا أنهم لم يستسيغوا أكلا كما إستساغوا طعم لحم البشر، إن له طبيعة خاصة إعتادوا عليها منذ زمن، فما بالك بلحم فتاة عذراء ؟

تجمعت النساء ليرقصن من حوله، كل واحدة منهن حاولت لفت نظره ولكن.. دون جدوي، تطلع إلى تلك الفتاة الجميلة التي أوشكت أن تصبح

Obeikan.com

وليمة بحزن مداري، لم يخرجه من تلك الحالة الآسرة له إلا تربيتة من يد أخيه على كتفه، فانتبه لها فزعا، ليضحك (نجد)، ويقول له :

- فيم كنت تهيم ؟

- لا شيء ..

- من ذا الذي يحزن في يوم كهذا ؟

ثم رفع يديه إلى السماء وصرخ بعلو صوته قائلا:

- إنه (عابد) ...

أخذ يقهقه بشدة، فسعل من فرط ضحكه، لكن (عابد) نظر إليه بتهجم وقال :

- أنا لا أفهم سبب سعادتك.

- أتعرف ما الفرق بيني و بينك يا (عابد) ؟ أنني على العكس منك، إستطعت التعايش مع واقعي.

- بالفعل.. أنا لا أستطيع.

- (عابد).. نحن هكذا، وسنظل هكذا، سنعيش ونموت على تلك الحال ولن يتغير شيء، إرض بواقعك.

- واقع.. أي واقع ؟ هل تستطيع ان تفهمني ما معني كل هذا ؟ ما معني أن نعيش طوال حياتنا في سخرة من أجل خدمة قوم من الجلادين ؟ هل تستطيع ان تشرح لي ما معني أن تأكل لحم بشر مثلك ؟ هل تستطيع ان توضح ما قيمة الدم الذي يراق منا في بناء تلك المباني ؟ هل تستطيع أن تقول لي ما هذه المباني من الأصل ؟ ماذا عن وجودنا ؟ لماذا جئنا إلى تلك الحياه ؟

سكت (نجد) عن جنونه، كلمات (عابد) كانت أشبه بصخرة إصابت وجهه، تطلع إلى الأرض قليل وهو يهز رأسه، ثم نظر إلى عيني (عابد) وقال له :

- أتظن انني لا أفكر في كل ذلك ؟

تعجب (عابد) من كلامه، لكن لم تبد أي علامات على وجهه توحي بذلك، لكن (نجد) إستطرد قائلا :

- إنني أفكر فيه في كل ليلة، في كل لحظة تمر على، إنني أكره ذلك المكان وتلك الكائنات التي من حولي، اشفق لحالهم.. بالطبع، ولحالي أيضا، لكني أكرههم وأكره نفسي، أحاول أن ألهي نفسي دوما عن ذلك الفكر الذي سيفتك بي بتلك اللحظات المسكرة التي تنسيني أي واقع مر، فرح مثل فرح اليوم، ليلة أباتها في أحضان فتاه فائرة، لحم بشري لعذراء جميلة.

لم يستطع عابد الرد، فباغته نجد قائلا :

- من تظن حرق جثة أمنا بعدما ماتت ؟ اتظنها حرقت من تلقاء نفسها ؟

فغر (عابد) فاه من الذهول، ولم يستطع أن يعقب، فواصل أخيه كلامه بعدما ضم قدميه نحو صدره، ونظر تحت قدميه متأملا الحصي:

- لم أرد ان يحدث لها مثلما حدث لابي، لم تكن قد ولدت بعد، لقد رأيت ما ألم به بعد موته بأم عيني، خفت ان أراها في ذلك الوضع، لم أرغب في أن تحطم عظامها بين الضروس، أو أن ينهش لحمها بالقواطع، إنها أمي يا (عابد).. امنا، لكني لا أعرف ماذا أفعل أو إلى إين أذهب، إنني أقف ضعيفا أمام ذلك الواقع الظالم، لا حيلة لدي، تلك هي حياتنا يا (عابد)، يجب أن نرضخ لهيمنتنها علينا ونسلم بقلة حيلتنا نحوها، إنه قدرنا.

رد (عابد) بصوت هاديء فقال:

- حياة بلا حياة ..

- لكنها تظل حياة، جئنا إليها فوجدنا انفسنا فيها عبيدا، هكذا ولدنا.

- نعم.. لكن هل يعني ذلك أننا لهذا خلقنا ؟

لم يجد (نجد) ما يرد به على سؤال أخيه فسكت، لكنه قال بعد لحظات من الصمت :

- في اليوم الذي تستطيع فيه تغيير هذا الواقع - إن إستطعت -، سأكون اول تابع لك، حتي ذلك الحين..

لم يستطع أن يكمل جملته، فقد رأي أحدهم قادما من بعيد، فقال :

- أصمت الآن.. الكاهن قادم، لو سمع كلمة مما نقولها سيخبر السادة بها،

حينها.. سيقتلونني ويقتلونك.

ثم وقف والغضب يملؤه فقال :

- والآن دعني لحالي، أريد ان أحظي بفرحة ما تبقي من الليل، لقد أفسدت على ذلك اليوم، لا.. الخطأ مني، أنا من أتيت لأجلس بقربك.

تعلقت عيناه بأخيه الذي تركه وسار نحو الجمع، المسكين إحتمل قلبه الكثير من الوجع والألم ولم يفصح عنه، كان يرتدي وجها آخر فوق وجهه ليخفي ما في صدره، أحس بالغضب.. فأمسك بتلك القلادة التي حول رقبته، فانزعها بقوة، ثم ألقاها بعيدا عنه، تمني لو أن الواقع مثلها يستطيع أن يدفعه عن نفسه، ثم قام من على تلك الربوة التي كان يجلس عليها وابتعدعن تلك الحفنة من الهمج، فتوجه إلى كوخه الذي ما أن وصله حتي تمدد على ارضيته، زفر هواء رئتيه وراح يتأمل ذلك الكوب الشمالي الذي بدا من سطح الكوخ المفتوح سقفه، كان قاتم اللون وكأنه مكدر بالحزن مثله تماما، راعه أن طرقتاسماعه أصوات الفرح والتهليل التي أتت من بعيد، فأخبرته ان قومه قد بدأوا وليمتهم، أحس بنغزة في صدره وقتها فوضع يده عليه، وأغمض عينيه على نية بيتها بين جفنيه، مقررا إيقاظها.. في صباح أحد الأيام.

***

Obeikan.com

obeikan.com

-١٨-

لم تكن تلك المرة الاولي التي يلاحظ فيها (عابد) عدم وجود ظل له، فكثيرا ماتساءل في نفسه عن سبب ذلك، وقد لاحظ أخوه الأكبر هذا الأمر أيضا، ذلك عندما كانا في إحدي المرات يجران إحدي عربات الصخور، إذ نظر نجد تحت قدميه، ليصطدم بإنعدام وجود ظل لأخيه، ارتعب حينها وسأل (عابد) عن السبب، لكن (عابد) كان مثله، لا يعرف إجابة لهذا السؤال المحير.

أحس بغربة تفصله عمن حوله من العبيد، فإلي جانب ذلك الظل اللامرئي له، كذلك كانت أفكاره الخفية وأفعاله اليومية تختلف عن أفكار واعمال من حوله، فحينما كان شغلهم الشاغل هو متي ينتهي وقت العمل ليأتي وقت الراحة، كان يتفكر هو في نهاية أبدية لهذا العذاب، عندما كانوا يغطون في نومهم في عمق الليل، كان يظل هو مستيقظا ليستمتع بتأمل حدود السماء، محاولا إكتشاف أسرارها، عندما كانت تجتذبهم نزوات يتناسون بها واقعهم الأليم، كان هو يختلي الي نفسه، ويتخيل حياة أفضل له ولقومه، حتي الطعام الذي تعود العبيد على اكله منذ زمن قديم لا يعلم بدايته، لم يشاركهم فيه.

أحب دوما النظر إلى ذلك الخط الفاصل الذي كان يراه على إمتداد بصره، فيترك ما بيده من عمل مفروض عليه، رغم أن ذلك كان يعرضه للمهانة والتعذيب من الحراس، وذلك.. كي يتوقف لمشاهدة هذا المنظر البديع الذي فيه تواضعت السماء، فمدت يدها من عليائها لتلامس أطراف أنامل الأرض، المشهد الذي جعله يتخيل أنهما ثنائي هاما في العشق، لكن الاقدار لم تمهلهما،

Obeikan.com

فجعلت الفراق مصيرا لهما، في حين حاولا التمسك ببعضهما البعض، في لحظة وداع إستمرت إلى الأبد.

اتي الدنيا يتيما، فقبيل مولده بشهر مات أبوه أثناء عمله، كان متسلقا لاحد الجبال-حيث كان من النحاتين الذين ينحتون الصخور-فزلت قدمه، ولما وقع على الأرض، إصطدمت رأسه بأحجار صلبة فشجت، ومات من حينها، لم يكن له إرث يورث من بعده، مثله مثل العديد من بني جلدته، فقط.. تلك القلادة المعلقة بالعقد والتي كان يرتديها أبيه دوما، وحفظتها له أمه من بعد موته ليرتديها عندما يكبر، أمه الحنون التي احبها حبا جما، إعتاد النوم مرخيا راسه على فخذها، فتقوم هي بمداعبة خصيلات شعره حتي ينام، في إحدي المرات التي إتخذ فيها ذلك الوضع وجدها تبكي، فسألها عن سبب ذلك، لكنها لم تجب، لكن الامر تكرر مرة أخري، حينها لم يتركها إلا عندما أسرت له بسر طلبت منه أن يخفيه عن أي احد، حتي عن أخيه الاكبر، أخبرته أنه أثناء ولادته نزل من بطنها وبصحبته أخ آخر، لكن هذا الطفل ولد ميتا، وكان من العسير عليها رؤيته يؤكل من قومه، فقامت بدفنه سرا تحت أرضية الكوخ، وحين طلب رؤية جسده أرته إياه، فوجد هيكلا عظميا لمخلوق صغير، منذ ذلك الحين، وهو عازف عن أكل لحوم البشر.

الأيام سارت رتيبة كعادتها، لا يتخللها أي شيء يغير في مجري احداثها، حتي جاء ذلك اليوم الذي إستيقظ فيه (عابد) فزعا من نومه، فقد راي في حلمه أنه جلس على كرسي محمول على الأكتاف، ومن مجلسه وجد كثيرا من الخلق إتبعوه، لم يتمكن من معرفة الوجهة التي كانوا متجهين إليها به من كثرتهم، حتي إذا وصل حافة جرف شاهق قام حاملوه بإلقائه من فوقه، فتيبست أطرافه ولم يستطع المقاومة أو التمسك بأي شيء يقيه الوقوع، فهوي إلى الأسفل، وقبل أن يلامس الأرض، وجد نفسه يرتقي إلى الأعلى، فتعالي حتي بلغ موقعا مكنه من رؤية القوم من أعلي، لينظر إليهم والإبتسامة لا تغادر شفتيه، ثم إنبعث نورا من صدره، فشمل كل أؤلئك الناظرين، إستيقظ من

نومه، فوجد أن النبض في قلبه يتسارع، قام بوضع يده على صدره في حركة لا إرادية منه، حينها إرتج هلعا مرة أخري، فقد أحس بشيء مستقر تحت يده، فأمسك به ووضعه نصب عينيه، ليجد أنه تلك القلادة المعلقة بالعقد الذي رماه مؤخرا، فأعتدل في جلسته وقد جحظت عيناه، ثم أخذ ينظر إلى القلادة مندهشا، فانقبضت جفونه وارتسمت على وجهه علامات التعجب، لم يفهم ما حدث، لقد ألقاها منذ يومان وهو غاضب، وبعد ان هدأ ذهب ليبحث عنها في اليوم الثاني لكنه لم يجد لها أثرا، وهاهو يصحو من نومه ويجد نفسه مرتديا إياها.نظر حوله باحثا، متسائلا في نفسه إذا كان هناك من يراقبه، لكنه لم يجد أحدا، إسترعي إنتباهه أصوات أتت من خارج المنزل، لقد كانت أصوات الحراس والعبيد تتداخل فيما بينها، محدثة جلبة صباحية تؤذن بالقيام من النوم، قام من مكانه وتوجه إلى مضجع أخيه فوجده نائما، أيقظه ثم توجه للخارج، ليشارك بقية العبيد في العذاب الذي استمر ليوم آخر.

لم يشغل باله أي شيء، لم يشغله وجع السوط، لم يستجب لمداعبات أخيه له، لم يجتذبه مشهد الافق، لم يتفكر حتي في ظله المهاجر، لم.. ولم.. ولم ..، كل ما ملك فكره هو ذلك الحلم الذي رآه صباح اليوم ولا يعرف له تفسيرا، وأمر تلك القلادة التي طارت في الهواء ثم حطت فوق صدره، ظل هكذا لعدة أيام يفكر ولا يصل لأي نتيجة، حتي لاحت له فكرة قرر تنفيذها، ففي إحدي المرات التي كانت مجموعة الناقلين التي ينتمي إليها تعمل في منطقة بعيدة، خلع القلادة وقام برميها -على حين غفلة من الحراس والعبيد - ثم تركها في الصحراء، لكن في اليوم الثاني إستقظ ليجد القلادة حول صدره مرة أخري، في تلك المرة إبتسم بسخرية من الموقف الذي لا زال لا يفهم له معني، وبيت النية على معاودة الكرة، فأنتظر عدة أيام أخري ليفعل مثلما فعل في المرة السابقة، وحينما إستجمع قواه لإلقائها سمع صوتا ناهرا اتاه عن قرب، يقول:

- كف عن ذلك

نظر حوله فلم يجد احدا، أصابته الدهشة لكن لم يلق لها بالا، هم مرة اخري ليلقي بما في يده، فسمع الصوت الذي بدا أكثر حدة تلك المرة، فقال:

- قلت لك كف عن ذلك.

إهتز في مكانه، وتسارعت نبضات قلبه من الخوف، فأخذ يهرول عائدا إلى زمرة العبيد، حينها رآه أخاه وقد بدت عليه علامات الهلع، فسأله

- ماذا بك يا (عابد) ؟

رد (عابد) بصوت مرتعش، زاد من تقطع أنفاسه المتلاحقة :

- هه ؟؟.. أنا.. ما.. ماذا بي ؟

- يبدو عليك الخوف.

- لا.. لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

إرتعب (عابد) مما حدث، فتنقل بعقله من فكرة لأخري محاولا تفسير الموقف، في بداية الأمر، ظن بنفسه أسوأ الظنون، فرآي نفسه مجنونا يسمع أصواتا لا وجود لأصحابها، وتطور الأمر لديه، فشك في وجود مخلوق غير مرئي يتربص به، هو من عثر على القلادة وقام بعقدها حول رقبته، ليجدها (عابد) فوق صدره حال إستيقاظه، حين دقت تلك الفكرة أبواب عقله أحس بقشعريرة إنتصبت لها شعيرات جسده، فلا توجد فكرة أكثر رعبا من الإعتقاد في وجود كيان غير مرئي يشعر الإنسان بأنه يحوم من حوله، لذلك.. عندما حلت هذه الفكرة بخلد (عابد) أحس بالخوف، وبدأ يتطلع إلى كيان عظيم لا يعرفه ولا يعرف كيف يتحدث إليه كي يحفظه، تذكر حينها تلك الأصوات المخيفة التي كان يسمعها أثناء الليل وهو صغير فترتعد لها فرائصه، حينها كان يهرع إلى أمه ليستر خوفه بين أحضانها، لكنه تذكر أيضا أنه لما كبر عرف أن مصدر تلك الأصوات هو تلك الرياح التي تهب من فترة لأخري، فتثير صوتا أشبه بصوت الصفير، تلك الذكري ألقت في نفسه بذور الطمأنينة والراحة، فهدأ روعه، بعد ذلك انتقل لفكرة إنتقاها بعناية بعد عصف من التفكير الإبداعي، وهو أن أمر الصوت قد لا يتعدي كونه محض تهيؤات

بدت له حقيقة، فسخر من نفسه، لكن ظلت فكرة إنتقال القلادة من مكان لآخر تؤرقة، حاول أن يتناسي الأمر مع الأيام، وكلما كانت تأتي تلك الخاطرة إليه ، كان يتغاضي عنها ويشغل عقله بشيء آخر يستحق التفكير، كعلو السماء، أو إتساع الصحراء، أو ذلك النجم الشمالي اليتيم الذي تعلق به.

مرت أشهر على تلك الأحداث، وفي ذات ليلة شتوية قارسة البرودة، كان (عابد) على وشك الإستسلام لسلطان النوم، فهدأت أنفاسه، وأنبسطت عضلات جسده، حينها أحس بحركة ما من حوله، وسمع صوتا بدا مألوفا له، قال له الصوت بنبرة خافتة :

- إستيقظ ..

لقد كان ذلك الصوت الذي هجره منذ فترة، عاد إليه مرة أخري، هب (عابد) من مرقده وحاول أن يوقظ أخاه ليسمعه هذا الصوت، لكن أخاه كان في حالة من الثبات العميق، تحدث الصوت مرة أخري، فقال :

- لن يستيقظ.. ولن يتمكن أحد من سماعي غيرك.

صارع (عابد) الهزال في قدميه، فإستجمع قواه ليجري خارج كوخه، لكن الصوت باغته قائلا :

- إطمئن، فأنا لا أريد بك سوءا.

حاول ابتلاع ريقه الجاف، ثم قال بصوت مرتعش :

- من أنت ؟

- أنا رفيقك ..

- أي رفيق ؟ ولم لا أراك ؟

- ليس بمقدورك رؤيتي.

- لماذا ؟

- لأن طبيعتي لا تستطيع ان تحيط بها الأبصار.

- أنت الذي جلبت القلادة لي بعدما رميتها، وحدثتني وأنا في الصحراء.

- نعم ..

- ماذا تريد مني ؟
- إريد ان أرشدك..
- لأي شيء ؟ أنا لست ضالا ..
- إذن.. لم تتفكر كثيرا في السماء ؟ لم تتأمل ما حولك وتبحث عن إجابة لكل شيء ؟ لم تبحث عن سبب وجودك ؟
- أوتعرف ذلك ؟
- بالتاكيد، وأعرف إجابات تلك الأشياء التي تسعي لمعرفتها.
- إذن إخبرني ؟ هل خلقنا لنكون عبيدا ؟
- بالطبع لا ..
- إذن فلم كل ما نحن فيه ؟
- ستعرف، ستعرف كل شيء في الوقت المناسب، لا تتعجل.
- إذن.. فما هو اسمك ؟ او بم اناديك ؟
- أدعني رفيق، ألم أخبرك أنني رفيقك ؟
- لكن لما منعتني من التخلص من قلادتي ؟
- لإنها تأشيرة نجاتك.

وهكذا تعرف (عابد) على صديقه الخفي (رفيق)، فأصبح يأمنه من بعد خوف لازمه منه، وتعددت الأوقات التي جمعت فيما بينهما، حتي لقد أصبح رفيق يصاحبه معظم أوقاته، يتحدث إليه، ويسامر معه، ويشاركه في أفكاره وحواراته، إنعكس هذا على عابد وسلوكه تجاه قومه، فإنزوي عنهم اكثر من ذي قبل، لم يشعر أحد منهم بذلك، فلطالما إبتعد عن قومه وهجرهم، لكن الأمر الجديد هو إنزواؤه عن أخيه نجد، الذي حزن لابتعاد الشقة بينهما، وقد لوحظ عابد وهو يتحدث مع نفسه كثيرا دون وجود أي شخص حوله، فأصبح معروفا بين قومه، بمجنون العبيد.

***

-١٩-

بالرغم من أن (رفيق) كان يسكت عن الكثير من الإجابات التي كان (عابد) يبحث عنها، فيثير هذا حنقا في نفسه، متعللا بأن لكل شيء وقته المناسب للمعرفة، إلا ان ذلك لم يغير من تعلق (عابد) به، فقد اتخذت علاقتهما منحنا غريبا، فنسي (عابد) كينونة هذا المخلوق الخفي، وأصبحت علاقتهما أشبه بعلاقة إنسان وصديقه، فكثيرا ما كانت الأوقات التي قضاها عابد وهو يتحدث إلى رفيق، فيضحك معه أحيانا، ويتسامر معه أحيانا، حتي أنه كانت تدور خلافات بينهما فيتشاجران، فتفتر علاقتهما بعض من الوقت، لكن لا يمر الكثير حتي يعود كلاهما لرفقة الآخر.

في أحد الأيام دار بينهما حوار جعل (عابد) يسخط عليه ويتشاجر معه، حتي إنهما ظلا أياما لا يتحدثان مع بعضهما البعض، وذلك عندما عاب رفيق تلك الفتاة التي أعجب بها عابد، فقال له حينها:

- همجية مثلهم.

- وليكن ..

- لست منهم.. ولا لهم.

- أمر بداخلي يجذبني إليها.. ثم إنني يجب أن أتخذ زوجة.

- أرضهم لا تستحق نطفتك ..

فتعارك الإثنان كلاميا، ومع أن عابد كان يعرف أن رفيق يصدقه القول، إلا أن أمر تجاهله لمشاعره كان صعبا، ولكن الهجران لم يدم طويلا، فبعد ثلاث ليال تصالح (عابد) معه، وأعترف له بأن الحق في صفه.

عندما كان (عابد) منهمكا في عمله مع زمرة الناقلين للصخور، وقع نظره على خيل من الخيول، كثيرا ما رآي الخيول يمتطيها الحراس أثناء إقتيادهم للعبيد، لكن الأمر إختلف مع هذا الخيل بالخصوص، فقد أعجبه لونه الأسود اللامع تحت آشعة الشمس، وغرته البيضاء بياض ثغر السيوف، وجد (عابد) ان الحراس لاقوا صعوبة في إقتياد ذلك الفرس، فقد كان يأبي أن يصعد فوق ظهره أحد، فاهتاج وأخذ يرفس بقدميه الخلفيتين مطيحا بمن حوله، حتي جاء ثلاثة من الحراس هجموا على رأسه وألبسوه طوق من الحبل حول رقبته، ثم أخذوا يجرونه بصعوبة، في تعاص منه ورفض للإستسلام لهم، ثم قام أحد الحراس بضربه بالسوط على ظهره، فاهتاج الفرس أكثر وأكثر، وهجم على جلاده وطرحه أرضا، ولما يئس الحراس من السيطرة عليه جاؤا بشباك ، فقاموا بتحويط الفرس بها فلم يستطع الحركة، حينها إنهالوا عليه ضربا بالأسواط وجروه إلى داخل مدينتهم، كان (عابد) يشاهد ذلك المشهد بأسي، حتي قاطع (رفيق) تأمله قائلا :

- متأثر أنت لحاله ..

- أنظر، حتي ذلك المخلوق المسكين، لم يسلم منهم.

- أعجبك ..

- إنه جميل جدا.

- برق ..

- لا أفهمك.. !!

- أسرع من خائنة عينيك.

لم يكن مقدرا في ذلك اليوم حدوث غير ما حدث، إذ إجبر العبيد على العمل ليوم ثالث متواصل أثناء ليل قارس البرودة، في تلك الليلة تكدرت السماء بالسحاب الضبابي المحمل بقطرات الماء المسجونة، والتي تشاحنت فيما بينها تريد تحطيم تلك الجدران التي طالت مدة حبسها بها، إنها لم تخلق لذلك، لقد خلقت من أجل الحرية، فأخذت تدق قضبان السجن لكسر قيدها في

محاولات بدت شبه مستحيلة، لكن ذلك لم يثنها عن الصراع من أجل نيل حقها الممنوح من سماء عليا فوق تلك السماوات الدنيا، فتكررت محاولاتها عسي أن تحصل على ذلك الحق المسلوب، نتج عن هذا تلك الشرارات البرقية التي كشف تلك الإرادة المكبوتة، فأعلن الرعد عن إقتراب أمل منشود، تزامن ذلك و أجهاد العمال من ذلك العمل المتواصل ليل نهار، وزاد الأمر سوءا ذلك الطقس السيء الذي ألم بالمكان، فإذ برجل طاعن في السن يصيبه الإعياء وتنتابه غيبوبة تجعله يفقد توازنه، حينها إجتمع حوله ثلاثة من الحراس الذين راحوا يركلونه بأرجلهم ويضربونه بأسواطهم بشدة كي يقوم ويواصل عمله، إلا أنه بقي على حالته دون حراك، فراحوا يزيدون في تعذيبهم له، وسط ضحكاتهم التي سخرت من هذا العبد الضعيف، في ذلك الوقت كان باب السجن يوشك على الإنفراج، فعلا صوت الدق أكثر وأكثر، حتي إذا كانت مرة بعينها، إذ سمعت قعقعة مدوية كادت أن تذهب الأسماع، تحطم على إثرها ذلك الباب الموصد بإحكام لتنهمر قطرات السيل العلوي ثائرة بعدما وجدت حريتها، فهطلت على رؤوس الظلمة والمظلومين دون تفريق، أثناء ذلك كان الحراس لايزالون تحت رحمة تلك الحالة الهستيرية التي تملكتهم، فجعلتهم يمعنون في ضرب ذلك الرجل الهزيل الذي أصبح جثة هامدة من جراء ما حدث له، وبدون أية مقدمات، إذ فجأة يداهم احد الحراس بقبضة تلكم وجهه، أتبعها ركلة أطاحت به في الهواء لثلاثة أمتار إلى الوراء، ولم ينتبه الثاني إلا لضربة في بطنه طرحته أرضا من الإعياء لشدة قوتها، أما الثالث فلم يكد يرفع بصره حتي وجد خنجرا مرشق في صدره، لقد إنتشله (عابد) وآخر من ذلك الحارس الذي وقع على الأرض، كل هذا يحدث أمام العبيد الذين أصابهم الذهول فجعلهم يتجمدون في أماكنهم، في حين أطلق (عابد) العنان لقدميه وراح يجري بأقصي سرعة ممكنة، وقتها كان أحدهم ينظر إليه من بعيد متهللا، لقد كان (نجد) يشاهد اخاه وهو يركض، فتهللت أساريره رغم خوفه على أخيه، الأمر الذي جعله يقول له بصوت خافت :

- إركض يا عابد، إركض إلى حريتك.
لم يستطع أحد إيقافة، فما أن يلاقيه أحد الحراس في طريقه محاولا الإمساك به إلا ويجد نفسه مصروعا بين يديه، لم يدر (عابد) بما يحدث إلا عندما وجد نفسه محصارا في ذلك المكان لا يعرف ماذا يفعل أو إلى إين يذهب بفعلته، حينها قال (لرفيق) :

- ما الذي دفعتني إلى فعله ؟
- جعلتك تتحرر ..
- وماذا بعد ؟ أنا لا أدري ماذا أفعل.
- إتجه لأسوار القلعة.
- قلعة السادة ؟ أذهب للأسد في عرينه ؟
- سيكون اكثر امانا لك.. ثق بي.
- ولماذا لا اتجه إلى الصحراء ؟
- عندها سيلاحقونك بالخيول، ولن تستطيع حينها الإفلات منهم.

تلاحقت أنفاسه المستعرة، وتدفق الوقود في قلبه فشحن جسده بقوة لم يعهدها من قبل، وصل إلى القلعة، لكنه لم يعرف كيف يتسلق السور، لكن فكرة ما واتته فقام بتنفيذها على الفور، إستخدم تلك الخناجر التي إنتشلها من الحراس كوسيلة للصعور على السور، فقد لاحظ وجود تلك الفواصل بين كل حجر من احجار السور وبين الحجر الآخر الذي يليه، فرشق أحد خنجريه في ذلك الفاصل وقام برفع جسده لأعلي، ثم رشق الآخر بيده الأخرى في فاصل ذي درجة اعلي ليرفع نفسه ثانية، وهكذا أخذ يفعل بسرعة حتي تسلق السور بأكمله، ساعده في ذلك خفة وزنه وحركته الرشيقة، فجعلته يستطيع أن يصعد بسهولة ويسر، حتي إذا ما وصل إلى قمة السور، وجد أحد الحراس وقد أعطي ظهره له، فأقترب منه (عابد) في هدوء يشبه هدوء الثعابين، ثم إنقض عليه وقام بذبحه فمات على الفور، عند ذلك أخذ ينظر من مكانه للأسفل من ناحية داخل القلعة، فرآي كومة من القش موضوعة

في الأسفل، فقرر القفز من مكانه ليهبط عليها بسلام، فلا توجد امامه طريقة أخري للتخفي عن أعين الملاحقين، وبالفعل.. قفز بعد مصارعة ذلك الخوف الذي بداخله من الإصابة بسوء قد يصيبه جراء تلك القفزة، والتي من الممكن أن تودي بحياته.

حط بين أحضان القش الذي حفظ له ما تبقي من سنين عمره، ثم قام ليجد نفسه وحيدا في تلك القلعة، فلا يوجد شخص غيره تراه عيناه، جميع سكانها إلتجأوا إلى بيوتهم للإحتماء من هذا القطس السيء، لقد كان رفيق على حق عندما أرشده إلى هذا المكان.آذناه لم تستطيعا أن يتبينا أي شيء سوي أصوات الطبيعة التي سيطرت على الأسماع، والظلمة الحالكة جعلته يتخبط في ذلك المكان الغريب التي لم تطأه قدماه من قبل، لذا فقد بدأ يسير على إستحياء والخوف يرجه رجا، مستترا من أي شيء مجهول قد يباغته.سأل (رفيق) قائلا :

- ماذا أفعل الآن ؟
- إتسمع ذلك الصوت ؟
- أي صوت ؟
- صوت لا يمت بصلة لأي شيء من حولك.
- أنا لا أستطيع سماع أي شيء.
- إجهد نفسك قليلا لتتبينه.

حاول (عابد) الفصل بين الأصوات المحيطة بعناء، فأغلق عينيه حتي لا يتشتت تركيزه، وبعد ثوان إستطاع أن يتبين صوت لا ينسجم وذلك الجو، لقد كان صوت لهمهمة متكاثرة، حاول تتبعه كما نصحه (رفيق)، فراح يمشي في أزقة وحارات مظلمة إكتظت بحوانيت ودكاكين وخلت من أي مخلوق، وفجأة سمع صوت حركة لأقدام تحط على الأرض بسرعة، صاحبها صوت رجل أخذ يصرخ وينادي بعلو صوته، لم يفهم (عابد) معني كلامه فقد كان بلغة غير لغته، كانت لغة السادة والتي كانوا يستخدمونها فيما بينهم، اما

أثناء التعامل مع العبيد فقد كانوا يستخدمون لغة العبيد، لم يهتم لذلك، فمخاوفه من أن يراه ذلك الرجل كانت أكبر، فاخذ يبحث حوله عن مكان يختبيء به، فوجد طاولة خشبية إرتكزت اطرافها الثلاث فوق ثلاثة رقع خشبية أخري بزاوية تسعين درجة، فاسحة المجال كي يملأها الفراغ من الداخل، فإختبأ تحتها وراح يتلصص عما يحدث، فوجد أن احد الحراس قد جاء ليقابل آخر حضر على الفور إستجابة له، إستمع لحديثهما الغريب لكنه لم يفهم منه شيئا، ولكن لغة الجسد أبلغ من أي لغة، إنها لغة كونية لا تحتاج إلى التعلم، فهي علم فطري يغرس في الإنسان وقت ان وجد، ولذلك، فقد فهم عابد ما يحدث أمامه دون عناء، فحركة الحارسين، وتلك الحالة التي تملكتهما، جعلتا (عابد) يستنبط أنه محور الحديث، فالحارس الأول أخبر الآخر عن ذلك العبد الذي قتل وهرب فأختبأ في القلعة، أتبع ذلك صيحات فهم (عابد) منها انها نداءات تحذير لأهل القلعة من ذلك الغريب الذي إقتحم دارهم، وتملك الخوف من عابد لذلك، فقال (لرفيق) بصوت خافت:

- كيف ساذهب إلى ذلك المكان ؟
- إنظر إلى ذلك الرجل.
- أي رجل ؟
- هذا الذي يسير عن بعد.

نظر (عابد) من وراء الجدار الخشبي، فوجد رجلا يسير وحيدا، إرتدي ملابس غير تلك التي للحراس، فقال :

- إنه لا يرتدي زي الحراس.
- إقتله، وأرتد زيه.

إنتظر (عابد) ذلك الرجل حتي يكون قريبا منه، وحينما أصبح في مرماه ، إنقض عليه وكتم أنفاسه ثم قام بذبحه، وبسرعة فائقة، قام بنزع ملابسه عنه وأرتداها، ثم خبأ الخنجرين تحت ذلك الزي، فقال له (رفيق):

- لا تخف الآن، فقد أصبحت واحدا منهم.

عندها هدأت روعة (عابد) قليلا، وسار في طريقه نحو ذلك الصوت الهامس، متتبعا إياه.

إن كثيرا من الصفات والقدرات التي للإنسان، تبقي كامنة لزمن طويل قيد الخفاء، فلا يعلمها أحد، لا يعلمها هو نفسه، ولكن.. تأتي الأوقات الصعبة، تلك الشدائد المهلكة، فتزيل ذلك الغبار الذي كان يستر تلك الصفات الرائعة، وكأنها نسائم كاشفة، فتظهر للإنسان الكثير من الأسرار التي غابت عنه وتسكنه، فينبهر لذلك، ويبدا في التعرف على نفسه من جديد، كأنه شخص آخر، لم يعهده من قبل، ولذلك، فعندما هدأ (عابد)، بدأ يتفكر في أشياء كثيرة لم يكن يتوقعها، تلك القوة التي وجد نفسه يمتلكها، لم يكن يتصور من قبل أن بمقدوره فعل ما فعل، لقد تعارك مع بعض الحراس وصرعهم، قوته مكنته من ذلك، سرعة ركضه التي جعلت الحراس لا يستطيعون اللحاق به، مهارته في تسلق الأسوار، سرعة إستجابة عقله، وفوق كل هذا، هو أنه الآن في قلعتهم التي ما كان ليتخيل أنه يوما ما سيسير بداخلها وهو آمن، لا يخاف مثل بقية أهلها من ذلك العبد الهارب، والذي إنتهك حرمة القلعة.

***

obeikan.com

-٢٠-

كادت أصوات الخوف تطغي على بشائر الإطمئنان في قلبه، فبالرغم من أن هيئته الجديدة لم تثر أي شك - ومن المفترض انها بعثت نوعا من الشعور بالأمان بداخله - إلا أن ضربا من الخوف يتسلل إلى أطراف أي شخص، يسعي إلى التخفي بين حفنة من الناس لا يمت لهم بأي إنتماء ولا أي صلة، شعور إنساني طبيعي يجتاح المرء، وفي حالته الأمر واجب، فشخص مثله هارب، مقتحم، قاتل، غريب عن هؤلاء البشر الموجودين على صفحة أخري من الأرض، لكن هدوءا إستشعر عبقه بين أضلعه جعله متماسكا، فمن تحت ذلك الغطاء القماشي الذي غطي رأسه وحدود وجهه، تطلعت عيناه اللتان تعلقتا بالسماء وأستنجدتا بها، وشرع قلبه في صلاة لا يعرف تفاصيلها ولا معانيها، إنها صامتة كرجل أخرس مغشي عليه، كلمات أرادت أن تخرج إلى الحياة مستقلة لسانه، لكنها لم تجد منفذا لها من أسوار جهله، وبحركة لا إرادية منه شبك بين أصابعه، وأغلق عينيه الناظرة إلى السماء، واستنشق حفنة من الهواء وزفرها، صاحب ذلك شعور بالراحة والمعية من كيان هو مجهول بالنسبة له، وترك نفسه تحت رحمة قدميه اللتين إنقادتا تبعا لتوجيهات آذنيه.

تحدث (رفيق) معه، فأحس بشيء من الونس، إلا أنه لم يقابل حديثه بالرد، لقد كان مشغولا بوضعه الحالي، وروحه كانت معلقة بين السماء والأرض، وأثناء سيره وجد أن الدنيا ترتبك من حوله، فقد إستيقظت المدينة على

فزع أصابها، ورأي رجلين قادمان قبالته، كانا يتحدثان بلغتهم الخاصة التي لايفهمها، وكانت ملابسهما تحمل طابع الجنود والحراس، هم أحدهم بالإقتراب منه فأحس حينها بإنقباضة في قلبه وإرتعدت فرائصه، إلا أن الآخر جذبه بعدما نهره وواصلا طريقهما، لم يفهم (عابد) ما حدث، لكن رفيق تحدث وقتها فقال :

- عابدا ..
- ماذا ؟
- إعتقدوك عابدا.. فتجنبوك
- ظننت أنك تناديني.. لم تقل لي، ما تلك الأصوات ؟
- الأعور المنتظر ..
- أعور ؟
- صلوات تدعو ليقترب ظهوره ..
- كعادتك.. تتركني معلقا ببئر من الأفكار.
- إنك دوما تتعجل الأمور ..
- اقتلني أو إتركني حيا.. لا تدعني مكلوما بجرح أصارعه طلبا للحياة، أو أناجي به الموت.
- ....
- أعلم ، ستحتفظ بصمتك.
- أنت تعلم، ليس بمقدوري إلا إرشادك.

وجد (عابد) نفسه امام بناية عظمي، تلك التي بدر منها صوت الهمهمات، إختلفت عما حولها من الأبنية، فعلي قمتها رأس هرمي منير وبواباتها واسعة، يدخل ويخرج منها الكثير من الخلق الذين إرتدوا مثل عباءته الزرقاء، قرر الدخول إلى تلك البناية، فسار في ممرها الطويل المزينة جدرانه برسومات تداخلية لم يفهمها، تملكه الإعجاب والتعجب مما رآه، حتي إذا إنتهي الممر، وجد نفسه في ساحة كبري حوت الكثير والكثير من الخلق الذين سجدوا

على الأرض، مترنمين بألحان حسنة الوقع على المسامع، تبين له أنها نوع من الإستنجاد، إقترب منهم، قاموا من سجدتهم ورفعوا إيديهم إلى السماء ثم إنكبوا ساجدين مرة أخري، لم يستطع مجاراتهم في حركات لم يفهم معناها، فأكتفي بالمشاهدة فقط، ذهل من ذلك المشهد المرتب والذي لا يتخلله القصور، الكل في توافق وإنسجام سواء في الكلام أو الحركات، لكنه ظل على سلبيته المختارة التي قاطعتها يد إستقرت على كتفه الأيمن، فنظر خلفه مرتجفا ليجد رجلا ذا ملابس مثل التي له، لكنها تحتوي على الكثير من الزينة، وجه إليه كلاما لم يفهمه، نظر إلى عينيه مباشرة ثم توقف عن الكلام وجحظت عيناه فجأة، فأنزل يده ببطء وقبض على رسغه وصرخ بأعلي صوته بكلام إنتبه الجميع له فتوقفوا عن صلاتهم، حينها فهم (عابد) ان أمره قد كشف، فلكم هذا الرجل لكمة قوية طرحته أرضا، وركض بسرعة هاربا من تلك الساحة التي إعتراها الهرج وأمتلأت باصوات المحذرين، واتجه الي تلك البوابة التي ولج منها، لكنها كانت قد أغلقت فور وصوله إليها، راح يبحث عن منفذ آخر يهرب منه لكنه لم يجد، وجد ممرا من الممرات فقرر أن يسلكه، وفعل.. صارعا بخنجره أي شخص يحاول إعتراض طريقه، حتي إذا ما وصل إلى إحدي الغرف التي بآخر الرواق، دخلها وأغلق بابها وراءه، ثم وجد بها هيكل خشبي قائم فطرحة أرضه، وجره ناصبا إياه أمام الباب، ليعوق أي شخص يحاول إقتحام الغرفة، حينها سمع صوت صريخ لإمرأة أتي من ورائه، فألتف بجسده، ليجد أمامه فتاة واقفة وراءه وضعت يداها على فيها فلم يبد منها غير عينيها الجميلتين، كانت ترتجف من الخوف، أشار إليها نافيا بيده محاولا إفهامها أنه لا يريد بها سوءا، إلا أنها ظلت ترتجف من الرعب، ألهاه أصوات الطرقات التي سمعها تأتي من خلفه، والتي أوحت له أن جمعا من البشر يحاولون إقتحام المكان للنيل منه، حينها أنزلت يديها رويدا رويدا، فأفصحت عن أجمل مخلوق رأته عيناه، تسمر في مكانه، وأنساه جمالها كل قلق وفزع يشعر به، وقطعت تلك اللحظة بصوتها الناعم وهي تقول:

- من انت ؟

فرد عليها متعجبا :

- تتحدثين لغتي.. لا أريد بك سوءا.

تقدم نحوها لكنها ابتعدت، فتراجع على الفور ثم قال :

- إنهم يريدون قتلي.. كل ما في الأمر أنني صرعت رجلا منهم قتل أحد إخوتي.

أحست بنوع من الشفقة في قلبها نحوه، فاقتربت منه وأمسكت يده بيديها البضة، وجذبته قائلة:

- تعال معي ..

هرولت به نحو باب يؤدي إلى ممر سفلي طويل، سيطر فيه الظلام على كل شيء، سألها:

- إلى إين سنذهب ؟؟

- يجب عليك الهرب ..

- إلى إين ؟؟

- إلى الخارج.. بعيدا عن تلك المدينة، بعيدا عن العبيد، إهرب إلى قلب الصحراء.

رغب في أن يسألها عن شيء لكن الطريق الذي يسير به شغله، حاول الإبطاء من سرعته التي لن تستطيع أن تبلغها ليواكب سرعتها، إنها مرشده الآن وهاديه إلى سبيل النجاة، وواجب عليه أن يتبعها وليس العكس، وبعد مسيرة ليست بالطويلة وجد نفسه يخرج إلى وجه الأرض في منطقة خالية، لم تتوقف وظلت تجري به مسرعة، فقال لها :

- لازلنا في المدينة.. اليس كذلك ؟

- إننا نتجه إلى ... إسكت قليلا، ألا تستطيع السكوت ؟

خجل من نفسه وأتبعها صامتا، ظلا يجوبان مناطق متفرعة وترشده هي إلى مناطق خلفية خاوية من الناس، حتي وصلا إلى منطقة مظلمة كان بها مشكاة تضيء المكان، تمكن من رؤية سور خشبي يحيط بكائن غريب لا

يحب الإستقرار، لم يتبين ملامحه إلا عندما إقترب منه، فأطلق ذلك الكائن حمحمة تدل على إستئناسه بالغريب، حينها قال (عابد) متفاجئا :

- برق !!

- أوتعرفه ؟؟

- لا، فقط.. إنني، هل يدعي برق ؟

- نعم، إمتطيه، وامض هكذا.

وأشارت بيدها نحو الجنوب ثم واصلت :

- سيعتقدون أنك من الكهنة بتلك الملابس وانك خارج للتأمل فلن يمنعوك من الخروج، فلتأخذ حذرك.. إنه لا يهدأ.

قالت ذلك قاصدة الجواد، فسألها (عابد) بتعجب :

- لماذا ؟؟ لماذا تساعدينني ؟

- لا يوجد وقت لذلك ..

- إنني لا أنتمي إليكم، إنك لا تعرفينني، لقد كان الخوف يعتريك مني منذ قليل.

قال (رفيق) :

-ولا هي.

تجهم (عابد) من مقولته، أما الفتاة فنظرت إلى عيني (عابد) مباشرة وقالت له :

- لا يوجد تفسير، ليس لدي، كل ما أعرفه أن عينيك بهما شيء يجبر نفسي على فعل ذلك، قوة ما لا أستطيع أن أفهمها، ولا أستطيع دفعها عني.

- تعال معي ..

- كم أود لكن لا أستطيع.

- ستكونين في خطر.

قال (رفيق):

- ليس عليك ..

- أصمت أنت.

فوجئت الفتاة به يتحدث مع طيف لا تراه فأرتجفت، ولما أحس منها بالخوف قال لها :

- لا عليك.. إنه خاطري

- إذهب الآن.. أرجوك.

غرق في بحر لم يختبر أمواجه من قبل، فتراجع خطوات إلى الوراء وعيناه لا تقدر على فراق عيني الفتاه، ثم قفز من فوق السور الخشبي الذي يحيط بالفرس، فهدأ روع الفرس عندما إقترب منه، فامتطاه بيسر وسهولة، وما أن ثبت على ظهره حتي إنطلق محطما تلك الأسوار التي كان سجينا لها، فذهب (بعابد) بعيدا، وتلاشت صورة الفتاة من أمامه.. شيئا فشيئا.

***

-٢١-

أوشك الفجر على البزوغ، متزامنا وذلك الشعور بالحرية الذي بدأ يشع في قلبه، ورغم هيمنة الغبار، إلا أنه إستطاع أن يري ما حوله جليا وواضحا لأول مرة، فبدأ ينظرلكل شيء تقع عليه عيناه بمنظور جديد، كأنه طفل حديث الولادة يكتشف معالم هذه الدنيا التي أتي إليها غريبا، صوت أقدام ذلك الفرس التي تتابعت فأطربت مسامع قلبه، الرمال المتراقصة في عباب السماء، والتي تتمايل تبعا لصفير الرياح الناعم، المتغني، برودة الهواء التي أثلجث تأجج مشاعره المحترقة، النجوم المتناثرة في بحر علوي أبهت السواد، الكوكب الشمالي الذي بدا متألقا، كان يشع نورا على غير عادته كأنه مسرور لتخلص الأسير من قيده، جعله هذا الجو الهاديء يحظى بشيء من صفاء النفس، فحصل على فرصة للتفكر في تلك الأحداث السريعة والمتتالية التي حدثت في الليلة الماضية، إن عقلا مثل الذي له لا يهدأ أبدا، فغرق بين أمواج من التساؤلات المحيرة التي إجتاحت أسوار لبه، كيف حدث ما حدث ؟ لم ساعدته الفتاة ؟ ما هذه الصدفة التي جعلته يلتقي والفرس مرة أخري ؟ ولم كل هذا يحدث له بالذات ؟

السرعة كانت أمرا ثانويا في رحلته، فقد كان (برق) كان سريعا إلى الحد الذي جعله يسلك مساحات شاسعة في وقت قليل، إنه برق بالفعل، الأمر الذي جعل (عابد) يشعر باليد الناعمة تقبض على صدره بقوة من فرط الخوف، هذا إلى جانب تلك النبضات المتلاحقة والتي شعر بترددتها في أعلي ظهره، احس بنوع من القوامة في ذلك الموقف، فكان عليه بعث الطمأنينة في قلبها،

فقبض على يدها المتشابكة حوله بيده اليمني وقال لها مطمئنا :

- لا تخافي ..

الحياة أحداث عابرة تتوالي حتي الموت، والكيان الإنساني يتشكل بناءا على تلك الإختيارات السابقة التي يختارها بمحض إرادته، والتي يرد مرجعها إلى تلك الأصوات المتداخلة داخل النفس البشرية، ولا يعلو أحدها إلا بذلك البوق الخفي الذي ينتقيه الشخص عن قصد، والذي يتناسب وهذا الصوت المراد علو تردده في النفس، فمن الناس من يختار بوق الخطر والخوف ويستجيب له، ومنهم من يفضل بوق السلامة وإيثار النفس، أما من إختار أن يكون إنسانا بحق، فإنه لا يستجيب إلا لصوت الأخلاق والفضائل، فيختار بوقا يتناسب مع ذلك الصوت ليزيد من وقع تردده بداخله فيرضخ جميع حواسه وجوارحه لتلك الحمائد، وهذا كان إختيار (عابد)، لقد إختار أن يكون إنسانا، عصي كل أوامر النقص بداخله وأستجاب لطلب المحاسن، فبرغم خطورة الموقف وصعوبة القرار، عاد أدراجه لينتشل تلك الفتاه التي كان مصيرها مجهولا بعد مساعدتها له، لقد كان من الأفضل له أن يموت وهو يحاول إنتشالها من القلعة على أن يتركها وحيدة تواجه مغبة إحسانها له، نعم.. عاد وأصطحبها معه، جعلها تمتطي (برق) من ورائه، خبأها تحت ردائه الذي كان فضفاضا بالقدر الكافي ليسترها عن أعين الحراس، وخرج معها بسلام من البوابة الخلفية للقلعة، ثم أطلق العنان لبساط الريح تحت غطاء الليل المظلم الذي عم الدنيا بأكملها.

أذهلته سرعة (برق) الفائقة، فقال له رفيقه:

- ما رأيك به ؟ إنه يطوي الأرض طيا.

رد عليه بصوت مسموع :

- أشعر بأنني ذرة في مهب الريح.

- إنك تسير على الدرب الصحيح ..

- لست سوي مجنون ينصت إلى نصائح طيف.

سألته الفتاه :

- أتحدثني ؟

رد (عابد) عليها :

- الحديث ليس لك ..

قال (رفيق) :

- لست بمجنون، إنك تتخد قرارات صحيحة.

- إن عقلي لا يستطيع أن يحيط بكل تلك المصادفات.

تساءلت الفتاه:

- تحاور خاطرك.. ؟

قال (رفيق) :

- ليس مقدرا للصدف أن تخطو خطوة فوق أرض الوجود

- فقط أفهمني، أنا لا أفهم شيئا، رغم ذلك.. فإني مغمور بالسعادة لحصولي على حريتي، لقد أصبحت حرا.

- أنا لا ألقي بك إلى التهلكة.

- تكون محقا.. في كل مرة.

- بالطبع.. ألا ينمي ذلك براعم الثقة في نفسك تجاهي؟

- لست أدري بالفعل من منا تابع من.

- لست سوي مرشد، والقرارات تكون بيدك أنت.

- متأكد من ذلك ؟

- لا ينتقص من قدر الأمير الأخذ بمشورة وزيره.

وتوقف الحديث، ليستكمل (عابد) مسيرته في التفكير الصامت الذي إستمر طيلة الرحلة، ظل يسأل نفسه إلى إين هو ذاهب، وماهو مصيره، ماهي حدود هذا العالم الذي يحتويه، وبعد وقت طويل مر إثناء تلك المسيرة، اشتدت برودة الجو، وأحس (عابد) بعاصفة ترابية توشك أن تهب عليهم وتطيح بهم، إلا أنه تمكن من رؤية كهف يقع على إمتداد بصره، فتوجه

نحوه مسرعا كي يحتمي بداخله من مهبة تلك العاصفة المحتملة، وعندما وصل إلى مدخله، نزل من على صهوة فرسه وأنزل الفتاه، ولما كان الظلام بداخل ذلك الكهف يثير ذعر الفتاه، فقد قام)عابد(بطرق بدائية بتوليد نار للإضاءة والتدفئة، حتي إذا ما طاب الوضع تمددت الفتاه بالداخل، أما) عابد(فق] تمدد على الأرض وقد أعطي ظهره لها حتي لا تشعر هي بالخجل، وأبقي عينيه على مدخل الكهف، ظل الجو محفوفا بالصمت حتي بدات هي الكلام، فقالت:

- قلت لي أنك قتلت أحد الحراس.

- لم يكن حارسا واحدا، بل ثلاثة.

تعجبت، فقالت :

- قتلتهم وحدك ؟

- لقد كانوا يعذبون ذلك العجوز المسكين، ظلوا يضربونه حتي مات.

- الم تشعر بالخوف ؟

- بلى.. شعرت.

- إذن لماذا ؟

- لماذا ماذا ؟

- لماذا لم تستجب لخوفك.

- لأنني إخترت ألا أنصاع إلا لغضبي، لقد كان يحرقني حرقا.

- حدثني عن خاطرك ذاك.

- إنه خاطر.. مجرد خاطر، يخبرني عن أشياء لا أفهم معظمها، أخبريني أنت.. كيف عرفت لغتي ؟

- يعلموننا إياها منذ الصغر.

تعجب (عابد) ثم قال:

- ولماذا يفعلون ذلك ؟

- يقولون إنه يجب علينا معرفة لغة العبيد.

Opeikan.com

- لازلت لا أفهم سبب مساعدتك لي، شخص غيرك كان سينتهج منهجا آخر في التعامل معي.

- معك كل الحق، لكنني كنت دوما أشعر بغربة بين قومي، كان ينتابني السخط وعدم الرضا عما يحدث لكم.. للعبيد، نشأتي التدينية جعلتني أري في هذا عصيانا ومدعاة لغضب الإله.

- إله.. أي إله؟

- خالقنا وخالق كل شيء.

- إين هو ؟ أنا لا أراه ..

- موجود في قلبي، في قلبك، في كل مكان في هذا العالم.

- الأعور المنتظر الذي تعلو الصلوات باسمه الذي لا ينطق !!

- لا.. ليس ذاك.

- فمن ذلك الأعور إذن؟

- إنه إله مدعي، رسول من المستقبل ينتظره بني ديانتنا، سيجعل أمتنا تستحوز على العالم وتسيطر عليه، ولكن بالظلم، فسوف تكون لنا السيادة العليا على العالم، أما بقية البشر فسيكونون عبيدا لنا.

- وأنت مثلهم.. تنتظرينه.

- لا.. إن المتدينين منا لا يفعلون، لكن أولئك الذين سلكوا طريق الظلام يفعلون، وهم الأكثرية، والمسيطرين على أمورنا.

- والمتدينون منكم؟

- قليلون وبلا حيلة، يعيشون في الخفاء، مستترين بين الأكثرية من المنتظرين للأعور، خائفين من بطشهم.

- وأنت ؟

- أنا واحدة منهم.. من تلك القلة.

- أخبريني عن إلهك خالق كل شيء.

- قل لي أنت، لم عدت لتأخذني ولم تهرب ؟

- إخترت أن أستمع لقلبي.

- وماذا قال لك قلبك؟

- قال لي لا تتركها.

إبتسمت دون أن تعقب، فسكتت للحظات، ولما همت بأن تتحدث مرة أخري أحس (عابد) بذلك، فقاطعها قائلا لها :

- إنتظري ..

كانت الرياح قد سكنت متيحة للهدوء بان يعم المكان، فبلغت مسامع (عابد) حركة طفيفة تأتي من خلفه، فقام من مكانه ممسكا بحجر وألتفت نحو الفتاة، التي بدورها فوجئت بما يحدث، همت بالحركة، إلا أنه أشار لها قائلا :

- إسكني مكانك، ولا تتحركي.

إقترب منها ببطء ففزعت منه، لقد ظنت منه السوء واحس هو بذلك، فقام بحركة سريعة جعلتها تنتفض من مكانها، في حين أنه ضرب رأس تلك الحية التي كانت على وشك ان تلدغها، وما أن تأكد من موتها حتي أمسكها وقام بفصل رأسها عن جسدها، ثم بدأ يسلخ جلدها ليأكلها، فما أن قضم منها قضمة حتي قالت الفتاه :

- بالرغم من ذلك.. إلا أن بك شيئا من الهمجية.

- كان يجب عليك أن تتذوقي لحم البشر الأموات لتعرفي ان ذلك أقل همجية.

- ماذا ؟

- أولا تعرفين ؟

- أعرف ماذا ؟

- إن قومي معتادون على اكل لحوم امواتهم، ولقد عزفت عن ذلك، فأستبدلت هذا بذاك.

- ولماذا لا تأكلون لحوم الحيوانات.

obeikan.com

- إنها لكم، لا نحظي منها سوي بالوبر من اجل الإحتماء من البرد.
أحست نحوه بالشفقة، فقالت :
- إعذرني.
- لا عليك.. من الأفضل لك ان تنامي الآن، فالشمس توشك ان تسطع، وأنا أخاف عليك حرها الذي لا يرحم، سننتظر حتي تبدأ تخبو، من ثم نتحرك من هنا.
- إلى إين ؟
- لا أعرف.. لكني أثق في خاطري.
سكت الإثنان، وعاد (عابد) إلى مكانه الأول ليتخذ وضعيته السابقة، فأرخت الفتاة يدها التي كانت تسند رأسها عليها وعلي شفتيها إبتسامة مضيئة، وقلبها يشعر بالأمان والإطمئنان، أما هو، فقد أحس بأنامل من الرقة تداعب مهجته، فأبتسم هو الآخر، حاول أن يخلد للنوم بعدما إنتهي من طعامه المقوي، فالأيام الماضية كانت شاقة عليه، وجسده يريد النذر القليل من الراحة ليواصل رحلته التي لا يعرف وجهتها، لكنه لم يستطيع النوم، فقد تفكر في حالة تلك الفتاة التي ستصحو على جوع يفتق أحشاءها، فقرر أن يخرج من الكهف بعدما تأكد من عمق نومها، وأمتطي (برق) باحثا عن زرع صحراوي قد يصلح للأكل.

....

عاد (عابد) إلى الكهف بعدما عثر على بقعة في الصحراء بها الكثير من جذوع النخل المزروع، فتسلق إحدي الجذوع وأقتطف البعض من ثمار التمر النابتة بها، إعتقد ان الفتاة ستفرح لرؤية هذا الصنف من الطعام لأنه قد يتوافق وشهيتها، لكن المفاجأة صدمته عندما خطا بقدمه أعتاب الكهف، ووجد أن الفتاة لم تكن موجودة به.

****

٢٢

على الفور .. إمتطي (عابد) صهوة جواده، عازما البحث عن الفتاة في تلك الصحراء الواسعة، فانطلق (برق) بأقصي سرعته شاقا أمواج الهواء المتلاطم، لم يتخيل (عابد) حدوث ما حدث، فقبل أن يتركها كانت تغط في النوم في ذلك المكان كالطفل الوديع، ثم هي الآن ليست موجودة به، فما الذي حدث ؟ هل تركت المكان وفرت منه ؟ لماذا ؟ هل يمكن أنها خافت من همجيته عندما قتل الحية بوحشية امام عينها ؟ ثم زاد خوفها عندما أخبرها عن عادة العبيد في أكل لحوم البشر ؟ لا.. بالطبع لا، لقد كانت مطمئنة له وأسلمت نفسها للنوم وهي بصحبته، من الممكن أنها لم تكن نائمة وتصنعت النوم، ولم تفعل ذلك ؟ لم تشرع في فعل ذلك من الأساس ؟ إنها هي التي ساعدته على هروبه، ساعدته حتي بالرغم من انها عرفت انه قتل أحد الحراس المنتمين لبني جنسها، ثم إنها أخبرته انها من الأقلية التي تعبد الإله، تلك القلة التي تخشي من فتك هؤلاء أتباع الأعور المنتظر، لا.. إنها لم تهرب، إنها في خطر، لكن ما هو ذلك الخطر ؟ هل هو حيوان متوحش حاول الهجوم عليها فهربت منه ؟ أو من الممكن أنها أصبحت فريسة له بالفعل فقام بقتلها ؟ أو لعل مخلوقا خفيا إختطفها إلى عالم سفلي، او أن زمرة من البشر ساكني الصحراء قبضوا عليها وأرادوا بها سوءا ؟ هل يوجد من الأصل بشر يسكنون الصحراء غيرنا، السادة والعبيد ؟ السادة.. لعل بعض حراسهم إكتشفوا مكانها وألقوا القبض عليها، عصفت الألغاز التي لم يجد لها حلا بذهنه، لم يعرف إجابة لأي سؤال سأله لنفسه، حاول الإستعانة برفيقه فأخذ يناديه ويصرخ مستنجدا به، لكن يبدو أن صديقه قد تخلي عنه، لم يعرف إلى إين يذهب أو ماذا يفعل، فترك العنان لفرسه يقوده حيث يشاء.

رغبته في إيجاد الفتاة لم تكن رغبة إنسان يسعي لانقاذ أخيه الإنسان، على

الرغم من ان ذلك قد إحتل حيزا في نفسه، إلا أن ذلك لم يكن الدافع الأساسي له، لقد أحس نحو الفتاة بشيء من الحاجة، شيء من الراحة والألفة، مشاعر لا يفهمها داعبت قلبه لأول مرة في حياته فجعلته يهتاج كالأسد الضاري عندما ينتشل منه شيء خاص به، صدره إشتعل كما لم يشتعل من قبل، وقوته تضاعفت أضعافا مضاعفة، وتملك حسه وفكره شيء واحد، هو انه يجب ان يجد الفتاه.

قال لنفسه أنه ربما لم تبتعد كثيرا عن هذا المكان، فغيابه عن الكهف لم يطل، ومن المرجح أنها في بقعة ما بالقرب من ذلك المحيط، فاخذ يدور ويدور بفرسه مستطلعا المكان برمته، حتي إذا ما اقترب من تلة ما من الرمال إشتم رائحة لم يعهدها من قبل، لقد داعبت خياشيمه لأول مرة في حياته، كان بها شيء من الملوحة لم تكن كملوحة الرمال، فلما وصل إلى قمتها، وجد امامه فراشا طويلا يكسوه اللون الأزرق ويمتد في الأفق إلى مالانهاية، يتموج مثل تموج رمال الصحراء أثناء هبوب الرياح، إلا أن مكوناته من الماء اللامع كاللؤلؤ تحت آشعة الشمس المزينة، من موقعة فوق تلك التلة، رأي مجموعة من راكبي الجياد تسير عن بعد على ذلك الشريط الفاصل بين البحر والرمال وبصحبتهم الفتاه، كانت مقيدة بالحبال، ضرب بقدميه بطن الفرس فانطلق بسرعه وصهل بقوة، في حين جز هو على أسنانه وأصدر من حلقه صوتا ينم عن الغضب الشديد، إنفرجت فتحات أنفه طالبة المزيد من الهواء، وأنقبضت عضلات جسمه لتستعد لهجوم شرس من قبله، وما أن اقترب من هؤلاء الخاطفين حتي قام بإخراج خنجريه، إنتبهوا لوجوده عندما سمعوا صوت وقع حوافر فرسه، فألتفتوا له، كانوا خمسة رجال، في مقدمتهم هذا الذي أمسك بالفتاه، سمع (عابد) أحدهم يقول صارخا :

- إقتلوه.. إنه منهم.

فرد آخر وقد تأخر عن ركابهم :

- إتركوه لي ..

لم يعبأ (عابد) بكلامه، ولم يتعجب من تشابه لغته بلغة العبيد، لقد كان الغضب يملأ كيانه، فراح يزجر فرسه بعنف أكبر ليندفع بسرعة، ولما أوشك فرسه على الإصطدام بهذا الذي يواجهه، قام (عابد) بالقفز من على صهوة فرسه ، ملقيا بنفسه على ذلك الفارس المعادي، فطرحه أرضا، ثم قام بطعنه في صدره طعنات متتالية، حينما راي ذلك بقية زملاؤه توجهوا إلى (عابد) فاحاطوا به، حاول أحدهم أن يدهسه بحوافر فرسه إلا أن (عابد) كان رشيقا في حركته فتفاداه، وقام بطعن فرسه في بطنه فخر الفارس من عليه، حاول آخر أن يضربه بالسيف وهو على صهوة جواده فباغته (عابد) بطعنة قاتله في جنبه، ثم امسك بذلك الذي وقع من على فرسه وهم أن يذبحه، حينها قال ذلك الفارس الذي كان يمسك بالفتاة، موجها حديثه (لعابد) :

- أيها الفاجر.. ألا تكتفي أنت وجلادوك بقتلكم لهؤلاء العبيد المساكين؟

فصاحت الفتاة بعلو صوتها قائلة :

- إنه من العبيد ..

حينها هدأت الثورة، وأرتخت العضلات المنقبضة فخفضت الأسلحة، وظهرت علامات التعجب على ملامح الجميع، فقد صدمت كلمات الفتاة أذآن السامعين، ترجل آنذاك ذلك الذي كان يبدو عليه أنه قائدهم من على فرسه، ثم توجه إلى (عابد) بخطوات ثابتة، وسأله بهدوء :

- أأنت من العبيد حقا ؟

رد (عابد) بحدة :

- نعم، وإن لم تفكوا وثاقها حالا فسأقتله.

رأي القائد في عيني (عابد) الجدية، فأشار لرجله بإنزال الفتاة من على الفرس وفك وثاقها، ثم قال (لعابد) وقد مال بجسده على ذلك السيف الذي امسكه بيده اليمني :

- ما إسمك ؟

لم يرد (عابد) على سؤاله، فقد إكتفي أن ترد ملامح وجهه التي إعتلاها

التجهم بما في جوفه من كلام، لكنه قال :

- أريد الفتاة ..

فصاح القائد :

- إجلبوا له الفتاة حتي يطمئن.

فما أن فك وثاقها حتي ركضت نحوه وإختبات وراء ظهره، فقام هو بدفع ذلك الرجل الذي كان محيطا ذراعه حول رقبته، ووقف وقفة إستعداد للهجوم، حينها قال له القائد :

- يبدو أنها تصدق القول، فملامحك ولهجتك لا يوحيان أنك من الغزاة، مع أنك ترتدي ملابسهم.

لم يرد (عابد)، فقد إحتفظ بحرصه من أي خديعة قد تحدث، لكن الآخر إستدركه فقال :

- إهدأ، أنا لا أريد إيذاءك، قل لي ما أمرك.

هدأت أنفاس (عابد) قليلا، فاستقام في وقفته، ثم قال :

- أدعي (عابد)، أنتمي للعبيد، أفلت من قبضة السادة بعد أن قتلت عددا من رجالهم.

ثم مال ذلك القائد برأسه إلى اليسار، فحصل على رؤية أفضل للفتاة، ثم قال :

- وماذا عنها ؟

تعجب (عابد) فقال :

- ماذا عنها ؟

- إنها لا تبدو منكم.

- لا، لكنها ساعدتني على الهرب، هي من دلتني على طريقة للخروج من القلعة دون أن ينكشف أمري.

قال القائد مندهشا :

- لقد إقتحمت قلعتهم !!

Obeikan.com

- نعم فعلت.

- مممممم، مدهش، ومثير للإعجاب.

إقترب من (عابد) مادا يده يريد مصافحته، فقال :

- أدعي (وافي)، وهذا (زاخر)، وهذا الذي كان على وشك الذبح إسمه (منذور).

أشار إلى الرجلين الجاثمين على الأرض وقال :

- وهاذان القتيلان هما (قنين)، و(بشر).

سأله (عابد) :

- من أنتم ؟

فرد القائد :

- الجبليون، ندعي الجبليون، نسكن تلك الجبال التي على شواطيء ذلك البحر.

- بحر ؟

- نعم ، اه.. أعذرني، نسيت أنك من العبيد، فلابد أنها المرة الأولي لك التي تري فيها البحر.

هز (عابد) رأسه موافقا، ثم إستطرد الآخر كلامه :

- نقتات على الحيوانات البرية، والمزروعات الصحراوية.

- لكن لماذا كنتم تريدون أسرها ؟ وأردتم قتلي ؟

- ألا تري تلك الملابس التي ترتديها ؟ إن السادة إعتادوا قديما على الهجوم علينا ومحاولة قتلنا، في هذا الوقت كنا عبارة عن جماعات من الرحالين، لا نستقر في مكان واحد، لكن عندما هدات غزواتهم - واظن أن ذلك لضعف ألم بهم-، أعطانا ذلك فرصة للإستقرار، فسكنا تلك الجبال الساحلية، ووجدنا بها مستقرا مناسبا لنا، ولما رأينا الفتاة إعتقدنا أنها منهم، فاسرناها، وعندما وجدناك تهجم علينا، لم يكن لدينا خيار آخر سوي قتالك.

سكت هنيهة ثم قال :

- قل لي.. إلى إين تعزم الرحيل ؟
- لا أدري.. أنا لست خبيرا بحدود الصحراء.
- إسمح لي ان أعبر لك عن حسن نيتي وأن تقبل دعوتي المتواضعة لك في الإنضمام إلينا.
- ولكن.. !!
- ولكن ماذا ؟ الصحراء واسعة، وأنت لست على علم بها، سيكون مصيرك فيها على ثلاثة أوجه، فإما ان تموت من عواصفها، وإما أن تمزق أحشاؤك بين أسنان حيوان مفترس، او تقتل على يد مجموعة من فرسان الغزاه والذين بالتأكيد يبحثون عنك الآن، فماذا تختار ؟ الصحراء أم نحن ؟
تفكر (عابد) قليلا ونظر للفتاه، ثم هز رأسه موافقا وقال :
- حسنا، سآتي معكم.
إبتسم وصفق بيديه، ثم صاح قائلا :
- مرحبا بك بين الجبليين، رحبوا معي يا أصدقائي بضيفينا.
إنفكت عقد (عابد) قليلا واحس بالإطمئنان، فلم يدفع يد وافي عندما وضعها على كتفه مربتا، والذي قال له:
- من حسن حظك اليوم أن أختي أعدت لحم ضأن لذيذ، سوف تأكله معنا.
- ضأن ؟؟

....

إرتاع الجبليون في باديء الأمر من رؤية هذين الغريبين، إلا أن وافي طمانهم بقوله أنه أحد العبيد الهاربين هو وأخته، تعجب عابد من ذلك، لكن وافي مال على اذنه وأخبره انه فعل ذلك حتي لا يستوحشها قومه، وما أن إطمأن الجبليون لهم حتي رحبوا بهما ترحيبا حارا، لقد كانوا قوم كرم وفضل، فأعطوهم من ملابسهم وخصصوا لهم مكانا لنومهم، هذا كان بعد تناول وليمة تذوقها عابد أول مرة في حياته، لطالما كان يري تلك الحيوانات تدخل قلعة السادة ولم يحظ منها أحد من العبيد، لذلك فقد إستعوضوا ذلك باكل

لحوم موتاهم، لكنه الآن وجد البديل، لحم طيب لذيذ الطعم، فعزف عن اكله للقوارض والزواحف، وبدأ عابد يعيش فترة جديدة من حياته، أحس فيها أنه بين أهله، فغمرته السكينة والهدوء بين أحضان الجبليين.

***

obeikan.com

-٢٣-

مر عام كامل عليه وهو ماكث بين الجبليين، خلال تلك الفترة تعلم الكثير من أمور معيشتهم وعاداتهم، فشاركهم في أعمالهم اليومية، وعرف أشياء لم يكن يعرفها من قبل، مثال ذلك.. عندما أراد أن يشرب من ماء البحر لشدة ما أحس به من عطش، لكن وافي نهره، فقال له (عابد):

- إنني ظمآن.

- لكن هذا لن يرويك ..

- لماذا ؟ أليس ماءا ؟

عندها.. مال بجسده نحو الماء، وأغترف منه غرفة بيده وادناها من فيه، ولان العطش بلغ منه مبلغا سيئا، فقد تجرع تلك الغرفة بأكملها دون ان يتذوقها قبلا، وما ان فعل ذلك حتي إرتجع هذا الماء المالح، واخذ يسعل ويتفل ليتخلص من بقاياه في جوفه، حينها أخذ وافي يضحك حتي كادت تنفجر أمعاؤه - ، كان يتمتع بحس الفكاهة- فقال)لعابد(وهو يقهقه:

- إنك مثل الأطفال ..

- لماذا لم تخبرني أنه مالح ؟

- كنت أرغب في رؤيتة رد فعلك.

فضحك (عابد) هو الآخر ساخرا من نفسه.

شارك (عابد) الجبليين في نزهاتهم لصيد الحيوانات، فتعلم كيفية الإختباء عن اعين الحيوانات فلا تفر منه خوفا، وان يتربص وينتظر بصبر، ذلك حتي يحصل على فرصة مناسبة تمكنه من الإنقضاض على فريسته، وإحكام قبضته

عليها، براعته في ذلك الأمر كانت لا مثيل لها، فقد كان صيادا بالفطرة، فاستطاع بذلك صيد الكثير من الحيوانات البرية، والتي أصبحت ولائم شهية فيما بعد.

جمعت بين (عابد) و(وافي) صداقة قوية، فكانا كثيرا ما يتسامران أثناء الليل، يحكي له (عابد) عن ذكرياته في قرية العبيد، عن ذلك العذاب الذي عاشوا به تحت سطوة السادة الظالمة، اخبره عن أخيه وامه، أخبره عن عاداتهم في أكل لحوم البشر وعزوفه عن ذلك، اما (وافي).. فقد حكي له عن بداية لجوئهم إلى تلك الجبال الساحلية، فقديما كان أجداده يسكنون المدن التي تقع في وسط الصحراء، وعندما جاء السادة جعلوها خرابا، فدفعوا أهلها للهرب إلى أحضان البادية خوفا من الموت، إصطحب (عابد) في إحدي المرات في رحلة إلى الشرق ليريه أنقاض تلك المدن القديمة، فمرا على إحدي المناطق التي وجدها (عابد) خرابا ولا تصلح للحياه، فظن أنها مساكن الجبليين القديمة، كانت عبارة عن أطلال لمدن عشوائية كست الرمال مبانيها، تتصل بالصحراء عن طريق لسان رملي طويل يقسم العمار إلى نصفين، هم (عابد) أن يقترب منها، لكن (وافي) جذبه قائلا :

- لا تحاول الإقتراب من ذلك المكان، ولا تسع إلى ذلك.

- أليست تلك هي مدن أجدادك التي حكيت لي عنها ؟

- لا.. ليست هي، إنها (حدوة الجنوب الأسود)، سميت بذلك لأنها عبارة عن تكتلات من المدن الجنوبية، تتخذ في هيئتها شكل حدوة الفرس، اما عن السواد.. فيقولون أن رمالها تسكنها أرواحشريرة، سوداء اللون، تختطف أي بشري يقترب منها، حتي إن السادة انفسهم كانوا يخافون الإقتراب منها.

- وإين هي مدن أجدادك ؟

- إننا لم نصل إليها بعد، إنها في الشمال من ذلك المكان.

بالرغم من تلك الحياة الجديدة التي إرتاحت نفسه بالوجود فيها، إلا ان شعورا بالغصة كان دوما لا يفارقه، ذلك لسببين، أولهما، رفيقه الذي إختفي

Obeikan.com

من حياته ولم يعد يزوره كما كان يفعل، - وقد حوي هذا الأمر بالكتمان حتي لا ينعت بالجنون مرة أخري-، أما السبب الثاني فكان تلك الفتاة التي أحبها من أعماق قلبه ولم يجد سبيلا إلى وصالها، فقد تمكن حبها من قلبه وسلم بذلك في نفسه، فأراد الزواج منها تبعا لتقاليد الجبليين التي عرفها، فذهب إليها في صومعتها السرية، والتي هيأها لها وافيبناءا على طلب منها، كي تحظي بشيء من الخصوصية، فتتمكن من القيام بعبادات دينها وهي منفصلة عن الجميع، عندما فاتحها (عابد) في الأمر ردت بإبتسامة، لكنها قابلت طلبه بالرفض، متعللة بأن تعاليم دينها تمنعها من الزواج برجل ليس على دينها، أخبرها لها أنه على إستعداد أن يتبع دينها كي يصبح هذا الزواج ممكنا، لكنها أخبرته أن الأمر لا يتم بتلك السهولة، فلكي ينتمي إلى دينها يجب عليه الخضوع لبعض الشعائر الدينية، والتي يقوم بها كاهن متخصص في ذلك الأمر، تركها والحزن يملأ كيانه بأكمله، وفي نفسه شيء من العتاب لها والغضب منها، أما هي، فقد أفصحت عن مانعها وهي تتقطع من داخلها، لقد كانت تحبه أكثر مما كان يحبها، لقد كانت تعشقه، لكنها لم تستطيع إخباره بذلك، حياءها منعها من ذلك، أيضا لم تستطيع أن تأتي بأمر منعتها منه أوامر دينها، فكان محرما عليها، لكن ذلك كله لم يغير مما في قلب (عابد) من شيء، فاستمر في حبه لها ولكن بصمت، وعزف عن الزواج بأي فتاة أو إمرأة أخري.

في يوم من الإيام أصيبت الفتاة بالحمي، فالتزم (عابد) برعايتها، وحاول بكل جهده أن يداويها بكل الطرق الممكنة والتي إستطاع الوصول إليها، إلا أن مرضها إشتد يوما بعد يوم دون تحسن، وفي ليلة ما بدا عليها انها تحتضر، جلس (عابد) بالقرب منها، نظر إلى عينيها ونزلت دمعة من عينه، لكنها إبتسمت، حاول أن يرد لها الإبتسامة لكنه لم يتمكن من السيطرة على نفسه، فأجهش بالبكاء، فقربت يدها من وجهه حتي لامست خده بباطن كفها، ثم قالت بصوت هادىء متعب:

- لا تبك ..

قال لها والكلمات تتقطع من فرط بكائه :

- إنني أرضي بألا تكونين لي زوجة، أرضي أن أحبك ولا تبادلينني الحب، أرضي بأي شيء مادمت أتنفس ذلك الهواء الذي تزفرينه، لكني لا أستطيع ان.. أنا..

وغرق في البكاء، فقالت له:

- من قال لك إنني لا أفعل، إنني احبك منذ تلك اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك.

قبض على يديها قائلا :

- لا تتركيني ..

- الأمر ليس بيدي.

لم يعقب، لكنها إستطردت فقالت:

- في عالم آخر كان يمكن أن تختلف الأمور.

إرتعشت شفتاه وألجم لسانه عن الكلام، فأحني رأسه، في حين أمسكت هي بذقنه لترفع رأسه ثم قالت:

- عابد.. إنني أرغب أن أري عينيك كما رأيتها أول مرة، أريد أن يكون آخر شيء تراه عيناي هما عينيك على حقيقتها دون أي حاجز من الدمع يعكر صفوها، أرغب أن أري فيهما تلك القوة التي إستشعرها فيك دوما.

كفكف دموعه لتعود عيناه إلى صفائها، فراحت تتأملهما حتي ثقلت عيناها وسكنت أنفاسها، وتركت الدنيا وبسمتها الجميلة لا تفارق ملامحها.

تمت مراسم الدفن التي تضمنت إلقاءها في البحر، وتبدلت حالة (عابد) فلم يعد كما كان، لم يعد يشارك الجميع أعمالهم ولا مهامهم، وأصبح الحزن رفيقا له طوال الوقت، فجعله ينزوي عن الجميع مؤثرا الخلوة إلى نفسه في أحضان احد الكهوف المظلمة.أصابته الهلاوس، فاخذ يتحدث إلى نفسه وإلي كيانات خفية من حوله، فتارة يتحدث مع طيف فيقول له وهو يطرق جدران الكهف:

- لم أنت صلبة متحجرة كتلك الصخور ؟ لم لم تخبريني عن حبك لي ؟ لم تركتيني وحدي ؟
ثم تارة يتحدث إلى الظلام فيقول :
- أشعر بك كما أشعر بنفسي، إن وجودك هو إمتداد لذلك الذي في قلبي.
في إحدي المرات، اصابته نوبة من الجنون، فألقي بنفسه في البحر طالبا الموت واللحاق بحبيبته، لكن الجبليين رأوه فأختطفوه من بين الأمواج المتلاطمة وأخرجوه نحو الشاطيء، حاول ان يفلت من قبضتهم، فصرخ قائلا وهو ينازعهم :
- إتركوني، أريد أن أذهب إليها، إنها تنتظرني.
لكنهم أحكموا قبضتهم عليه، وبعد أن أخرجوه، قيدوه بالحبال خوفا من أن يعاود كرته، وتركوه في ذلك الكهف الذي احب البقاء فيه.
لاحظ (وافي) إغتراب صديقه عنه، وأحس بكمد ذلك الحزن الذي إعتصر قلبه، فذكره ذلك بشيء من الماضي، فذهب إليه، كان (عابد) وقتها سارحا في ملكوته الخاص، فإقترب منه وفك وثاقه ثم جلس بجانبه، وبدأ يتحدث بعذوبة فقال:
- كان لي صديق يعشق إمراة، تزوجها وأنجب منها طفلة جميلة، لم يكن في حياة هذا الصديق غيرهما، لقد كانت حياته في وجود هذين المخلوقين الجميلين، وفي يوم من الأيام عندما خرجا في نزهة في الصحراء، هبت ريح هوجاء عصفت بكل شيء، حاول التمسك بهما بقوة حتي لا يفلتا منه، لكن العاصفة كانت أقوي، فطارت بهما بعيدا، ولما هدأت حدتها، حاول البحث عنهما، لكنه لم يجد لهما أي أثر ملحوظ، صديقي هذا حزن كثيرا، ومرت عليه أيام عديدة وهو غارق في حزنه، وأقدم على قتل نفسه كما فعلت أنت، لكنه تفكر حينها وسأل نفسه، ما قيمة إنتحاري ؟ ما الهدف من فعلي ذاك ؟ أن أكون معهم ؟ وعندها وجد الإجابة، لقد سمع هاتفا يخبره أنه إذا كان مقدرا له الموت فكان سيموت معهم، إذن فبقاؤه حيا أمر ولابد أن يكون له غاية

oboeikan.com

ما، لم يعرف صيقي حينها مصدر ذلك الهاتف، لكنه إقتنع بكلامه.
ثم أطرق في الأرض وقال :
- وبالرغم من أنه لا يعرف هذه الغاية حتي الآن، إلا أنه يعيش على الإيمان بهذا المبدأ.
نظر (عابد) إليه والدموع تترقرق في عينيه، لقد فهم أن ذلك الصديق لم يكن سوي (وافي) نفسه، حينها رفع (وافي) بصره نحو (عابد) وابتسم ابتاسمة طفيفة، ثم قال :
- صدقني يا صديقي، أنا أعرف كيف تشعر، لكن هذا لن يغير من الأمر شيئا، لم يكن مقدرا لها أن تحيا، تماما كما هو مقدر لك أن تظل على قيد الحياة إلى هذه اللحظة لغاية ما، هناك قوة خفية لا نعلمها تسير أمورنا، فما يحدث لنا، لا يحدث من قبيل الصدفة.
قال (عابد) :
- أنت تقول أن صديقك لم يعرف غاية وجوده حتي الآن.
- هذا ليس معناه أنها ليست موجودة، قد تكون ليتعلم أكثر من احداث الحياه، أو لقيادة يتولاها فيرعي بها هؤلاء الناس.
ثم وضع يده على كتف (عابد) فهزه وقال:
- او لعلها صحبة يكتسبها من صديق احبه كما الأخ، فظل حتي اليوم حيا ، حتي يخبره بكلامه هذا.
إبتسم (عابد)، في حين راح (وافي) يمسح دمعة كادت ان تنزلق من جفنه، ثم قال بحس فكاهي :
- هيا بنا نخرج من ذلك المكان النحس، الشمس تنتظرنا، ألم تشتاق (لبرق) ؟
- بلى.. إشتقت له.
- إذن هيا.. قم، عندي فكرة ستعجبك، ما رأيك في أن ننظم سباق للخيل ؟
تهللت أسارير (عابد) فقال :

- سيفوز (برق)، إنه سريع جدا.
- أرني ذلك، فأنا لا أثق إلا بما تراه عيناي.
خرج (عابد) من كهفه، فاستقبله الجبليون بفرح وإغتباط، سره ذلك وأنساه حزنه قليلا، اما وافي فقد أعلن صائحا في الجميع بأنه سيكون بعد ثلاثة أيام سباق للخيول بين الفرسان، والفائز فيه سيتم تتويجه ككبير الفرسان، وأنه يجب على كل مشارك إعداد فرسه من الآن، قوبل هذا الإعلان بالتهليل والسعادة، فقد وجد الجبليون فيه فكرة جديدة للحصول على بعض المرح والترفيه.
رأي (عابد) فرسه يقف وحيدا فتوجه إليه، وما أن إقترب منه حتي أشاح هذا الأخير بوجهه عنه، فقال عابد:
- أعرف يا صديقي، أعرف أنك على خصام معي، إعذرني، لقد كنت في حالة حزن لا يحتمل.
أصدر (برق) صوتا دل على حزنه، فقال له عابد :
- لقد كنت احبها.. أعرف أنك أنت أيضا حزين لفراقها.
حينها وضع (عابد) يده على غرته وقام بإحتضانه، ثم قال :
- يجب ان نستمر، يجب أن نبدأ من جديد، فالحياة بها الكثير كي نعيشه، هيا.. هيا بنا، فلدينا سباق ينتظر أن نفوز به.
بدأ الجميع في إعداد خيولهم للسباق وحلم التتويج يداعب مخيلة كل فارس ، وأختلف ذلك الأمر بالنسبة لاثنين منهم، فأما احدهما فقد وجد به وسيلة ليفرج عن هم صديقه ويذهب عنه الحزن، اما الآخر فقد وجد في السباق دافعا له كي يبدأ حياته من جديد، ويشرع في البحث عن غاية وجوده.

حل فجر اليوم الثالث، وتجمع الفرسان وبصحبتهم خيولهم التي أعدت للنزال، كان الجميع على أهبة الإستعداد، ممتلئين بالنشاط والهمة في ذلك الجو الجميل، فالشمس لم تشتعل بعد، والنسائم كانت باردة، فلفحت الوجوه

بلمسات رقيقة، ظهر (وافي) بين المتسابقين وأخذ يشرح لهم مسار السباق، فالمضمار يتضمن الركض بالخيل جنوبا حتي الإنتهاء من سلسلة الجبال، ثم التوجه شرقا وعبور التلال الرملية الثلاث، ثم بعد ذلك الإتجاه غربا نحو الساحل، ثم العودة بعد ذلك إلى مكان بدايتهم، أخبرهم ان السرعة مهمة، فالذي سيعود أولا هو الذي سيفوز باللقب، إنتظر الجميع إشارة البدء، وبعد ثلاثة طرقات رنانة بالسيف على الحجر، إنطلق المتسابقون.

تعالي الغبار وشق طريقه في الهواء، نثرته أرجل الخيول المتسارعة والتي إندفعت بقوة نحو هدفها، وبعد تعدي خط البداية، إنطلق الركب المصطف للمسير في مضماره، إمتداد سلاسل الجبال كان طويلا للحد الذي أجهد المتسابقين، غير أن الفارسين المحترفين لم يعانيا مثلما عاني غيرهم من المشقة، وبعد إجتياز الجبال.. إنقلب حال السباق، فمن سباق جماعي إلى آخر ثنائي، فقد أصبح ذينك الصديقان المتحابان في الطليعة، تفصلهم عن بقيتهم أميال عدة، فتصارعا من أجل أن يسبق أحدهما الآخر، ارسل كل منهما للآخر بسمات ونظرات تنم عن السعادة والتحدي، ظل الوضع هكذا حتي وصلا إلى الجنوب، وبعد إجتيازه، وجه (عابد) فرسه كي يكمل بقية مضماره، لكن برق لم يمتثل لأوامره الحركية، فغير وجهته، وجنح به إلى عمق الجنوب، حاول (عابد) أن يرده إلى الطريق لكنه لم يستجب له، رأي (وافي) ما يحدث من بعيد، فنادي في (عابد) قائلا:

- إلى أين أنت ذاهب ؟

فرد (عابد) بصوت عال :

- إن (برق) لا يريد الإنصياع لي.

ظل (برق) يركض مسرعا لمسافة طويلة دون توقف، حاول (عابد) بكل جهده أن يرده عن ذلك الإتجاه لكنه لم يستطع، وبعد أن تعدي تلال صحراوية وجد نفسه على أعتاب تلك البقعة التي حذره منها وافي، إنها حدوة الجنوب الأسود، إرتعب (عابد)، وأخذ يزجر برق ليحاول منعه من مواصلة تقدمه،

أما وافي فقد أبطأ من سرعته وبدأ يصرخ في (عابد) :

- إرجع يا (عابد).. إرجع، لا تقترب من هناك.

حاول إقافه لكن (برق) ظل يركض بقوة، أخذ يوجهه إلى اليمين تارة ثم إلى اليسار تارة أخري لكن دون جدوي، كان يبدو أن (برق) عزم على التوجه إلى بقعة بعينها لن يستطيع أحد - حتي (عابد) نفسه -أن يثنيه عن الذهاب إليها.

رد (عابد) صارخا :

- لا أستطيع إيقافه، إنه لا يستجيب لي.

ثم قال (لبرق) :

- (برق).. توقف، توقف أرجوك.

كان بقية المتسابقين قد لحقوا (بوافي)، فتوقفوا ليشاهدوا ما يحدث من بعيد، لكنهم فوجئوا (بوافي) يتحرك بفرسه نحو (عابد)، حاولوا إيقافه مذكرينه بخطورة تلك البقعة، إلا أنه قال لهم :

- لا أستطيع، لا أستطيع ان أتركه.

اتبعوه، حينها كان (برق) قد وضع قدمه على أعتاب الطريق المتصحر من المدينة، وما أن فعل.. حتي بدأت قدماه تغوصان في الرمل، لم يدر كيف يتصرف لكنه حاول أن يدفع (برق) للخروج من تلك البقعة الملعونة، فأخذ يضرب كاحله في بطنه بقوة، لكن الرمال كانت أسرع حركة من أن يفلت (برق) قدميه من قبضتها الناعمة، إنخفض مستواهما أكثر فأكثر، فقام (عابد) بالقفز من على صهوة جواده، تماما مثلما يقفز الربان من على ظهر سفينته التي تغرق، يغشي أن يسقط معها في قاع غير متناهي العمق، محاولته باءت بالفشل، فقد أحس بالرمال الجائعة تتحرك من تحته هو أيضا، في تلك كاللحظة وصل (وافي) ورفقاؤه إلى (عابد)، فقاموا بتشكيل سلسلة بشرية على رأسها (وافي) ليستطيع أن يقترب من (عابد)، من ثم إنقاذه من تلك الرمال، وما أن وصل إلى (عابد) مد يده نحوه، وقال :

Obeikan.com

- إمسك بيدي ..

حاول (عابد) السباحة في تلك البحيرة الرملية ولكن دون جدوي، جسده قد غاص أكثر من اللازم، فوصلت الرمال إلى منتصف جسده، والحركة أصبحت أصعب، قال (عابد) وقد بدا عليه الخوف:

- لا أستطيع، الرمال تبتلعني.

- حاول يا (عابد).. حاول بقوة أكبر.

حاول (عابد) بعزم ما فيه من قوة لكن لم يستطع، الرمال احاطته ومنعته من الحركة، حاول دفعها عنه لكنها إرتفعت أعلي وأعلي حتي وصلت إلى منكبيه، حينها قرب (وافي) يده نحو عابد أكثر ليستطيع الآخر أن يبلغها، امسك بها (عابد)، فحاول (وافي) ورفاقه جذبه، حاولوا إفلاته من شراك تلك الرمال، لكنها كانت قد غطته بالكامل فأصبح من الصعب إنتشال (عابد) من بين براثنها، لقد إختفي عن الأنظار، وخرجت يد (وافي) خاليه ، خيم الصمت على المكان، وتردد صدي صوت صراخ (وافي) وهو ينادي مذهولا:

- عابد.. عابد.

****

٢٤

«إين أنت ؟ هل وجودك حقيقي ؟ هل تعرفني ؟.. أم تجهلني كما أجهلك؟.. إنها أول مرة لي أتحدث فيها إليك.. أول مرة أستغيث فيها بك.. هل تسمعني ؟ أتستجيب لي ولصراخي ؟.. إن كنت لا أعرفك أفهذا ذنبي ؟ وإن كان ذنبا.. اتغفره لي ؟.. إنني ضعيف.. ضيق صدري.. مقيدة جوانحي بسلاسل من تيه فأطبقت على انفاسي.. أريد أن اناديك لكني لا أستطيع.. لقد ألجم لساني عن النطق بإسمك الذي لا أعرفه.. لكنني أستشعر بوجودك.. في كل خطوة خطوتها أستشعر معيتك.. أيمكن أن يعفو لي ذلك ؟.. أيمكن أن يشفع لي ذلك ؟ أيمكن .. ؟؟ إل.. إلهي ؟؟ «

لم يعلم لفظا يدعو به هذا الكيان، لم يجد معينا سوي تلك الكلمة التي

سمع الفتاة تقولها يوما ما، عندما كانت برفقته في الكهف، فأقتبسها منها ... (إلهي).

لم يستطع الحديث، فالرمال المختلسة لأنفاسه حبست عنه أي قدرة على الكلام كما حبست عنه الهواء المغذي لرئتيه التي أوشكتا على الخمود، إنه مقبل على الموت، لا يستطيع الحركة أو النفاذ من حدود ذلك اللحد المتحرك، أحس بالشلل، لكنه أحس أيضا ان كتلته تتحرك نزولا بين الرمال، ظل يغوص ويغوص بلا إرادة منه، إستسلم إلى واقع أنه ميت لا محالة، رغم أن قلبه لازال منهمكا في إستغاثته وعقله مستمر في تفكيره، تغير مسار حركته، وأحس أنه يدور في ممر حلزوني لا يعرف له مسمي، ظل يدور ويدور هكذا، حتي بدأ يحس بالهواء يفسح لنفسه مكانا بين جزيئات الرمال التي بدأت تقل في كثافتها، ففتح عينيه ليجد كل ما حوله يغط في ظلام دامس، أستشعر أن بمقدوره الحركة، ففرد يديه أمامه ليحتمي من أي شيء مجهول كرد فعل غريزي لتحاشي صدمة السقوط، ظن للحظة أنه يحظى بفرصة جديدة للحياه، لكن سرعه سقوطه كانت أسرع من إشراقة روحه، فانقبض قلبه، ورغم أنه تفادي بيديه إصطدام جسده بأرضية غير مرئية، إلا أن رأسه إرتطمت بحجر ما، وعلي إثر ذلك الإصطدام فقد وعيه وهو يسمع صوتين، احدهما صوت لإحتكاك الخشب ببعضه، قل معه إنهمار الرمال على جسده، والآخر كان مألوفا لديه، فقال :

- لا تخف يا (عابد).

إستفاق من غيبوبته بعد فترة من الوقت لم يعلم مدتها، مرت خالية من الرؤي والأحاديث الطيفية، كانت كهدنة بينه وبين نفسه التي لا تستقر، فتح عينيه ليجد نفسه محاطا برجال غريبي الملامح والهيئة، قبضوا عليه وكبلوا يديه، نظر من حوله مستكشفا المكان فوجد انه أشبه بالكهف، حاول الإفلات من قبضتهم لكن دون جدوي، لقد تمكنوا منه كليا، أما عن المكان

الذي وجد به نفسه فكان عبارة عن ساحة مستديرة الشكل حالكة السواد، لا يوجد مصدر للضوء فيها سوي تلك النيران المعلقة على جانبي الجدران التي كانت من الصخور الرطبة، سمع صوتا لخرير الماء وأحس ببرودة عند قدميه فنظر إلى الأسفل، فوجد الماء الجاري يصل إلى كاحله.

نظر إلى اعين تلك المخلوقات السفلية، والتي راحت تتفحصه بدقة، كما فعل هو، كانت ملابسهم أكثر هندمة من تلك التي للعبيد، لكنها لم تكن مثل ملابس الجبليين، لقد كان بها شيء من البدائية، كانت تتكون من قميص طويل أسود، يصل إلى أسفل الركبة، يتوسطه شريط قماشي يلتف حول الخصر، أمسكوا بحراب طويلة أوحت لعابد أنهم على وشك افتراسه، خيم الصمت على المكان، إلا أن ذلك الهدوء إنقطع فجأة بتلك الصيحات التي أطلقها هؤلاء الرجال، والذين قد تنحوا جانبا ليفسحوا المجال لرجل ضخم الجثة، سار بتؤدة نحو الأسير، خمن (عابد) أن هذا الرجل هو قائدهم، فقد كان ذا هيبة جعلت من حوله يوجهون له علامات الإحترام والتوقير، إقترب هذا الرجل من (عابد) حتي وقف أمامه مباشرة، أخذ يتأمله لوقت قصير، ثم قال بصوته رخيم:

- إقتلوه.

حينها أقترب الرجال منه، وقد أوغرت صدورهم وتأهبوا لإعدامه، إلى أن دوي صوت قوي من بعيد يقول :

- إنتظروا ..

توقف الرجال ونظر الرجل الضخم وراءه، ثم أعطي تحيه تنم عن الإحترام لصاحب الصوت الذي أتي سيرا من بعيد، لم تتبين ملامحه إلا عندما إقترب، لقد بدت عليه الرزانة والحكمة، إقترب من (عابد) ودقق النظر في عينيه، أشاح جزء من ملبسه فتعرت ترقوته التي راح يتحسسها، ثم قبض على يديه التي كانت خلفه وراح يتفحص كفه، وبعدما إنتهي منه، إلتف بجسده كاملا وسار خطوتين إلى الأمام، ثم عاد فاقترب من (عابد) مرة أخري، وسأله بهدوء:

obeikan.com

- ما إسمك ؟

قال:

- (عابد) ..

نظر هذا الرجل إلى قرينه الضخم ثم قال :

- يجب عرضه على الناسك للنظر في أمره.

رد غاضبا:

- أي أمر ؟ نحن لا نقبل بالغرباء.

قال الآخر بهدوء مشيرا نحو (عابد) بسبابته:

- إنه من العبيد.

أعطي الحكيم إشارة لرجاله قاموا على إثرها بإقتياد الأسير، فجاب طرقا سفلية طويلة، رأي فيها عالما آخر تحت الأرض مليء بالحياة المختبئة عن الأنظار، كان كلما مر على مجموعة من الناس لاقي منهم علامات تنم على الغضب والإستياء، إلى أن وصل إلى بقعة خلت إلا من شخص كبير السن ذي عباءة بيضاء جلس على الأرض، أغمض عينيه وبدا منهمكا في أمر ما، كان يتمتم بكلمات لم تبلغ المسامع، وقف الجمع أمامه بإحترام، تقدم هذا الشاب الحكيم نحوه، وبصوت خافت قال له:

- إعذرني سيدي، نريد مشورتك في أمر هام.

أنهي الشيخ تمتمته الخافتة ثم فتح عينيه، وقال بصوت هاديء:

- ما الأمر ؟

- قبضنا على هذا.. إنه من العبيد.

- وكيف عرفت ذلك ؟

- كتلته الجسمية، ملامحه، عظامه، كلها توحي انه من العبيد.

قال (عابد):

- إنني منهم فعلا.

نظر الشيخ له ثم قال :

- إنزعوا أيديكم عنهم.
ثم أشار إلى (عابد) قائلا :
- أدن مني.
فتقدم (عابد)، ولما أصبح بالقرب منه دعاه الشيخ للجلوس، فجثم أمامه على ركبتيه، ثم بدأ الشيخ يتحدث :
- ملامحك بالفعل تخبر عن أصلك، لكن كيف هربت منهم ؟ قل لي.. من أنت وماهي قصتك.
- إنها قصة طويلة ..
- أريد أن أسمعها.
- ولم ؟ من أنتم ؟
- نحن أصحاب هذا المكان، وأنت غريب علينا، لذلك فنحن من نسأل، وأنت عليك الإجابة.
قال الشاب الضخم :
- سيدي، أشعر أن الأمر خدعة، إقتله يا سيدي، إقتله.
فرد الشيخ :
- لم نسمع من قبل عن عبد إستطاع الإفلات من سطوة الغزاه.
- وكيف ستسمعون بذلك وأنتم تحت الأرض ؟
إمتعض الشيخ، ثم نظر إلى ذلك الشاب مفتول العضلات وقال له:
- يبدو أنك على حق يا ولدي، إقتلوه.
هجم عليه الرجال فحاول دفعهم عن نفسه، لكنه لم يستطع، لقد كانوا أكثر عددا، فقاموا بخفض رأسه بالقوة، وحينما تهيا الشاب الضخم لقطع رقبته بذلك السيف الذي أمسكه، إذ به يري ذلك العقد الملفوف حول رقبته، فامسك به فوجد قلادة معلقة به، فقال مستهزئا:
- وماهذا ؟ تميمة حظ ؟
حينها قال الشيخ :

- توقفوا ..
وسار نحو (عابد) ليري ماهية تلك القلادة، فأمسك بها وأخذ يقلبها بين يديه، ولما وجد أنها قابلة للفصل فصلها، ليجد بداخلها مفتاح فضي، حينها سأل (عابد) :
- من إين لك هذا ؟
قال (عابد) :
- إنها لأبي، ورثتها عنه.
حينها قال الشيخ لرجاله :
- إتركوه ..
دفع (عابد) يد الرجال عن نفسه وانتصب في وقفته، فسأله الشيخ :
- كم عمرك يا (عابد) ؟
- عشرون عاما، أظن ذلك.
- عشرون عاما ... مممم أنظر يا بني، لدينا قانون يحكمنا، وهو أن أي غريب عنا يقتل في الحال.
- يقتل !!
- إننا نعيش هنا منذ فترة طويلة من الزمن، نتبع عقيدة واحدة، لنا عادات وتقاليد تجمعنا، لا نقبل بأي غريب بيننا، قد تتعجب لمعرفتي الفرق بين الغزاة وبين العبيد، لكني أخبرك بأن منهم من جاء إلى هذا المكان بنفس الطريقة التي جئت أنت بها، ولو كنا نسمح لهم بالعيش بيننا لكانوا تسببوا في تغيير نمط حياتنا الذي رضينا به، إننا لا نريد أن نكرر أخطاء الماضي.
- أعذرني يا سيدي، لكن أغلب كلامك غير مفهوم بالنسبة لي.
- أعرف ذلك، خلاصة القول، إننا لا نسمح لأحد بالعيش بيننا إلا إذا أصبح واحدا منا.
- وكيف أصبح منكم ؟
- إنني أعرض عليك الإخلاص ..

- الإخلاص ؟ ماذا يعني الإخلاص ؟

- أن تخلص قلبك وروحك في الإيمان بالإله العظيم، الخالق المقتدر، أن تهب نفسك وجوارحك وكل ما تملك له فقط، إن دعوتنا علاقة ثلاثية، علاقة بين الإنسان وخالقه، وهي المتوج الرئيسي لعقيدتنا والأهم، ثم علاقة الإنسان بنفسه، وأخيرا علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

- هل يمكن ان تستفيض في شرحك أكثر.

- لقد خلقنا الإله ومن علينا بهبة الحياة، ثم أمرنا بالإخلاص له، فالإخلاص أحقية له وليست تفضلا منا، فبالإخلاص نعطي الإله قدره المستحق، وهو وسيلة لتصالح الإنسان ونفسه، ليتطهر من كل الانجاس والمساويء التي تعكر روحه، فإذا تم ذلك.. إنعكس إخلاصه على من حوله من الناس، فيظهر جليا في تعامله معهم بالأخلاق الحسنة التي يدعو إليها.

- وماهي تلك الأخلاق ؟

- لا تكذب، لا تخن امانتك، لا تقتل أخاك، لا تسرق حق غيرك، لا تضاجع إمراة لا تحل لك.

- وكيف تخاطبونه ؟

- إن لنا طقوسنا، لغتنا الخاصة في مخاطبته وتبجيله، صلواتنا تنزهه عن كل نقص.

- زدني.. أريد أن أتعرف على هذا الإله أكثر.

- إنه الملك، العظيم، خالق كل شيء وصاحب كل شيء، إليه المرد، أعطانا الحياة هبة منه، وأمرنا فقط بالإيمان به وإتباع أوامره، ففي تتبعها إستقامة لأمور حياتنا، وهي تأمر بالخير وتنهي عن الشر، وذلك حتي يمن علينا بالمكوث في الوادي المقدس بعد موتنا.

- لقد كنت أبحث عنه في كل خطوة أخطوها.

- ولهذا أتي بك إلى هنا ودلك على هذا المكان، وجعلك تجلس أمامي الآن تستمع لي وأنا أعرض عليك رسالته للهداية، إن خلقه ليس هباءا، وكل ما

يحدث للإنسان في حياته ليس من قبيل الصدفة.
- وكأنني أسمع هذا الكلام للمرة الثانية.
- إن الباحث عن الحق يري إشارات في طريق بحثه ترشده إليه.
قال (عابد) بصوت خافت :
- نعم.. (رفيق)، (برق)، (الفتاة)، و(وافي).
- ماذا ؟
- لا شيء.
- والآن.. أعرض عليك الإخلاص، تقبله أم لا ؟
أطرق (عابد) وراح يحادث نفسه، إنه وجد ضالته، لقد عثر على ما كان يبحث عنه، إن رفيق لم يخدعه ولم يضل به يوم جعله يهرب من قبضة السادة، لقد أرشده إلى الحقيقة، إنه الآن أمام إختيارين، الإخلاص أو الموت، نعم.. إنه لا يريد الموت، لكن جنوحه إلى الإخلاص ليس بسبب هذا، لقد أحس بالإخلاص يداعب قلبه، واستراحت نفسه لحديث الشيخ عنه، إلتفت إلى الشيخ وقال :
- إنني أختار الإخلاص، ليس عن جبن او خوف أو بسبب رغبتي في الحياه، لكنني عشت حياتي أبحث عن الحقيقة، إنني في موقف آخر لو خيرت بين الحياة أو الإخلاص كنت سأختار الإخلاص، إنني أجد فيه مرادي، إنني أخلص لك يا إلهي.. أخلص لك من كل جوارحي، قل لي يا سيدي.. كيف أصبح من المخلصين ؟
- لقد أصبحت منهم ..
- هكذا ؟ بتلك السهولة ؟
إبتسم الشيخ وقال :
- هكذا.. بتلك السهول، والآن إخبرني.. ما هي قصتك، وكيف هربت من الغزاة وأتيت إلى هنا ؟
وأخذ (عابد) يحكي له الأحداث بكامل تفاصيلها منذ هروبه من أرض العبيد

حتي دخوله إلى مدينة الغزاة وما حدث له فيها، ثم مساعدة الفتاة له وهروبه بها إلى الصحراء، وعن الوقت الذي قضاه بين الجبليين حتي سقوطه في بئر الرمال، أنصت إليه الشيخ بإهتمام، وتركه حتي ينهي كلامه، ثم قال :

- الآن بدات أصدق انك من العبيد ولست جاسوسا من الغزاه، لكني لم اكن أعرف عن هؤلاء الذين يسكنون الجبال.

- إن في الأعلى حياة أخري أنتم تجهلونها.

سكت (عابد) قليلا، ثم سأل الشيخ :

- قل لي يا سيدي، إين الإله ؟

- إنه في السماء.

- لكنني لم أراه من قبل، رغم تأملي الكثير في السماء.

- ليس بمقدورك رؤيته، هو أعلي قدرا من ان تستطيع ان تحيط به الأبصار.

ثم قال ل(عابد):

- هل يمكن أن أستعير منك قلادتك ؟ لوقت قليل ثم سأعيدها إليك مرة أخري.

رد (عابد) :

- بكل تأكيد ..

- حسنا، والآن إتركوني، أريد أن أبقي وحدي.

وأشار للجميع بالخروج فخرجوا، أما هو.. فأخذ يتأمل ذلك المفتاح الذي غلف بالقلادة.

***

obeikan.com

-٢٥-

رغم قدرته، لكن الغبار يعجز عن الوصول إلى بعض الأماكن، تلك التي حمتها القدرة الإليه من التدخل العابث لآياد آثمة، ومع أن بعض البشر قد يملكون من المكر والدهاء ما يملكون به العالم، إلا أن اليد العليا تظل لقدر الإله، فمكره لا يضاهيه مكر، وعلمه لا يحيط به أحد من المخلوقات كلها.

بعد أن أنهي الشيخ ما كان يفعله، خرج إلى رجاله، ثم إصطحب (عابد) معه في جولة تعريفية بالمكان، فأراه المدينة السفلية التي يسكنها هو وعشيرته، وبلغ به منطقة بها الكثير من الكتب والأوراق والمجلدات، فاخذ يتحدث معه عن الغزاة وتاريخ نشأة ال(واقية)، فقال :

- منذ زمن بعيد، كانت تلك الأرض ملكا لنا، ثم جاء هؤلاء الغزاة فأغتصبوها، وأراقوا دماءنا، الأمر الذي دفع باجدادنا إلى اللجوء تحت الأرض خوفا منهم على حياتهم، ومنذ ذلك الحين ونحن في ذلك المكان.

سأله (عابد) :

- وما معني (الواقية) ؟

- أطلقنا عليها ذلك الإسم لانها تقينا من هجمات الغزاة عليهم، فمكاننا هذا غير معلوم بالنسبة لهم.

- لكن.. من هو اول مخلص ؟ أقصد ..مممم، بالتأكيد لكل شيء بداية.

- كان هناك شيخ عجوز يقال انه هو أول المخلصين، وبعد ما حدث من هجوم للغزاة وإختباء السكان تحت الأرض، راحوا يلجأون إلى كيان سامي ينقذهم مما هم فيه، فلما وجد الشيخ ذلك منهم، بدأ في نشر دعوته بينهم،

فإزداد اتباعه يوما بعد يوم، حتي أصبح كل من في الواقية من المخلصين.
- إذن فالإخلاص قد إنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التواتر.
- نعم، فليس بين أيدينا كتاب موثق به طقوس وتعاليم الإخلاص، ولنفترض أنه كان بيننا، فليس بيننا من يعرف القراءة.
- قراءة ؟ ما معني تلك الكلمة ؟
أخذ الشيخ مجلدا من المجلدات، ففتحه، وبدأ يشير إلى ما هو موجود به، قائلا:
- القراءة هي طريقة لفك طلاسم تلك الكلمات المكتوبة، والتي تنقش على صفحات الورق.
- وحتي أنت لا تعرف كيفية فك هذه الطلاسم ؟
قال متأسفا :
- نعم.. حتي أنا.
- وكيف عرفتم بوجود العبيد وانتم هنا ؟ ففي الماضي كما أفهم منك لم يكن لنا وجود، ثم إنكم منعزلون عن العالم الخارجي.
- حياتنا ليست بأكملها تحت الأرض، فنحن نخرج من مخارج خفية نعلمها نحن فقط في ظلمة الليل، وذلك للبحث عن الطعام والشراب، وكما تري من حولك، فنحن نعتمد على أضواء خافته في مدينتنا، لذلك فقد إعتادت أعيننا على الرؤية في الظلام، مكننا هذا من أن نري من رؤية سرايا الغزاة التي كانت تجوب الصحراء في غسق الليل وهي تقتاد زمر العبيد بالقسوة والعنف القاتم، وهكذا عرفنا بوجودكم.
فطن (عابد) لأمر ما، وهو أن العبيد كثيرون وليسوا من كانوا في قريته القديمة فقط، فهو لم يعبر بالقرب من هذا المكان من قبل عندما كان يخرج للعمل تحت قيادة السادة، إذن فهناك قري أخري يسكنها العبيد، وهناك قلاع إيضا للغزاة غير التي إقتحمها، قال (عابد) بفضول :
- أتسمح لي بسؤالك عن شيء آخر ؟

openkan.com

- نعم.. ما هو ؟

- تلك الرمال التي إبتلعتني.. أتسكنها الأشباح بالفعل ؟

ضحك (الناسك) ضحكة تنم عن السخرية، ثم قال:

- إنها وسيلة إبتدعناها من اجل حماية أنفسنا، شراك خفية تجعلنا نصطاد من يحاول الإقتراب من ذلك المكان، لقد إخفي حتي كاد يختفي، إلى أن جئت أنت، أما عن الأشباح ..

واصل قهقهته، ثم قال:

- أما عن الأشباح، فأنا لا أعلم عنها شيئا، يبدو أنها إحدي الأساطير الكاذبة التي ألصقت بالمكان، من حسن الحظ أن ذلك حدث، فوجود مثل تلك الكذبة يضمن إبتعاد الغرباء عنا، فلا يجرؤ أي إنسان على الإقتراب من مدينتنا، فيستمر بقاؤنا ووجودنا في السر.

واصل الرفيقان جولتهما، فمرا بطرق وأروقة متعددة، وأثناء سيرهما، رأي (عابد) هياكل لأجساد تحللت، إستقرت في قاع بؤرة عميقة في الأرض، فسأل (الناسك) عنهم، فرد عليه قائلا :

- هؤلاء هم من جاؤوا إلى هذا المكان من الغزاة وغيرهم، وقد تم قتلهم والتخلص من جثثهم في هذا الحفرة العميقة.

أصاب (عابد) الصمم للحظة، فقد أحس بالخوف من الغدر، لكن (الناسك) قال له:

- لا تخف يا (عابد)، فأنت أول شخص يهبط إلينا ونخيره بين الإخلاص والموت.

- ولم ذلك ؟

- إنها تلك القلادة التي كنت ترتديها.

حينها مد (الناسك) يده بتلك القلادة يريد أن يقول (لعابد) بأن يأخذها، في حين هم هو أن يخبره عن ذلك الصوت الذي منعه من التخلص منها، وأخبره حينها أنها تأشيرة نجاته، لكنه لم يفعل، فقد أحاط أمر الصوت بالكتمان

للمرة الثانية.
بعد أن إنتهيا من جولتهما، إختار (الناسك) بقعة ما ليتوقف عندها، ثم بدأ ينادي بني قومه، فأقبلوا إستجابة لنداءاته، حينها قال :

- بني قومي، أحب أن أنبئكم عن إنضمام مخلص جديد لنا إسمه (عابد)، لقد قبل بالإخلاص للإله الأعظم، عاملوه كفرد منا، وقد أصبح كذلك بالفعل، فالإخلاص يمحو أي فوارق وإختلافات بين أتباعه.

إستقبل أهل حدوة الجنوب الأسود المخلص الجديد بحفاوة بالغة، فهذا الحدث السعيد لم يحدث منذ زمن بعيد، وأي شيء أجمل من إنضمام شخص جديد إليهم يزيد من عدد المخلصين ؟ إندمج معهم، وبلهفة كلية تملؤه أخذ يطلب المزيد في التعرف على الإله وطرق التعبد له، الأمر الذي راعاه الناسك بالمراقبة ليتأكد من صدق إيمانه، وفي كل يوم يزداد فيه (عابد) في معرفته تزداد فرحة الناسك أكثر، الأمر الذي قوبل بالترحاب من (نعيم)، ذلك الشاب الحكيم الذي قابل الأمر بالطاعة الكاملة، على العكس من أخيه الأصغر (حجر) الذي قابله بالإمتعاض والقلق، فقد إستشاط غضبا عندما عفي (الناسك) عن هذا الدخيل، فبدأ حوارا هجوميا مع والده (الناسك) بسؤاله:

- كيف تتركه يعيش بيننا ؟ كان لابد من قتله ..
- لقد قرر الإنصياع لقلبه، فاختار الإخلاص.
- ما أسهل إختيار الإخلاص إذا كان الموت في المقابل.
- أعلم ذلك، لكني أريدك أن أسألك ..ماهو الإخلاص ؟ اليس رسالة إرشاد لإستقامة العيش ؟ إليس بدونه يصبح العالم لا قيمة له ولا لمن فيه ؟ أليس في الإخلاص حياة ؟
- بلى ..
- إذن فلا تتعجب أو تمتعض إذا كان الإخلاص هو الخيار المقابل للموت.
- ولم هو ؟ إننا لم نفعل ذلك من قبل ..
- لأنني رأيت فيه أمرا ما لا تعلمه.

- وما هو ذلك الأمر ؟

- ليس الآن، كل شيء له الوقت المناسب لإيضاحه.

وأقترب الناسك من حجر، وأحاطه بذراعه، ثم قال له :

- ألا تثق بي يا بني ؟

- بلى أثق بك، ولكن ...

- إذن فلا تقلق، إنني لم أفعل ما فعلت إلا لأمر في نفسي سيستبين لك فيما بعد.

كانت فترة وجوده في (الواقية) فترة سمو روحي لم ينعم بها من قبل، فقد وجد ضآلته التي كان يبحث عنها فيها، وتعرف على ذلك الإله الذي كان يستشعر بوجوده دوما دون ان يعرف كيف يتحدث إليه او يكلمه من قبل، لكنه الآن يستطيع ان يكلمه ويحدثه عن كل ما في قلبه، فقد تعلم صلوات وأدعية الإخلاص، ناجاه بكل ما أحس به مكتوما في جوفه كل تلك السنوات التي مضت، تحدث إليه ليل نهار دون ملل أو كلل، مستشعرا حلاوة في قلبه الذي خف وزنه فتعالي إلى السماء دون حواجز تحول دون ذلك، تماما كما يشعر المحب عندما يجد حبيبه الذي ظل يبحث عنه لزمن طويل، أسر إليه باسرار علم أنه يعرفها، بل تاكد أنه هو الذي خطط لها ولحدوثها، أخبره عن إشتياقه لصاحب الصوت الذي هجره، عن حبه للفتاه التي لم يقدر لها الحياة حتي اليوم، طلب لها الرحمة قائلا :

- إلهي.. إنها بين يديك.. فارحمها.

كان لديه الكثير من الوقت ليشاهد حياته السابقة ويتأمل تفاصيلها بدقة، منذ أن بدأ يستمع لذلك الصوت حتي مجيئه إلى الواقية، فقال محدثا نفسه بصوت مسموع:

- (وافي) كان معه حق عندما أخبرني بوجود قوة خفية تسير حياتنا، ان كل ما يحدث لنا لا يحدث من قبيل الصدفة، لقد قال هذا بناء على شعور فطري أحس به يداعب وجدانه، تماما كما يبحث الطفل عن ثدي أمه عندما يولد

ObeiKan.com

ليرضع، إن أحداث حياتي السابقة تتمثل في سباق طويل، يقوم فيه المتسابق عند نقطة ما أنهكه فيها التعب بتسليم صديقه راية الإستمرار، ليواصل السباق من بعده، وهكذا.. فكل حدث يلقيني إلى حدث آخر، وكأن حياتي تتمثل في خطوط منبعجة تتصل ببعضها البعض لترشدني إلى نهاية ما، في البداية ظهر لي (رفيق)، هو من دفعني إلى الإستسلام لرغبتي في التخلص من قيد العبودية، ثم الفتاة التي ساعدتني على الهرب من القلعة، و(برق).. ذلك المخلوق الجميل الذي إنطلق بي في عباب الصحراء الواسعة، ثم الجبليون، ثم (برق) مرة أخري يلقي بي في أحضان الواقية التي كنت على وشك الموت فيها لولا تلك القلادة التي نصحني (رفيق) بالإحتفاظ بها، ثم الإخلاص.. يا إلهي، كنت أظن انني أبحث عن الحقيقة، لم أكن أعرف أن الحقيقة هي التي تبحث عني، (وافي)، آآآه، أشتاق إليك يا صديقي.لقد كنت محقا عندما اخبرتني عن الغاية والوجود.

ثم ضحك وقال :

- المسكين.. يعتقد هو وقومه ان الأشباح إبتلعتني، لا يعلم حقيقة ما أنا فيه من نعيم روحي.

ثم لاحت فكرة ما بعقله جعلته يتوقف عن حواره مع نفسه، فأخذ يفكر فيها كثيرا ويسأل نفسه عنها وعن إمكانية حدوثها، لكنه تراجع عنها على الفور، وقال لنفسه انها مجرد تهيؤات يصيغها عقله، فالأمر شبه مستحيل، لكنه عاد وسال نفسه لماذا هو مستحيل ؟ لقد كان يظن أن هروبه من قرية العبيد مستحيل، لكنه تحقق، وظن من قبل أن دخول قلعة السادة أمر لن يحدث، لكنه حدث، وأعتقد أنه لن ينجو من قبضة الرمال، لكنه نجا، إذن فليس هناك مستحيل، كل شي قابل للحدوث على أرض الواقع، إحتفظ بتلك الفكرة في عقله، وقرر انه سيزيح عنها الستار، في الوقت المناسب.

مر عامان عليه منذ دخوله بين أحضان المخلصين، خلال تلك الفترة، تعلم الكثير من أمور دينه والعديد من العادات التي كانت تجمع أهل الواقية، وشاركهم في عمليات الخروج المستتر من تلك المخابي السرية أثناء الليل لجلب الطعام، وبالرغم من تواجد ذلك التكتيك الذي يسمح لهم بالخروج من فوق الأرض، إلا أنه كان له قانون ينظمه، حيث لا يسمح بالخروج إلا في جماعات، والخروج يبدأ في غسق الليل وينتهي مع إقتراب الفجر، ثم إنه يتم ليوم واحد فقط في الأسبوع، وجد (عابد) في ذلك سجنا لرغبته في تكرار تأملاته التي كان يمارسها أثناء وجوده على سطح الأرض، فكثيرا ما كان يجلس وحيدا في قريته وعند أهل الجبال، فيتأمل السماء وجمالها، ليحاول فك أسرارها، فقرر الخروج على حين غفلة من أهل المدينة، مصطحبا معه (برق) الذي مل هو أيضا الوجود في ذلك المكان المنغلق، وفي ليلة ما، ودون أن يلاحظه أحد، خرج (عابد) من المدينة السفلية إلى سطح الأرض، وأمتطي (برق) وذهب به بعيدا ليلبي طلب روحه وفرسه، وسبب آخر خفي في نفسه.

***

في اليوم التالي، إستيقظ الجميع وأعدوا نفسهم لصلاة الإشراق، تلك الصلاة التي تتوافق وموعد شروق الشمس، وتتمثل في ادعية جماعية يدعوها (الناسك) - إمام المخلصين - ، فيؤمن الأتباع من ورائه، عندما إكتمل الجمع، بدأ (الناسك) في ممارسة طقوسه هو ومأموميه، وبعد أن إنتهي منها، نظر وراءه فوجد (عابد) غائبا، تعجب من ذلك، لقد كان ملازما له دوما، يقف وراءه أثناء صلاة الإشراق وصلاة الغسق، سأل عنه فلم يحصل على إجابة، فأمر رجاله بالبحث عنه لعل أمرا ما قد ألم به، وبعد بحث طويل، لم يعثر له على أثر، فذهب (حجر) وأخبر (الناسك) بذلك، وقال غاضبا :

- هذا من تركته بيننا، من قلت أن الإخلاص تمكن من قلبه، لقد هرب مصطحبا جواده، لعله الآن يتجه إلى الغزاة ليخبرهم بوجودنا، فيهجموا علينا.

أطرق الشيخ قليلا وقد إعترت ملامحه علامات الغضب، ثم قال بصوت صارم:
- إنذر الجميع، وابدأ في التجهيز للدفاع.
مرت ثلاثة أيام وأهل الحدوة غارقون في قلقهم ، مستعدين لأي هجوم مباغت قد يفاجئهم، وظلت الأعين ساهرة فوق سطح الأرض تصارع النوم، فتراقب الأجواء المحيطة، ليتم تحذير السكان من أي خطر يأتي على حين غرة، خلال تلك الفترة، حاول الناسك أن يتفادي أعين الجميع أثناء تواصله معهم، حتي مع خاصة رجاله.. كان يعطيهم الأوامر دون النظر إليهم، لقد أحس أنه خذلهم وألقي بهم في هاوية آماله وظنونه الخاطئة، لقد خانه إيمانه، لكنه ظل متماسكا امامهم، ومداراة عينيه عنهم كانت حتي لا يستشعر أحد فيهما ذلك الإنكسار الذي بداخله، إلا نوعا من الشك تسرب إلى نفوس الأتباع، لكنه لم يمنعهم من السير في موكبه، ولم يقتل الثقة نحوه في نفوسهم.
نور قمر اليوم الرابع من الحدث عكس صورة من الغبار العشوائي، تعالي إلى السماء من فوق التلة الرملية البعيدة، فما أن لاحظته أعين المراقبين حتي هبوا لتحذير أهل المدينة من الخطر المحدق، ليتأهب الجميع لمعركة ستبدأ عن قريب، كانت خطتهم دفاعية، فطبيعة مدينتهم السفلية ومعرفتهم إياها دونا عمن سواهم، سوف يساعدهم على صد ذلك الغزو، وما أن تردد صوت المحذر حتي أمسك المحاربين بأسلحتهم البدائية، فهبوا بقوة لمواجهة المعتدين، وخرجت من تحت الأرض فرقة من حاملي السيوف فشكلوا الصفوف الأمامية، كان منهم (الناسك) و(نعيم) و(حجر)، وقفوا على بقعة خاوية من الشراك الرملية، وأنتظروا إقتراب هدفهم القادم.
كثرة الغبار وإرتفاعه حجبا أي معالم وراءه، فلم يبد أي شيء منه، إلا أن ظلالا راحت تتبين شيئا فشيئا مع إقترابه، لقد كانت لأعداد غفيرة من الجياد التي يسوقها فرسان من ظلال، إقتربوا أكثر فتبين أنهم يتبعون واحدا منهم، رفع يده اليسري ملوحا، ثم آتي صوت صائح من وجهته يقول:
- قادم خير.. قادم خير.

تعجب (الناسك) من ذلك الصوت الذي أطرق مسامعه، لقد كان صوتا يعرفه، إلا أن تعجبه ذهب أدراج الرياح عندما إقترب ذلك الفارس الطيفي وبلغت ملامحه مرمي الأبصار، لقد كان هو.. لقد كان (عابد).

الإجهاد ظهر على وجهه لكن علامات للفرح طغت عليه، على عكس من كانوا على وشك الهجوم عليه وتعجبوا لرؤيته وأتباعه، تعلق بصره (بالناسك) منذ إتيانه حتي هبط من على صهوة جواده، إقترب من معلمه والإبتسامة على شفتيه لكن الآخر كان حازما فقال:

- أريد تفسيرا.. من هؤلاء ؟

- إنهم الجبليون ..

- ولم كشفت أمرنا.

- مهلا سيدي.

- أتعرف مغبة ما فعلت ؟

- سيدي، أتذكر ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى مدينتكم، سألتك سؤالا ..

- وماهو ؟

- سألتك إين الإله، فقلت لي أنه في السماء ..

- ما علاقة هذا بذاك ؟

- فإذا كان الإله في السماء، فلم نناجيه من تحت الأرض ؟

- ماذا تعني ؟

- إلى متي سنظل في الخفاء يا سيدي ؟

لم يجب (الناسك) على سؤاله، لكن (عابد) إستطرد قائلا :

- قل لي يا سيدي، لم خلقنا ..

- أنت تعرف.. أليس كذلك ؟

- وأنت أيضا يا سيدي، وليس معقولا أن نعيش ونموت وينحصر دورنا في الحياة على الإخلاص فقط.

- أريد توضيحا أكثر.

- الإخلاص جاء من أجل العالم كله، أليس كذلك ؟ إليس هذا هو ما علمته لي ؟

- نعم ..

- إذا فهو ليس حكرا علينا نحن فقط، أنظر أمامك، هؤلاء الجبليون، لقد دعوتهم الي الإخلاص وقبلوا به.

- لماذا لم تخبرني أنك كنت ذاهبا إليهم ؟

- كنت سترفض، كنت ستلتزم بتلك القوانين التي تنظم الحياة في (الواقية)، ففعلت ما فعلت في الخفاء، سوي إنني لم أرد إلا الخير، صدقني يا سيدي.

- أصدقك يا عابد ..

تحدث (وافي) - ولم يكن قد تعرف عليه أحد من أهل الواقية بعد- فقال :

- إذن فليس هناك مانع ..

سأله (نعيم) :

- مانع من ماذا ؟ ومن انت ؟

- أنا (وافي)، أحد الجبليين، وصديق مقرب (لعابد)، أقول أنه لا مانع من أن نصبح يد واحدة في مواجهة الغزاة.

سأل حجر بغضب:

- أفاقد لعقلك أنت ؟

رد (عابد) بحدة :

- لا.. إنه ليس كذلك.

سأله (الناسك) مستفهما:

- أتريد منا أن نغزو الغزاه يا (عابد) ؟

- نعم.. لننشر الإخلاص، ونخلص العبيد، ونسترد حقا سلب منا.

- أنك تفاجئني كثيرا اليوم.

- سيدي (الناسك)، لقد علمتني أن كل شيء يحدث لنا فهو يحدث لغاية ما، أن الأشياء لا توجد من قبيل الصدف.

obeikan.com

- نعم.. فعلت، ولكن.. ولكن.

- سيدي، إنني لم أؤمن بالإشارات من قبل، لكن بعد الذي حدث فإنني أؤمن بها تمام الإيمان، إن حياتي مجموعة من الإشارات، ألا تعتقد مثلي بأن وجودي بينكم بعدما كنت من العبيد، وبعدما عاشرت الجبليين، لهو إشارة ما لكي نفعل ذلك ؟

- إن امرا مثل ذلك يحتاج الكثير من الإعداد، إنهم أقوي منا.

صرخ (حجر) غاضبا:

- إنه مجنون يا سيدي، لا تستمع إليه.

قال (عابد):

- لدينا الوقت الكافي، إنهم لا يعرفون بوجودنا، اما بخصوص قوتهم ففقدوا الكثير منها، لقد أخبرتني عن تاريخهم وهم لم يعودوا كسابق عهدهم، لقد إختبرتهم بنفسي، ثم إننا لسنا وحدنا، فإخواننا الجبليون سيؤازروننا.

- الأمر يحتاج أيضا للتدريب المكثف.

- نبدأ من اليوم.

قاطعهما (حجر) :

- أبي.. أتسمع له ؟

- والمعرفة الكافية بحدود مدنهم.

- دع لي هذا الأمر.

- والسرعة في الهجوم.

- الجياد كثيرة، وسريعة.

أطرق الشيخ ناظرا إلى الأرض بهدوء، فقاطع (عابد) هدوءه قائلا :

- سيدي.. إنني لا أعتقد أن الإله جعل مهمتنا في الصلاة والإخلاص في الخفاء، لقد اوجدنا لننشر رسالته التي بعث إلينا، لقد قلت قبلا أن الإخلاص حياة وما دونه هو الموت، وليس مقدرا للعالم أن يموت الآن، ألا ترغب في إستعادة ما سلب من أجدادك ؟ العبيد كثري وسيتبعونك، لقد فاض بهم ما يلاقونه

منهم، إلا أن شعورا بالخوف هو الذي يقف حائلا أمام حريتهم، سيجدون فيك شرارة تشعل الإرادة في نفوسهم مرة أخري، سيجدون قيمة لحياتهم في الإخلاص الذي وهبت نفسك له.

- (عابد).. دعني أفكر مليا.

وسار الشيخ متجها إلى صومعته الخاصة تحت الأرض، فأراد رجاله أن يتبعوه، لكنه إستوقفهم قالا :

- لا تفعلوا.. أريد أن أبقي وحدي.

بعد مداولات إستمرت عدة أيام بين الشيخ ورجاله إستقر الأمر على العزم على الغزو والتحضير له، لقد رأي منطقية (عابد) في إقتراحه المقدم، فإلي متي سيستمر تخفيهم تحت الأرض ؟ وإلي متي ستظل رسالتهم مستترة غائبة عن الوجود ؟ بالطبع كان القرار صعبا، خاصة وأن (الناسك) لاقي إعتراضا من رجاله المقربين لأن الكثير من الأخطار ستحدق بهم، كان قرارا مشوبا بالقلق والخوف، لكن الأغلبية كانت مع القرار وأيدته، وكان في عودة عابد ومعه الجبليون قتلا للشك في نفوس المخلصين، وإيواء للطمأنينة في قلوبهم مرة أخري، بل لقد إزدادت ثقتهم في حاكمهم الناسك.

ناقش ناسك مع (عابد) ورجاله وجهة الغزو، فرأي (عابد) أن أنسب مكان للغزو هو قرية العبيد التي قدم منها، لقد كان يعيش بها ويعلمها تمام العلم، ثم إنه يعلم الطريق إليها جيدا، وبدراسة تامة لذلك المكان عن طريق سرايا الإستطلاع ، ستسهل عليهم مهمتهم، الأمر الذي حدث بالفعل، فقد أمره (الناسك) على مجموعات إستطلاعية من الخيالة الجبليين، ذهبوا بالقرب من تلك المدينة المزدوجة لمعرفة تضاريسها والإحاطة بها كليا، وبعد شهر عاد (عابد) وهو يعرف كل شيء عن هذا المكان معرفة دقيقة، وتمكن من إكتشاف مكامن القوة والضعف في القرية والقلعة، ثم إنه إختار عددا من الرجال خفيفي الحركة والوزن وعلمهم كيفية تسلق الأسوار بتلك الطريقة التي قام بها أثناء إقتحامه القلعة، وأستعان بسيقان النخيل كمحاكاة لتلك الأسوار، في

obeikan.com

حين راح (وافي) يؤلف بين الرجال والخيول فعلمهم كيفية ركوبها، أما (نعيم) فلأنه كان ماهرا بصنع الأدوات المعدنية، فقد عني بقيادة مجموعات عاملة من الرجال لصنع أدوات للقتال كالسيوف والخناجر والرماح، وتم صناعة مصدات من الخشب تقي الجنود من الصدمات، وبالنسبة (لحجر).. فولعه بالمصارعة جعله مؤهلا لتدريب الجنود على المهارات القتالية، كل هذا والشيخ يشرف على كل ما يحدث بعناية وحكمة، مغتبطا وممتلئا بالسرور، وشيء من القلق.

***

obeikan.com

-٢٦-

بعد ستة أشهر من الإعداد الجاد، أصبح جيش المخلصين متحفزا لأوامر الإنطلاق، ولما صدرت الأوامر، تحركت القوات طبق خطة وضعها (الناسك) بالتعاون مع خواص رجاله، كانت الخطة تقتضي السرعة في الحركة والتخفي أثناء الزحف، لتحاشي أي قوات من الغزاة تقوم بإستطلاع الصحراء، ولإن (عابد) كان خبيرا بكهوف الجبال، فقد ساعده ذلك على توجيه الجيش إليها للإحتماء بها، ذلك عندما كانت القوات تستشعر وجود العدو في الأنحاء، لم تكن الخطة هجومية فحسب، بل إن مجلس القيادة هذا وضع خطة دفاعية عن (الواقية)، كإجراء وقائي إذا ما فشل الجيش في تحقيق هدفه، وتم إختيار (نعيم) ليتولي أمر تلك المهمة، فبقي في المدينة ومعه قوة دفاعية، أما (عابد) و(حجر)، فقد خرجا مع الجيش تحت قيادة (الناسك)، وبالنسبة (لوافي)، فقد تولي هو قيادة الخيالين، وبعد مسيرة شهر وصل الجيش إلى وجهته، وفي ليلة غاب فيها القمر، بالقرب من تلك التلال التي حجب الظلام معالمها، تأهب الجميع لصدور إشارة الهجوم على الوادي، وبدأ (الناسك) في إعطاء تعليماته للجنود، فما لبث أن أنهاها حتي أعطي إشارة، تفرق الجيش على إثرها.

بدأ الهجوم بتحرك فرقة من المقاتلين، نالوا تدريبات على السرعة في الهجوم والإختباء، أطلق عليهم (المحاه)، كانت مهمتهم، هي قتل هؤلاء الحراس الذين وقفوا على رؤوس الوادي، فيتمكن بقية الجيش من الحركة بحرية دون أي خوف من تحذير الحراس لأهل القلعة، أتبع ذلك إتجاه (عابد)

مع خمسة فرق ، قاد هو إحداها نحو مدينة العبيد التي كانت على يسار الوادي، كانت كل فرقة تتكون من عشرة مقاتلين من خفيفي الوزن، أما باقي الجيش.. فقد توسط الطريق بين القرية والقلعة، قاطعا بذلك الطريق على أي محاولة لإستنجاد حراس قرية العبيد بهؤلاء من في القلعة، وحينما وصل (عابد) مع قوته السريعة، قاموا بقتل الحراس المحيطين بأسوار القرية بكل نعومة حتي لا يحدثوا جلبة، ولما انتهوامنهم، قاموا بتسلق أسوار المدينة كما علمهم (عابد)، ولما وصلوا إلى قمة السور وجدوا أنفسهم في ممر، فتفرقت تلك المجموعة نحو تلك المظلات التي في الأركان من الممر، وهاجموا الجنود اللذين وقفوا تحتها، فقاموا بقتلهم، حتي إذا ما إستتب الأمر، نزل المقاتلين إلى داخل القرية، فقامت معركة بينهم وبين حراسها الذين كانوا قلة، فصرعوا كل من واجههم من الحراس، ولما حاول بعضهم الخروج من البوابة التي فتحوها، لاقوا فرقة من الغرباء تمتطي الجياد أمامهم، فقامت تلك الفرقة التي قادها (وافي) بقتل كل الحراس على الفور، حتي إذا ما تمت السيطرة على القرية، تقابل (عابد) و(وافي)، فقال (عابد) له:

- أعداد الحراس في القلعة أكبر، سنجد صعوبة في إقتحامها، وسنلاقي مقاومة أكبر من أهلها.

- ما العمل إذن ؟

- إسبقوني إلى أعتابها ولا تهاجموا، إنتظروني.

- إلى متي ؟وماذا ستفعل ؟

- إلى قبيل الفجر، لدي حيلة ما.. إين (برق) ؟

- بصحبتنا ..

- جيد، إتركوه معي، وبعض الرجال.

- حسنا ..

ذهب (وافي) إلى (الناسك) وأخبره بما حدث، فأستبشر (الناسك) بتلك الأخبار السارة، لكن (وافي) كان متعجبا من قرار (عابد) بعدم الهجوم، وتركه وحده

في المدينة مع (برق)، فقال للشيخ :

- لا أعلم ما الذي يخطط له.

- أعتقد أنه سيحاول إقناع العبيد للهجوم معنا.

سمع (حجر) هذا الكلام فقال :

- هذا هراء، كيف سيفعل ذلك ؟

فقال الشيخ :

- لا أعرف، لكني متأكد أنه سيجد طريقة ما.

- سيدي ..

- ألازلت لا تثق به يا (حجر) ؟

- أنا أثق بك يا سيدي.

- وأنا أثق به.

طال وقت الإنتظار ولم يظهر (لعابد) أثر بعد، فبدأ الجميع يتساءل عن جدوي الإنتظار، لكن قبل حلول الفجر، ظهر (عابد) في الأفق بصحبة رجاله وهو ممتطي لصهوة (برق)، ومن ورائه أتباع كثيرون من العبيد، لقد كان يرتدي ثياب الحرس هو وأفراد فرقته، ولما إقترب من (الناسك) الذي تهللت اساريره قال:

- سيدي ..

- كيف فعلت ذلك ؟

- كانوا في إنتظار من ينقذهم.

- لكنك تأخرت.

- لقد كنت أبحث عن الكاهن لأقتله.

- ومن هو ذلك الكاهن ؟

- إنه أحد عيون الغزاة على العبيد في القرية.

وقدم (عابد) له أحد العبيد قائلا :

- هذا أخي.. (نجد).

obeikan.com

إبتسم (الناسك) ثم سأل:
- ماذا سنفعل الآن ؟ لقد إقترب الفجر ..
- سأتقدم من بوابة المدينة لأستنجد بهم، سيفتحون لي عندما يرونني أرتدي تلك الملابس، في ذات الوقت.. سيستعد رجال الحركة الخفيفة للهجوم على الأسوار، فتح الأبواب سيكون إشارة لكم للهجوم، والذي يبدؤه فرقة الخيالة، يتبعها بعد ذلك باقي الجيش، سأقوم أنا بتعطيل غلق أبواب المدينة.
- وماذا عن العبيد ؟
- سيهاجمون معكم، إجعلهم في المؤخرة.
- إنهم لا يعرفون شيئا عن القتال.
- نعم.. لكن أعدادهم ستلقي الرعب في قلوب الغزاه، أهم شيء السرعة، يجب أن نستغل عتمة الليل وإلا فإن خطتنا ستبوء بالفشل إذا بزغ الفجر.
إلتفت إلى (حجر) ثم قال:
- (حجر) ..، إرتد هذا الزي، لقد جلبته معي لك، سوف ترافقني.
ثم نادي على أحدهم قائلا :
- (غفار) هل قطعت جذوع النخل كما امرتك ؟
- نعم يا (عابد)، لقد قطعنا خمسة جذوع.
- جيد، حسنا، إجعل رجالي يحملوها، وأنتم إتبعوني.
بعدما إرتدي (حجر) تلك الملابس الغريبة، إنطلق هو و(عابد) بفرسيهما بسرعة فائقة نحو قلعة الغزاه، ومن ورائهما فرسان آخرين يحملون جذوع النخل، وما أن وصلا إلى أبوابها المغلقة، والتي أضيئت بتلك المشاعل التي على جدران أسوارها، هبط (عابد) من على فرسه، وقال لرجاله بصوت خافت:
- لا يتحدث أحد منكم.
وبدأ ينادي حراس الأسوار راسما على وجهه علامات الخوف والرعب، فقال :
- نيغارافنا ..نيغارافنا .
قال له (حجر) بصوت خافت :

- ماذا تقول ؟
- أقول لهم إنقذونا ..
رد أحد الحراس من فوق السور :
- شبيهاليك ؟
- حنينو بي أمينديخ، دي كاريف شبيعبيد ديرونيجوم.
همس (حجر) :
- أنا لا أفهم ..
- إنه يسألني ماذا بي، فرددت عليه وقلت إننا في خطر وأن مدينة العبيد تتعرض للهجوم.
- كيف عرفت لغتهم أيها الماكر ؟
إبتسم (عابد) ولم يعقب، وقام الحراس بفتح أبواب المدينة حتي يدخلها الحراس المتخفين، فلما دخلوا، هجموا بسرعة على هؤلاء الحرس الذين فتحوا لهم البوابة، في ذات الوقت.. كان خفيفو الحركة قد تسلقوا الأسوار وبدأوا مهاجمة حراسها، بعد ذلك قام بقية الفريق بوضع جذوع النخل بين صفحتي بوابة القلعة، فمنعوا أي محاولة لإغلاقها، وبذلك تمكن (عابد) و(حجر) من السيطرة على البوابة، وأصبحت الفرصة سانحة للهجوم، ولما رأي (الناسك) أبواب المدينة قد فتحت، أعطي الإذن بالهجوم المكثف، فأنطلقت سرية الخيالة نحو المدينة، يتبعهم المشاه، ومن ورائهم العبيد.
أقلق المخلصون نوم الغزاه الذين لم يتوقعوا هذا الهجوم عليهم، واستفاد جيشهم من عنصري المفاجأة والظلام الذي غطي السماء، فمكنهم ذلك من مباغتتهم والسيطرة على أسوار القلعة بسرعة، الأمر الذي سهل عملية الهجوم لبقية الجيش، الإقتحام أربك سكان القلعة، وجعل العشوائية تجتاح صفوفهم فلم يستطيعوا صد المغيرين، فدخل الجيش إلى قلبها لتسقط في إيديهم بسهولة، فتملكوا زمامها في سرعة غير متوقعة، وأمسكوا بقادتها وجنودها أجمعين، حتي إذا ما إستتب الأمر وهدأت روعة القتال، إختار

obeikan.com

(الناسك) ربوة عالية في المدينة ليقف عليها، لقد اراد أن يخطب في جميع من بالمدينة من غزاة ومخلصين وعبيد، فأصطحب معه (عابد) ليقوم بترجمة مقولته التي يريد أن يقول، ثم بدأ يتحدث :

- منذ زمن بعيد غزوتم تلك الأرض.. أرضنا، وعثتم فيها فسادا، فقتلتم أصحابها، وسقيتم ترابها من دمائهم، أستحللتم أمرا محرما عليكم، وجعلتم من اهلها عبيدا مسخرين لخدمتكم، الحق معنا في أخذ حقنا بالقوة منكم الآن، لكننا لم نأت من أجل ذلك فقط، لقد اتينا من أجل رسالة أتت إلينا من فوق تلك السماوات، رسالة الإخلاص، أخلصوا تخلصوا، أخلصوا من اجل الإنسان وأخيه الإنسان، إخلصوا تسخر لكم الأرض والسماء، لقد جئنا بهجوم أرجف قلوبكم، نعلم هذا، لكننا لم نأت والشر بين أيدينا، تلك ليست دعوتنا، إنما هي دعوة خير وسلام، دعوة عبادة الإله بأي طريقة كانت، فلن نجبر احدكم على إعتناق ملة غير ملته، أو ديانة غير التي يصدق بها، فمن شاء فليخلص ومن شاء فله ما تتوق إليه نفسه، أما أولئك الذين قادوكم وجعلوا من الظلم شريعة لهم، فهؤلاء هم أضحيتنا، لقد إستعبدوا أهلنا وعذبوهم، ولنا كامل الحق الآن في إقتلاع رؤوس تلك الأفاعي التي ضلت وأضلت.

أشار إلى العبيد ثم إستطرد:

- وأنتم يامن عشتم عبيدا، أنتم يا من توالت الأجيال عليكم وأنتم تصدقون تلك الكذبة التي إشربتموها، لستم عبيدا بعد الآن، إعلموا ان تلك الأرض هي أرضكم، إعلموا أننا إخوانكم، جئنا نخلصكم من عذابكم ونهديكم إلى الإله الذي أرسل برسالة الحق، وليس الحق في إستعباد من استعبدوكم، الحق في تلك المنحة التي وهبها الإله للإنسان.. الحرية، ليس لكم أن تستعبدوهم بدعوي الإنتقام، فالإخلاص ليس إلا ذلك الحب الذي خلقه في القلب ليعم كل المخلوقات، لكن لتعلموا أيضا، ليس هناك حب بدون قوة تحافظ عليه، فبدون قوة تحميه سيندثر تحت وطئة الظلم البغضاء، لا خوف بعد اليوم، لا استعباد بعد اليوم.

هنالك هلل العبيد فرحا، لقد إنتهت معاناتهم وبدأ عهد جديد في حياتهم، ولما نزل (الناسك) من فوق تلك الربوة، أعطي اوامره للجنود بقتل جميع الجنود والقادة من الغزاه، فقتلوهم، لكنه أبقي على خمسة منهم بناءا على طلب (عابد)، بعد ذلك أخذ (الناسك) يدور ببيوت السكان ليطمئنهم على حياتهم، مصطحبا معه (عابد)، ودخل دار العبادة، فوجد الكهنة قد إرتعبوا منه، فأمنهم على عبادتهم ودينهم، حتي إذا سكن الليل نام الجميع، لكن قوات من المخلصين ظلت على يقظتها، تنبها لأي غدر ممكن.

هنالك وجد (عابد) فسحة من الوقت كي يطفيء نيران ذلك الإشتياق الذي أحس به نحو أخيه (نجد)، فاحتضن كل منهما الآخر بشدة، وقال (نجد) لأخيه:

- لقد وجدت ماكنت تبحث عنه يا (عابد) ..

- لقد وجدت الحقيقة يا أخي العزيز.

- أتتذكر يوم الإحتفال ؟

- نعم.. قلت لي أنه ليس بيدك حيلة، لكنك ستتبعني إذا ما فعلت أنا.

- وها أنا أفي بوعدي، لكن ما الذي حدث ؟ إين ذهبت وكيف فعلت كل ذلك؟

أمسك بيد أخيه وأبتسم، ثم قال :

- تعال معي، فلدي الكثير من القصص والحكايات التي أود أن أرويها لك.

***

openkan.com

obeikan.com

-٢٧-

كان (عابد) ذا بصيرة نافذة وصاحب رؤية مختلفة للأمور، فعندما طلب من (الناسك) الإبقاء على حياة بعض حراس الغزاة، كان هذا لحاجة في نفسه، وهي أن يعرف منهم أماكن تواجد الغزاة ومقدار قوتهم، فقام بإستجواب هؤلاء الحراس، فعرف منهم أن قلاع الغزاة منتشرة في أرجاء البلاد، وكلها على حلقة وصل مع المدينة الكبرى والتي تقع على الساحل الشمالي من الجزيرة القارية، ويتم تنظيم لقاء دوري في كل شهر، حيث تقوم كل قلعة بإرسال وفد منها لمقابلة مبعوثين من المدينة الكبرى في منطقة تسمي (الناصية) ، وهي عبارة عن منطقة تتكون من سلاسل من الجبال المرتفعة الموجودة في منتصف الجزيرة، حيث يتم إعلام المبعوثين بآخر المستجدات في كل قلعة، حرص (عابد) أن تستمر هذه السرايا في خروجها، حتي لا يشك الغزاة في حدوث أي شيء، فيقوموا بالهجوم عليهم، ويلقي المخلصون في معركة لم يعدوا لها العدة، فعمد إلى الخروج بنفسه في تلك السرايا متخفيا في ملابس جنود الغزاة، وذلك لمقابلة المبعوثين لمرة واحدة في كل شهر، أمر آخر أراد معرفته منذ زمن ولم يجد وسيلة له، وهو تلك الأهرام التي سخر العبيد في بنائها، فأخبروه أنها إحدي مراسم إستقبال الأعور المنتظر، والذي يوشك أن يظهر في ذلك الزمان.

أحاط حاكم المدينة الجديدالأجواء بجومن الحرص والحذر، فرغم تلك الغلبةالتي كانت له ولرجاله، إلا أنه كان متخوفا من غدر سكان الغزاه بهم،

فكان يراقب كتائب الحراسة من أجل إستتباب الأمن، ثم إنه ألزم المخلصين بحسن عشيرة أبناء الغزاة، وعدم الإساءة إليهم او لدينهم، فانهار حاجز الخوف من المخلصين يوما بعد يوم، ونتيجة لتلك المعاملة الحسنة التي لاقاها أبناء الغزاة من المخلصين، بداؤا يتحولون إلى دين الإخلاص، ولأهمية الامر، فقد حرص الناسك على أن يفهم هؤلاء المحدثين دين الإخلاص فهما صحيحا، فوكل كل رجل من المخلصين القدامي -والذين كان موقنا من فهمهم الصحيح للإخلاص - بتعليم مجموعة من المخلصين الجدد، فانتشر الإخلاص وكثرأتباعه، وتبدل خوف (الناسك) وقلقه إلى الطمائنينة والراحة، أمر آخر أقلق الشيخ، وهو محاولة إنتقام العبيد من أهالي الغزاة، فمعرفته الدقيقة بالنفس جعلته يتوقع أمر كهذا، والحق أن من يعيش تحت وطأة الظلم ثم يطلق منه، يسعي نحو الأخذ بثأره ممن ظلمه، فأبقي الحاكم على الفصل بين السكان والعبيد، وذلك إلى وقت معين، حتي يتمكن من كسر ذلك الحاجز النفسي القائم بينهم بتمكن الإخلاص من قلوب العبيد، فوكل (لعابد) تلك المهمة، وقد أحسن إختياره، فهو أنسب شخص يمكنه التفاهم معهم، وذلك لأنه كان ينتمي إليهم في يوم من الأيام، ولما تم الأمر، قام (الناسك) بالمؤاخاة بين هذين القطبين، فعمل على توطيد مبدأ التسامح لدي العبيد نحو أبناء الغزاة، خاصة وأن هؤلاءالقوم ليسوا هم من ظلمهم، في نفس الوقت، سعي إلى إرساء مبدأ المساواة في قلوب سكان قلعة الغزاة، ثم عمل على تغيير العادات السيئة لدي العبيد، فمثلا أعطاهم من لحوم الحيوانات بديلا لأكل لحوم الموتي، وألغي فكرة إحتفال الفتاة العذراء، وغيرها من العادات التي لم يجد صعوبة في تغييرها، فقد غيرهم الإخلاص، وغيرتهم الحرية، إلى جانب هذا كله، فقد بعث إلى البقية من أهالي الواقية للقدوم إلى تلك المدينة الجديدة، للسكن فيها وترك المعيش تحت الأرض، بعد فترة كان (الناسك) قد نجح في تطبيق إستراتيجياته في تنظيم المدينة الجديدة، وهكذاعاش المخلصون في (البرعمية)- كما سماها (الناسك)، لأنه

رأي فيها برعما لنشرالإخلاص- عامان من السلام، قام فيها الجميع بالتعاون لبناء مجتمع جديد، فتم هدم أسوار قرية العبيد والقلعة وضمهمها إلى بعض، ثم حفت المدينة بأسوار أطول وأقوي من سابقتها لتحمي أهلها من المغيرين، وانتشرالحب والمؤاخاة بين قاطنيها، واختفي أي دين آخر فيها بعد دخول جميع أهلها تحت سقيفة الإخلاص، فنعم أهلها بالهدوء، وشملهم امان الإخلاص.

بالطبع تملك الفرح والسرور من(عابد)، في هذا الجو الرائع الذي يعيش فيه، خاصة وأن لديه سببا آخر غير الذي للمخلصين، فقد وجد اخاه بعد فرقة دامت أكثر من عامين، فجمعت بينهما جلسات كثيرة من السمر، والتي راحا يسترجعان فيها ذكريات الماضي الذي جمعهما، وقد تبدل اليوم لحال أفضل، وحكي (عابد) له تلك الأحداث الغريبة التي مر بها خلال تلك الفترة البائدة، على الرغم من أن (عابد) هو الأخ الأصغر، إلا أنه قام بدور الأخ الأكبر، فتولي رعاية (نجد)، وعني بتعليم اخيه مباديء الإخلاص بنفسه، ولما وجد أن الحب يداعب قلب أخاه الذي تأرق نومه، قام بتزويجه بتلك الفتاة التي سلبت النوم من عينيه، فهدأت نفسه، فهو لم يرغب أن يتعذب أخيه مثلما تعذب هو من قبل بألم العشق اللا موصول، كل ذلك كان يفعله (عابد) بقلب مغتبط، ونفس مسرورة.

في تلك الفترة، أحس (عابد) بشيء غريب، مثله في ذلك مثل جميع من (بالبرعمية)، فقد بدا أن غيمة ما بدأت في الإنقشاع عن الأبصار، فأصبحت صور الأشياء أكثر نقاء، لم يعلم احد سبب ذلك، فقد كانوا قد إعتادوا على الأمر منذ زمن بعيد، لكن (عابد) عرف أنه الغبار، فقد قلت كثافته في الجو، سانحا الفرصة لرؤية أكثر وضوحا، تظهر الأشياء على حقيقتها، لكنه لم ينقشع تماما بعد.

تلك الليلة، لم يكن (عابد) قد خرج في تلك السرية كما هو المعتاد، فقد كان به أذي من ظهره جعله لا يقدر على الخروج، لكنه كان قد علم مجموعة من

الرجال-الذين صاحبوه من قبل في تلك السرايا- لغة الغزاة، فأصبح يعتمد عليهم بدلا من الخروج بنفسه، لكن هذه المرة حدث أمر ما، ففي هذه الليلة، جلس (الناسك) مع رجاله وسهر حتي وقت متأخر من الليل، تسامروا وتضاحكوا، وإذ فجاة جاء إليهم أحد الحراس المعنيين بحراسة أسوار القلعة، وكان مفزوعا، فقال :

- سيدي الناسك ..

- ماذا بك ؟

- أحد أفراد السرية، جاء محمولا على جواده.

- ماذا ؟

- إنه في حالة سيئة يا سيدي.

هب الجميع من مجلسهم واتجهوا إلى ذلك الرجل، فوجدوه منكبا على ظهر جواده، غارقا في دمه الذي كسا ملابسه بأكملها، إقتربوا منه، فوجدوه لازال يتنفس، فسأله (عابد) :

- ماذا حدث ؟

- لقد كشف أمرنا يا سيدي، بات الغزاة يعرفون بوجودنا.

- كيف حدث ذلك ؟

- أحد المبعوثين في الوفد تلعثم في كلامه عندما فاجئه أحد الغزاة بسؤال لم يستطع الإجابة عليه، وذلك لأنه لم يكن متمكنا من لغتهم.

- وكيف خرج في الوفد ؟

- لقد مرض أحد أفراد الوفد فجأة، فطلب هذا الرجل الإنضمام بدلا منه، حاولنا أن نثنيه عن رغبته، لكنه قال أنه يتوق إلى الخروج مع الوفد.

- وما الذي حدث بعد ذلك ؟

- هجم علينا الغزاة وتعاركوا معنا، قتلوا بعضنا وأسروا البعض الآخر، لكنني إستطعت الفرار منهم، لقد أبقي الإله على حياتي، كي أبلغكم بما حدث فتأخذوا حذركم.

obeikan.com

وما أن إنتهي من كلماته حتي مات على الفور.
إهتاج الجميع لذلك الخبر، وأجتمع قيادو المدينة على الفور وعلي رأسهم (الناسك) للبت في هذا الأمر، فاخذوا يتناقشون، قال (حجر):
- نبدأ في إعداد جيشنا لملاقاتهم.
قال (نعيم) :
- ليس لدينا حل آخر.
فقال (وافي) :
- ولكنني أخشي من شيء.
سأل (الناسك):
- وما هو ؟
- أخشي ألا يكون الإخلاص قد تملك من قلوب بعض الخونة، فينقلبوا علينا إذا هوجمنا من جيش الغزاة.
قال (حجر) :
- إذن فنقوم بقتل جميع الغزاة، نحن أكثر منهم عددا.
لكن (الناسك) رفض ذلك الرأي قائلا :
- غير منطقي، فبفعلك هذا ستقتلع كل الرؤوس، الصالح منها والفاسد معا، دون تفريق بينهم.
نظر الناسك إلى (عابد)، فوجده منهمكا في النظر إلى الأرض، وقد قام بخط خطوط متداخلة على صفحة الرمال، فسأله:
- ماذا تري يا (عابد) ؟
فقال (عابد) حينها :
- الوقت كاف للخروج من المدينة.
تعجب الجميع، وقال (حجر):
- بأي كلام تهذي ؟
لكن (الناسك) سأله بهدوء:

obeikan.com

- ونتركها بدون قوة دفاعية.. ؟
- نعم.. سيتحرك الجيش إلى الصحراء كأنه يهرب، سنجعل الجميع يصدق هذا بما فيهم المخلصين، وسنترك جيش الغزاة يدخل المدينة ظنا انه اسقطت في إيديهم بهروبنا عندما عرفنا بانهم قادمون، عند دخولهم سيفرح الخونة ويستقبلوهم إستقبالا حارا، في حين سيتيح لنا ذلك فرصة لمعرفتهم، ولأننا لم نترك المدينة بالفعل دون اعين لنا في الداخل، فسيقوم رجال ثقات منا بإعطائنا إشارة من فوق الأسوار يعرفونا بها أن الفريسة قد وقعت في الفخ، فنقوم بهجوم مكثف، محلقين عليهم من الداخل والخارج.
- تماما كما يفعل العنكبوت مع ضحيته.
- بالضبط، لكن يجب مراعاة التأني في إختيار الرجال الثقات لهذه المهمة.
راقت الفكرة (للناسك)، وإتفق الجميع على تنفيذ تلك الخطة، فرجعوا إلى أهل البرعمية ينشرون خبر الهجوم المتوقع، وتجهزالجيش، وخرج أفراده من المدينة نحو الصحراء، حيث اتخذوا مخابيء لهم بين كثبان الرمال لمراقبة ما يحدث عن قرب، منتظرين الإشارة واللحظة المواتية للهجوم، وتبقت بعض الفرق - والتي أختير أفرادها بعناية ودقة - في المدينة، قاموا بالتخفي بين السكان ليقوموا بتطويق جيش العدو من الداخل عند إقتحام المخلصين، فلما اقترب الجيش من أبواب المدينة الأمامية، وجدوها مفتوحة على مصراعيها، ووجدوا بعض أهلها قدخرجوا لمقابلتهم، فتقدم قائدالجيش وتحدث مع تلك المجموعة من الرجال، الذين أخبروه أن جيش المخلصين قد فر لما علم أفراده بإقترابهم، وأخلوا المكان، عندها قام أحدهم- وكان من الكهنة قبل إخلاصه – بتلاوة بعض الترانيم التي هي عبارةعن صلوات للأعورالمنتظر، وبها عبارات للترحيب بذلك الجيش الذي جاءمنجدا لهم من سطوة المخلصين المتوحشين، قادهم بعدها إلى وسط المدينة، حيث الساحة الكبرى منها، فلما وصل الجمع، راحت أصوات الأبواق تعلو في المكان، وفجأة.. إذ ببعض سكان المدينة يخرجون من مخآبئهم في المباني، ويقومون بتوجيه هجمات بالأسهم

نحو جيش الغزاة وهؤلاء الخونة، فتأكد لجيش العدوأن ما حدث ما هو إلا مكيدة دبرت قبل قدومهم، فأتجهوا نحوأبواب المدينة للهروب منها، لكنهم وجدوا الطريق إليها مسدودا بتلك القوات التي دخلت من أبوابها فحاصرتهم، ولما لم يتبق وسيلة أمامهم للنجاة، إستدرجوا لمعركة لم يتوقعوا لها أن تكون بهذا الشكل، لم يكن القتال سهلا، فعدد الغزاة كان كبيرا، لكن الخطة التي وضعها قيادي المخلصين جعلت جيشهم يحظي بالكلمة العليا، فتحولت المدينة إلى مثوي أخير لجيش الغزاة على ظهرالأرض، بعد مذبحة دامية جعلت البرعمية تغرق في دماء القتلى من كلا الجانبين.

بعد أن هدأت روعة القتال، وتم التخلص من جثث القتلى المتناثرة في الأنحاء، كان الليل قدأسدل ستاره، فذهب (الناسك)إلى (عابد) الذي وجده خارج المدينة كعادته يتأمل السماء، فبدا كأنه ينتظر إجابة ما لا تأتي، فقطع (الناسك) على (عابد)تأمله بقوله:

- لم أكن في حاجة للبحث عنك، كنت اعرف أنني ساجدك هنا.

إبتسم (عابد)، ثم أمسك يد (الناسك) بيمينه، وأشارإلي السماء بيده اليسري، ثم قال:

- إنظر يا سيدي.. ذلك الكوكب الشمالي الذي يسبح في السماء وحيدا، هناك.. أتراه؟

- نعم، ماذا به؟

- لي تاريخ قديم معه، إعتدت أن أتأمله منذ أن كنت عبدا، كنت أشعرأنه تابعي، يتكدر لحزني، ويشع نورا لفرحي، اليوم هو قاتم اللون، إنه حزين يشعر بالوحدة، مثلي تماما.

- ألازلت تتذكرها ايا (عابد) ؟

نظر (عابد) الي الأرض، وقال بأسي :

- إنني لم أنساها، لا أكف عن الدعاء لها في صلواتي، وأطلب من الإله أن يجمعني بها مرة أخري.

- (عابد).. تستطيع أن تتزوج، أن تتخذ خليلة لك، فتنشيء أسرة ويصبح لديك أبناءا.

- سيدي، قد يبدو لك هذا أمراغريبا، لكني أري في ذلك خيانة لها، وهذا ليس من طبعي.

إبتسم الشيخ وقال :

- (عابد) الهارب، (عابد) المخلص، (عابد) المحارب، و(عابد) ال...

- عاشق، نعم.. إنني أعشقها، أراها في صحوتي ومنامي، كل ما كنت أرغب به هوأن تبقي على قيد الحياه، حتي ولوكانت ترتضي أن تحيا بتولا طوال عمرها.

- لست تحتاج أن أقول لك ..

- أعرف يا سيدي ما تريد أن تقول، وأفهمه جيدا.

تنهد الشيخ، ووضع ذراعه حول كتف (عابد)، ثم قال :

- منذ ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى (الواقية)، ومنذ تلك اللحظة التي وقعت فيها عيناي عليك، كنت أقرأ شيئا غريبا فيك لم أستطع أن أفهمه، لكن ذلك الشيء هو ما جعلني أبقي على حياتك، ليس القلادة كما قلت لك آنفا، في وقت ماكنت على وشك الكفر بشيء أنا شديد الإيمان به، إلا أن رجوعك ممتطيا (برق) ورؤيتك من بعيد جعل الإيمان بذلك الشيء يعودإلي قلبي مرة أخري، في الوقت الذي كان غيري يعتبرك عدوا كنت أري غير ذلك، كنت أري فيك مستقبلا اتمناه، وهانحن، إنك لم تخيب ظني، وهواجسي أصبحت حقيقة.

سكت قليلا وهو ينظرفي عيني (عابد)، والتين إمتلأتا بشرا وسرورا، ثم قال:

- إلا أن هناك الكثير مما لم يحدث بعد، وأنتظره.

سأله (عابد) :

- وماهو؟

رد الشيخ :

- ستعلم.. في الوقت المناسب.

- لا تكف عن قول ذلك لي، كما كان يفعل.

- من ؟

تنهد عابد، فقد أراد ان يفصح عن سر ما، فقال :

- مممممم صوت، صوت لطيف ما كان يرافقني، لكنه هجرني منذ زمن.

- صوت ؟

- نعم، كان يصاحبني عندما كنت عبدا في قرية العبيد، وهو من دفعني للهروب منها، لكنه هجرني بعد ذلك ولم أعد أسمعه.

بدا على وجه (الناسك) التعجب عند سماعه لذلك الكلام، فقال :

- لم تخبرني بذلك من قبل ..

- كنت أخاف أن أنعت بالجنون، فقد ألصقت بي تلك التهمة عندما كان يراني العبيد أتحدث لكيان خفي.

- لا.. لست بمجنون، على العكس تماما، إنك صادق فيما تقوله.

إنكمشت عينا (عابد)، وقال :

- وكيف تعرف ؟

- سأخبرك يا عابد.. قريبا جدا ستعرف.

هز (عابد) رأسه موافقا لكلام الشيخ الذي هم ليتركه، ولكنه عاد مرةأخري وقال له:

- نسيت أن أخبرك، لقد إتخذت قرارا إريدك أن تؤازرني عليه.

- وماهو؟

- ستعلم غدا.

ثم ذهب مبتسما، وترك (عابد) يواصل سهرته الهادئة مع النجم اليتيم، وكان هناك من يراقب هذاالمشهد منب عيد، من فوق أسوارالمدينة، كان ينظر إليهما والحسد يملأ رئتيه، ويأكل ضلوع صدره.

....

في صباح اليوم الثاني، وبعد الإنتهاء من مراسم صلاة الإشراق، نادي المنادي في الجميع بعدم الإنصراف، والمكوث من أجل امر هام يريد أن يطلعهم الحاكم عليه، فظل جميع الناس في أماكنهم دون حراك، فتحدث الناسك، وبدأكلامه بمدح الإله والثناء عليه، وشكره على ذلك النصرالذي أحرزه مخلصوه، إنتقل بعد ذلك إلى حديثه عن الإخلاص، تكلم عنه كأن هيعرفهم به لأول مرة، فتحدث عن ماهية الإخلاص وسبب إختياره، وعن كيفية أن يكون الإنسان مخلصا بحق، ثم بدأ يتحدث عن يوم أمس، وتلك المعركة التي كادت أن تقضي عليهم، لولا التفكير الحكيم في مواجهة ذلك العدوالظالم، وقال أن العدو سوف يشن عليهم بعد هذه المعركة هجوما شرسا، فبالطبع عندما لن يعودجيشهم هذا، سيقوم الغزاة أتباع الأعور المنتظر بالشك في الأمر، وسيجهزون جيشا جرارا لشن حرب شرسة لا هوادة فيها، ولأنهم يعلمون الوجهة التي ذهب إليها جيشهم، فسيهجمون عليها مباشرة، الأمر الذي لن يتمكنوا من الصمود أمامه، لذا.. فإن عليهم الخروج من المدينة والهجوم على القري والقلاع الأخرى واحدة تلو الأخرى، والتي لازالت تحت سيطرة الغزاة، لفك أسر العبيد، ونشر الإخلاص بين الناس، وتجميع أكبرعدد من الأتباع، وإن ذلك الخروج سيتطلب منهم الغياب عن مدينتهم لفترة طويلة في حرب قد تستمر لإعوام، سيلزمهم هذا حياة التنقل الدائمة دونما إستقرار، إعترف لهم ان القرار صعب، ولكنه لون من ألوان الإختبار للإخلاص الصادق، فليس من إخلاص صادق بدون إختبار يطلع عن مكنونات النفوس، والمخلص بحق هو من ينجح في ذلك الإختبار، قال إيضا أن كل شخص حر في إختياره، فالذي سيقرر الذهاب معهم فهو منهم، أما من قرر البقاء في المدينة، فلن يمس بسوء، ولكنه سيصبح ملعونا إلى الأبد، ثم أخذ يدعو بأدعية طلب فيها نجدة الإله ومؤازرته، والتثبيت على الإخلاص.

بالطبع كان الأمر بالنسبة للجميع صدمة لم يتوقعها أحد منهم، فبعد ذلك الوقت الذي مرعليهم وهم في وئام وإستقرار وسلام في تلك المدينة، وبعد

ذلك الجهد الذي بذلوه في بنائها، يجب عليهم الآن تركها، الإختيار شاق على النفوس، لكن ما الذي يجعل المخلص مخلصا ؟ إنه ذلك التعهد بينه وبين الإله بأن يهب حياته وكل ما يملك من أجله، من أجل نصرة رسالته، لذا فإن المخلصين حقا هم من أخذوا على عاتقهم حفظ العهد، أولئك من إختاروا البقاء في صحبة (الناسك)، أما القلة القليلة التي إثاقلت إلى الأرض، فهم من لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، لقد إرتاحوا إلى الرجوع عن الإخلاص وآثروا والبقاء في المدينة، حتي يعود الغزاة فينضموا لهم، فحكم عليهم أن يكونوا ملعونين إلى الأبد.

في صباح اليوم التالي، بدأالجميع في الإعداد للسفرالطويل، ثم خرجوا من ضيق المدينة، إلى رحاب الصحراء الواسعة.

***

obeikan.com

obeikan.com

-٢٨-

لم يكن خروجا في نزهة تنتهي بعد يوم أو يومين، او رحلة تنتهي بنهاية فصل من فصول المناخ، بل كان خروجا هدفه شن معارك متتالية على قري العبيد وقلاع الغزاة، بالطبع كانت لنشر الإخلاص، كان هذا هو الهدف الأساسي، يليه الرغبة في تحرير العبيد من ظلم المستعبد، أما السبب الثالث، فكان القضاء على سطوة هذا المستعمر الذي إغتصب أرضا بلا وجه حق، حصل عليها بالمكيدة والغدر، فكان حقا لزاما على أصحابه المطالبة به.

رغم ان قرار الشيخ قد بدا غير منطقي بالنسبة للبعض، إلا أن المخلصين أيدوه في قراره، إن له رصيدا من الثقة في نفوسهم، فأمر مثل ترك المدينة ومحاربة الغزاة بدون قاعدة تستند إليها قوات المخلصين كان دربا من الجنون، لكن الشيخ الحكيم لم يفعل هذا إرتجالا أو من نفسه، إنها تلك الرؤيا التي ظلت تأتيه كثيرا في منامه عندما جاء إلى البرعمية، حيث رأي رجلا- لم يتبين شكله - يقف فوق قمة أحد الأهرامات التي للغزاة، والجميع يسجدون له، ففطن في الحلم أن ذلك هو الأعور الذي سيقود العالم إلى الظلام وأنه على وشك الظهور، خاصة بعدما عرف من (عابد) سر بناء هذه الأهرام المنتشرة، فالقي هذا في نفسه شيئا من الخوف، ورأي أنه من الواجب البدء في إسقاط قلاع ومدن الغزاة، حتي لا يتمكن هذا الطاغية من أن يجد أتباعا له يساعدونه على ظلمه.

وهكذا، جال المخلصون في كل درب من دروب الصحراء باحثين عن قري

الغزاه في أرجائها، مغيرين على كل واحدة منها فيحررون العبيد، ويتكلموا في أهلها بكلمة الإخلاص، ثم يقومون بنحر رؤوس الحكام الظلمة، ازداد أتباع المخلصين يوما بعد يوم، وتطورت لديهم أساليب القتال، فقويت شوكتهم واصبح لديهم جيش عتيد لا يستهان بقوته، حتي وصلوا إلى إحدي القلاع وكانت أكبر من مثيلاتها السابقة، وبعد تحرير العبيد في القرية التي تجاورها، هم المخلصون لتسلق اسوار القلعة، لكن الجيش وجد صعوبة في إقتحامها وإجتياز أسوارها، فبالرغم من فرق المتسلقين التي للمخلصين، والتي شهد الجميع ببراعتها في تسلق الأسوار والموانع، إلا ان أسوار تلك القلعة كانت مختلفة عن مثيلاتها، فطبيعتها الملساء وهندسيتها المائلة بزاوية الستين درجة، بحيث ان بروز قمتها للخارج وقاعدتها للداخل، جعل من تسلقها امرا صعبا، بل كاد أن يكون مستحيلا، لذلك.. فقد عسكر المخلصون في مكانهم على أعتاب القلعة محاصرين لها، وأستمر الحصار لمد شهرين كاملين دون إحراز أي تقدم، خلال تلك الفترة أصيب الشيخ الناسك بمرض أعجزه وجعله خائر القوي، وتدهورت حالته مع الوقت، حتي إذا ما احس بأطياف الموت تحلق فوق رأسه، طلب الاجتماع بمجلس قيادة المخلصين في تلك الخيمة التي تمدد فيها، ثم قال لهم والوهن يعمه:

- إنني على مشارف الموت، وأنا أخاف عليكم الفرقة من بعدي.

قال (حجر):

- ليس لنا أن نفترق، لقد غرست في قلوبنا معاني الإخلاص الصحيحة، والمخلص حقا مربوط بعقود حديدية بأخيه المخلص.

- إلا ان النواقص البشرية تنساب بين الروابط، فتفتتها.

سأل (نعيم) :

- أبي.. لم تقول ذلك ؟

- إنني أقول ذلك لإنني أريدكم الا تجعلوا لتلك النواقص مدخلا بينكم، أريدكم ان تصارعوا الحسد والحقد، والغرور والطمع، الخيانة والكره، أقول

ذلك لإن الحياة ستجعلكم تختارون بين المباديء التي تعيشون من اجلها، وبين أضداد المحاسن، ليس هناك من رفقة حسنة إلا وحاول الشر التفريق بين أصحابها، عاهدوني على التمسك دائما أبدا مهما حدث، فليمد كل واحد منكم يده إلي ويعاهدني بصوت مسموع.

فمد الجميع أيديهم، ثم قالوا بصوت واحد:

- نعاهدك سيدي.

- والآن، فلابد من شخص بعدي يتولى اموركم، فلا خير في فئة بدون امير يقودها ويتولي أمرها، وقد إخترت أحدكم، إرتأيته الأصلح لتلك المهمة.

سأل (وافي):

- من هو يا سيدي (الناسك)؟

لم يرد الشيخ، لكنه سكت قليلا، فقال (حجر):

- من هو يا أبي ؟

رد (الناسك) :

- (أمير) ..

تساءل (نعيم):

- (أمير) ؟؟ نحن أربعة فقط يا أبي وليس بيننا خامس يدعي أمير.

قال الشيخ:

- لم تعد تسمي كما كنت من قبل

وأشار إلى (عابد) وهو يقول ذلك :

- أنت (أمير)، لست (عابدا) بعد اليوم، تقود الناس، فتعرفهم بالحق والخير، وترشدهم إلى الإخلاص.

خيم الصمت على المكان فلم يتحدث أحد، إلا أن (نعيم) قطع هذا الصمت فقال:

- ولكن يا سيدي.. !!

- (أمير) هو أفضل شخص يصلح لذلك، هو من سيقودكم إلى النصر، في أكثر

من موقف أثبت جدارته وحكمته في قراراته، ورؤيته البعيدة للأمور، ألا تشاركوني نفس الرأي ؟

قال (وافي) و(نعيم) :

- بلى يا سيدي (الناسك).

- أريدكم أن تخرجوا للناس وتبلغوهم هذا عني، قولوا لهم أنني إخترت (أمير) ليحل محلي، عاهدوهم على السمع والطاعة له، فهو ناسكهم الآن.

سكت قليلا محاولا إلتقاط أنفاسه، ثم قال :

- والآن إنصرفوا، أريد أن أبقي وحدي.

هم الجميع بالإنصراف، إلا أن الشيخ نادي على (عابد) وامره بالإنتظار ففعل، ثم قال الشيخ:

- أخبرتك أنني قرات أمرا في عينيك مذ رايتك لأول مرة، لم أكن على يقين منه، لكني تأكدت منه مع مرور الوقت والأحداث.

- نعم فعلت.

حينها قام الشيخ بإخراج لفافة كان يضعها تحت وسادته، ثم قال (لعابد):

- إجلس بجانبي.

اقترب من الشيخ وجلس بجانبه، فقال الشيخ :

- قديما.. منذ سنوات طويلة، جاء رجل إلى الشيخ المخلص وأعطاه صندوقا، وطلب منه ان يحتفظ بذلك الصندوق إلى وقت ما حتي يعود، لكن ذلك الرجل لم يعد أبدا، ظل الشيخ كاتما لسر ذلك الصندوق حتي مات، وقبل أن يموت، أوصي خليفته بالحفاظ على ذلك الصندوق حتي يأتي صاحبه ويطلبه، وأخبره ان لهذا الرجل طيفا يرافقه ويرشده، وسيكون معه مفتاح هذا الصندوق، لكن صاحب الصندوق لم يأت.

إرتسمت معالم الدهشة على وجه (عابد)، لكن الشيخ إستطرد :

- ومرت أجيال دون عودة صاحب الصندوق، وتنبأ أحد الخلفاء الناسكين بظهور فارس سيحمل مفتاح ذلك الصندوق، ثم سيجمع شمل قومه بعد

التشتت ويعيد الحق الي أهله، وهو ممسك بمشكاة الإخلاص، فبذلك يتم قتل الأعور.
قال (عابد) متعجبا :
- مشكاة الإخلاص.. !!
- نعم.. إنه ذلك الكتاب الذي كتبه أول مخلص على وجه الأرض، وفيه تعاليم الإخلاص الصحيحة.
أخذ يسعل، فمنعه ذلك من مواصلة كلامه، لكنه هدأ بعد نوبة سعال حادة، فقال:
- أخبرتك من قبل أننا عرفنا الإخلاص بالتواتر، لكننا كنا في حاجة إلى كتاب موثق نتداوله فيه من المواعظ والأحكام والشعائر السليمة التي تستقيم بها الحياة على الأرض.
- أنت تقصد ...
- أقصد أن معظم صلواتنا وشعائرنا ناقصة، ولن تكتمل إلا بوجود هذا الكتاب.
- وإين هذا الصندوق ؟
قام (الناسك) بفض اللفافة، ليظهر من تحتها صندوق معدني، ففتحه قائلا :
- هذا هو ..
- إنه مفتوح، إذن فالفارس قد ظهر.
- نعم.. إنه أنت يا (أمير).
- ماذا ؟
- لقد كنت تحمل مفتاح ذلك الصندوق طوال حياتك دون أن تعرف.
- كيف هذا ؟ أين هذا المفتاح ؟
- إنه في تلك القلادة التي ترتديها، إفصلها ..
أمسك (عابد) بالقلادة وقام بفصل جزئيها، فوجد المفتاح، لقد إكتشفه من قبل لكنه لم يعرف وقتها ما هذا، إرتبك (عابد) من المفاجأة وقال متلعثما :

- أ ... أنا.. مم ... الفارس ..
- نعم.. إنه أنت، كل الدلائل تشير إليك، إنظر ..
وأخرج (الناسك) من الصندوق مجلدين، أحدهما اخضر والآخر أسود، ثم قال (لعابد) :
- خذ.. هذين يخصانك، كنت أتمني لو إستطعت قراءتهما، لكنني كما قلت لك لا أعرف القراءة، أظن ان مشكاة الإخلاص هو أحد هاذين الكتابين.
- لكنني أنا أيضا لا اعرف كيف أقرأ.
- إذا كانت ظنوني صحيحة-واعتقد أنها كذلك-، فالطيف سيعود إليك مرة أخري ليعلمك كيف تفعل.
أمسك (عابد) بالكتابين، فوجد الغبار قد إعتلاهما، نفخ الهواء بفيه ليزيله، ثم قلبهما بين يديه وهو مندهش، فقال له الناسك :
- أعذرني على أنني لم أطلعك على هذا قبلا، فقد كنت أنتظر الوقت المناسب كي اخبرك، كنت أحتاج إلى التأكد من كل شيء.
تفكر (عابد) في نفسه، هل بالفعل كل ما يحدث حقيقة ؟ هل النبوءة صادقة ؟ هل ما يقوله الناسك أمر صحيح ؟ أم انها خرافات الموت ؟ سمع آنذاك صوت يقول له :
- لا.. إنها ليست خرافات الموت.
قال (عابد) وقد عرف صاحب الصوت :
- (رفيق)، إين كنت طيلة تلك المدة ؟
- كنت حولك دائما، أدلك وأحميك من أي سوء قد يلحق بك.
- هل هذا حقيقي ؟ هل أنا فعلا ذلك الفارس ؟
- نعم.. وكنت أعرف ذلك.
- ولماذا لم تخبرني ؟ ألم تكن هناك طريقة أسهل لمعرفة الحقيقة ؟
- مثل ماذا ؟ مثل محادثاتي ؟ أنظر إلى حياتك السابقة، هل كنت ستفهم وتعي الحقيقة إذا قلتها لك كما تفهمها الآن ؟

- معك حق يا (رفيق)، ولكن.. كيف عرف الناسك القديم بظهوري ؟
- كنت رفيقا له.
ثم وجه كلامه للشيخ قائلا :
- معك حق يا سيدي، إن (رفيق) ...
لكنه توقف عن كلامه، ذلك عندما رأي الناسك ثابت على وضعيته دون أي حركة طفيفة تدل على إستجابته لكلامه، فعرف أنه مات، بكي متأثرا لموته، وهو في حالته تلك، سمع صوت (نعيم) وهو يخطب في الناس فيخبرهم بوصية الناسك، ويطلعهم على قائدهم الجديد، عندئذ حضر (وافي) إلى الخيمة، ليخبر أمير بأن عليه الخروج لقومه حتي يخطب فيهم، فوجده يبكي، وعرف منه أن (الناسك) قد مات، حينها قال له (رفيق) :
- أخرج يا أمير، أخرج الآن، فقومك بإنتظارك.
- وماذا عن هاذين الكتابين ؟
- لا تقلق، فانا لن أتركك.
خرج أمير من الخيمة وبصحبته (وافي)، وجد اعدادا غفيرة من المخلصين ينتظرون قدومه، فمثل أمامهم على ربوة إرتفعت قليلا عن الأرض، حاول ان يتكلم فلم يستطع، لم يعرف ماذا يقول في هذا الموقف، فسمع (رفيق) يقول له:
- فض الكتاب الأخضر.
قال (عابد) بصوت خافت :
- لم ؟
- فقط إفتحه، واقرا اول جملة تصادف عيناك.
- (رفيق)، أنا لا أعرف كيف أقرأ.
- إقرأ ..
- (رفيق)..
- إقرأ ..

فض الكتاب الأخضر، ونفخ ليزيل ما تراكم من غبار على صفحتيه، فوقعت عينه على جملة ما، فما أن تكلم محدثا قومه حتي بدا يقرأ ماهو مكتوب امامه، وفي حالة من الإندهاش تملكته قال :

- سيروا في الأرض كيفما شئتم، إفنوا حياتكم كما أردتم، سافروا في رحلة إلى أي وجهة عزمتم، فمردكم إليه حتما، حين تكف الانفاس من شهيق الهواء، ويجف الحلق عن إبتلاع الماء، وتنتهي الأنفس من مراسم الفرحة والرثاء، إنكم له وإليه تعودون، إنظروا إلى الجبال وهيكلها، إلى السماء وعلوها، إلى البحار وعمقها، إليست ترجع إليه ؟ فكما هي.. أنتم كذلك.

تعجب المخلصون من ذلك الكلام، فعلي الرغم من أنه يصب في عقيدتهم إلا أنهم ولأول مرة يسمعون كلاما مثله، لكن (عابد) قطع عليهم تعجبهم قائلا :

- منذ سنوات وانتم تتبعون الإخلاص بناء على مفاهيم وصلوات تواترت من جيل إلى آخر، تدعون بأدعية دعاها آباؤكم، تناجون الإله كما فعل السابقون، لكن إين توجيهات الإله ؟ إين هذا العهد الذي ألزمنا به ؟ هل من الممكن أن يحاسبنا على أفعالنا دون أن يبعث إلينا بوثيقة تحدد لنا شروط الإلتزام بيننا وبينه ؟ لا.. قطعا لا، ما بيدي الآن هو ذلك العهد السماوي الذي كتبه أول مخلص على وجه الأرض منذ قديم الزمن، إنه مشكاة الإخلاص، على القدر الذي كنا فيه مخلصون إلا أننا كنا في غفلة عن حقيقة ما، وهي وجود ذلك الكتاب، وكما قادكم (الناسك) من قبل سأقودكم أنا، سأرشدكم إلى الحق والعدل، سأدلكم إلى سبل الخير والرشاد، لكنني لن أفعل هذا بناءا على موررايث إكتسبت وتم تداولها شفاهيا، سأفعل ذلك وانا معي هذا.

ثم رفع يده إلى أعلي وهي ممسكة بمشكاة الإخلاص وقال :

- إنه مشكاة الإخلاص.

لم يجد ردا من قومه سوي تلك الهمسات التي لم يفهم لها معني، فقد إعتلاهم الذهول مما سمعت آذانهم، فاستطرد كلامه :

- لقد كان هذا الكتاب معكم وبين أيديكم دون أن تعلموا ذلك، ولقد

اعطانيه (الناسك) قبل أن يموت، لم يعرف كيف يقرؤه، فهو لا يعرف القراءة، مثلكم جميعا، ومثلي أنا أيضا، لكن طيفا صاحبني هو الذي مكنني من قراءته الآن، إن طيفي هذا هو رسول من الإله ليرشدني، هو الذي جعلني أهرب من قبضة الغزاة، هو الذي دلني على الجبليين وعلي أهل الواقية، هو من جعلني أحتفظ بذلك المفتاح لفتح الصندوق الذي كان به هذا الكتاب.

وكان قد امسك بقلادته التي يرتديها حول عنقه، فقال :

- والآن هو يلقي بين يدي هذا العهد، كي لا نهيم في الأرض بدون دليل حي على صدق عقيدتنا، سأتبعه، بكل جوارحي سأتبعه.. اما بالنسبة إليكم، فمن شاء فليتبعني، ومن شاء فليكفر.

خيم الصمت على المكان، وتسمر الخلق في أماكنهم، فلم يعرف احدهم ماذا يفعل، لكن صوتا لأحدهم تعالي صداه قائلا :

- أنا سأتبعك ..

كان هذا صوت أخيه (نجد)، والذي جاء من بعيد ومثل أمامه، فقبل يده معلنا تأييده له، وما أن حدث ذلك حتي أتبعه صوت آخر يقول :

- وأنا أيضا ..

كان هذا (وافي) الذي نزل عن الربوة ليكون في منزلة أدني منه، ثم قام بتقبيل يد (عابد) هو الآخر، وكذلك فعل (نعيم)، وغيره وغيره، فتوالي المؤيدون واحد تلو الآخر، حتي حظي هذا النبي بتأييد كل المخلصين الذين تعالت أصواتهم فرحا لوجوده، اما (حجر)، فقد تثاقلت قدمه، لكنه عندما رأي نمو سطوة هذا القائد الجديد أرغم على التوجه إليه، فقدم إليه شعائر التأييد.

بعد ذلك، قال لهم الناسك الجديد أنه يجب عليهم إجتياز أسوار هذه المدينة، فسألهم إذا كان عند أحدهم فكرة ما لحل المعضلة التي يواجهونها، فرفع أحد المخلصين الشباب يده وقال إن لديه فكرة ما، وهي تتلخص في صنع قاذفات تلقي بالصخور على الأسوار فتحطمها، أعجبت الفكرة الأمير، وأعطي أوامره ببدء صنع تلك القاذفات، فوضع شكلا هندسيا لها، حتي إذا

ما بدا إستخدامها في الهجوم تحطمت أسوار المدينة، وأقتحم المخلصون قلعة أخري من قلاع الغزاة، ففعلوا بها ما فعلوا مع سابقاتها.

***

obeikan.com

-٢٩-

رغم الحزن الذي خيم على المخلصين لموت حاكمهم وقائدهم السابق، إلا أن ذلك لم ينسهم فرحتهم بالحاكم الجديد، فعلي غرار العادات القديمة لأهل (الواقية)، كان يجب الإحتفال بهذا القائد المتوج حديثا، والذي سيتولي أمرهم لفترة من الزمن لا يعلم منتهاها، لكن (امير) رفض ذلك، متعللا بحزنه على الناسك القديم، إلا أنه صديقه (وافي) ومن ورائه (نعيم)، أخبراه أن ذلك أمر واجب الحدوث، فهي عادة ويجب أن تستمر، خاصة وأن أمر تتويجه ليس خاصا بقيادة أهل (الواقية) فقط، بل إنه يخص كل المخلصين، فهو لم يصبح ناسكا فحسب، بل إنه أصبح رمزا لكل مخلص موجود على وجه البسيطة، وذلك لأنه يمتلك (مشكاة الإخلاص)، فهو نبي مختار، لم يجد (امير) بدا من الإنصياع إلى الأوامر، فنزل على رغبتهم في إقامة الحفل، إلا انه إشترط شرطا واحدا، وهو الإنتظار حتي مرور سبعة أيام من الحداد على موت الناسك القديم، وذلك تقديرا وإحتراما له، فوافق الجميع على ذلك الإقتراح الذي نم على الوفاء والإخلاص منه، لشخص الناسك القديم.

لم يكن شيء مما حدث قد خطر على بال (امير) من قبل، بل إنه لم يكن ليتخيل ان يحدث كل ذلك، إن أحداث ذلك اليوم كانت بمثابة محطة كبري في حياته، فقد عج بمفاجآت وحقائق سترت عن المعرفة لزمن طال أمده، حتي الإخلاص الذي ظن أنه مكتمل ولا تشوبه شائبه، وجد أن به نقص واجب إكتماله، فعمد إلى دراسة مشكاة الإخلاص ومعرفة ما خفي من تعاليم هذا الدين بمساعدة (رفيق)، ليعلمها للمخلصين من بعد ذلك.

في ذلك اليوم المحدد لإقامة الإحتفال بالناسك الجديد، تجمع الأتباع من كل جنس خارج الخيم، وشكلوا حلقات للإحتفال، حيث تمت إضاءة المكان بالنيران، وأعدوا الولائم الطيبة من الأطعمة والأشربة المحببة للنفس، غمرت الفرحة قلوبهم، فراحوا يتراقصون ويتغنون بالألحان العذبة، ولما جاءت لحظة التنصيب كان (نعيم) ممسكا بعباءة الناسك البيضاء، فألبسها (أمير)، وبذلك تم تنصيبه كناسك، رغم بساطة الإحتفال إلا أنه كان هاما، فأمر مثل تنصيب ناسك جديد ليس شيئا يمر عليه مرور الكرام، وبعدما إنتهي كل شيء وذهب الجميع إلى مضاجعهم، خرج (أمير) من خيمته بعد أن ترك (نجد)، والذي كان قد تشاجر هو وزوجته، فهجر مضجعها لينام في خيمة أخيه، أخذ (أمير) المجلد الأسود الذي كان بالصندوق ثم جلس وحده في الخلاء، وأخذ يتسائل في نفسه ساخرا، كيف يملك الإنسان مفتاح الحقيقة حول عنقه طوال حياته ولا يعرف ذلك ؟ إنه الجهل، نعم.. الجهل، ذلك المستنقع العميق الذي أجبر العبيد على الغوص فيه لزمن طويل، فلم يعرفوا أصلهم وحقوقهم، الجهل بقيمة الوجود الإنساني وسببه، الجهل بان هناك إله صنع كل تلك الأشياء الحية والميتة، فأستحق توحيد العبادة له دونا عن غيره، بدأ يتكلم بصوت مسموع محدثا نفسه :

- من دنيا العبيد إلى فردوس الإخلاص، قصة حياة تستحق التأمل.مممم، ما الذي يجعل حفنة من البشر يقبلون بالتخلي عن أرضهم ويقبلون بالعبودية بديلا عن الحرية ؟ هل ذلك بسبب إتقان المخادع ؟ ام ذلك لوهن اصابهم ؟

هنالك سمع (رفيق) يقول له:

- إنه التعلق بالسراب ..
- وكيف هذا يا رفيق ؟
- لم لا تفتح هذا المجلد الأسود الذي بحوزتك.
- حسنا.

قام (امير) بفتح الكتاب، فوجد في خلفية قرطاس المجلد جملة وهي

(مذكرات الراوي)، سأل (رفيق) :

- من هو الراوي ؟

- إنه احد المخلصين القدامي.

- وما معني مذكرات ؟

- سجل موثق بالأحداث اليومية التي مرت بحياته.

- ولم فعل ذلك ؟ أقصد.. لم قام بكتابة هذه المذكرات ؟

- إقرا لتعرف.

فتح الصفحة الأولي، فوجد مكتوبا فيها الآتي :

« لا أعرف تاريخ اليوم، أيضا لا اعرف لماذا عزمت على كتابة تلك المذكرات، لم يدفعني لفعلي هذا سوي ذلك الصوت الذي لا يفتأ يكرر على مسامعي أنه يجب على فعل ذلك، إذن فأنا أفعل هذا كي اتخلص من حديثه بخصوص هذا الشأن، إنه يحدثني الآن وانا اكتب تلك الكلمات «

قال (أمير) :

- يبدو أنه كان يقصدك.

- نعم ..

- هل كنت برفقته هو الآخر ؟

- لم لا تكمل قراءتك ؟

- حسنا ..

اكمل فقرأ التالي :

« إنهم موتي يسيرون فوق سطح الأرض، أعماهم الغبار، فلم تعد لديهم القدرة رؤية الأشياء على حقيقتها، تخلوا عن ذلك الشيء الذي يعطي معني لحياتهم ووجودهم، لقد دفنوا الإخلاص في لحد من اللامبالاة والسعي وراء الوهم والسراب، ظآنين بانهم تخلصوا من القيد الذي كاد أن يلقي بهم في مغبة الخطر والضياع، لم يفهموا أن بيعهم لإخلاصهم هو بيع للهوية والكيان.»

تسائل (أمير) :
- من يقصد ؟
- إنه يقصد السكان الأصليين للبلاد، يقصد آباءكم واجدادكم.
- هل باعوا إخلاصهم ؟
- نعم، ولذلك تفرقوا، وأصبحوا عبيدا.
واصل قراءته للمذكرات :
« جنحوا للحياة وماديتها، تصارعوا كما الوحوش في الغابات، اكل بعضهم بعضا مواتا من اجل فتات منتن، وضاعوا في متاهة مادية مصيرها الفناء»
سأل (امير) رفيقه مرة أخري :
- هل هكذا بدأ آباؤنا في أكل لحوم البشر ؟
- هكذا بدأ آباؤكم في السقوط.
وفتح صفحة أخري من منتصف المجلد، فوجد فقرة يقول (الراوي) فيها :
« الباطل غبار وهمي، والحق كيان حقيقي، والباحث عن الحق بصدق هو من يزيل ذلك الغبار بفرشاة من الإنصاف، فيري الحقيقة واضحة جلية أمام عينيه دون أي عوائق وهمية قد تشوش عليه رؤيته، إذن فالحقيقة والحق متلازمان تلازم الأرض والقمر، ومن يعرف الحقيقة لابد وأن يقع على الحق، فلإنه بخلاف حرفي التعريف، الحق جزئان من خمسة أجزاء من الحقيقة «
قال (أمير) :
- إنه حكيم.
ثم قام بإختيار صفحة عشوائية في نهاية المجلد، فصادفته صفحة بعينها، فاخذ يقرا منها، وكان مكتوبا فيها الآتي :
« اليوم إستيقظت وانا أشعر بدوار يفتك برأسي، معاقرتي للخمر في الليلة الماضية جعلني أعاني سكرات الموت حين صحوتي، حاولت نسيان الماضي في جرعات متتالية من الكؤوس لكن دون جدي، شعوري بالذنب نحو (رغد) يقتلني في كل يوم وليلة، فلولا معرفتها بي لما لاقت نهاية مثل التي لاقتها.»

obeikan.com

عندئذ سأل (أمير) :

- من هي (رغد) التي يحزن عليها هكذا ؟

- إنها حبيبته، ولقد قتلت.

- لماذا قتلت ؟

- لأنها كانت حبيبته، وسادته الذين كانوا يحكمونه لم يقبلوا بكونه من المخلصين، فهرب منهم، فقاموا بقتلها حتي ينالوا منه.

- المسكين.. فقدها مثلما فقدت حبيبتي، إنني أشعر بوجعه.

عاد فقرأ :

« لقد فشلت المهمة، وضحي (الطيار) بنفسه من أجل مفاداة بقية الفريق، ضحي بنفسه كي تظل الحقيقة على قيد الحياة، حتي إن كان الثمن هو موته ..»

سأل (أمير) :

- من هو الطيار ؟

- أحد المخلصين، كان في مهمة سرية هو وفرقته، وكشفت المهمة عن طريق خائن، فهوجموا، ولكي يحمي بقية الفريق، ضحي بحياته.

- تقصد أنه إنتحر ؟

- ليس كذلك، لكنه وازن بين الأمور، فاختار أقلها ضررا.

- أليس قتل النفس محرم في شريعة الإخلاص ؟

- الأحكام معلولة بالأسباب، ألا تذكر تلك القصة التي أوردت في مشكاة الإخلاص، والتي تحكي عن هؤلاء الذين ضلوا بعد إيمانهم، ولكي تقبل توبتهم، أمرهم الإله بقتل انفسهم ؟

- نعم.. أذكرها.

- هي كذلك، فقتل النفس محرم في الأصل، ولكن الإله وضعه كشرط لقبول توبتهم، على مثل ذلك يمكن قياس الأمور.

- ولكن.. هل قاموا جميعا بالإنصياع لهذا الشرط ؟

- لا.. إن فئة قليلة هي من أقدمت على فعل ذلك، فدائما.. فئة قليلة هي فقط من تمكن الإخلاص من قلبها، تلك الفئة هي التي تحظي بتأييد الإله ودعمه، وتوفيقها على الأكثرية المتذبذبة.
ثم عاد (أمير) إلى المجلد، فقرأ صفحة أخري غير تلك :
« إنني ذاهب إلى هناك، إلى أرض الصفوة، أن الصوت يدعوني كي أذهب هناك حتي أجد ضالتي، إنني اثق به.»
سأل (أمير) :
- ماذا يقصد بضالته ؟
- جدك الأكبر، (واصل).
- جدي ؟
- نعم.. لقد أعطاه (الراوي) تلك القلادة والتي تحوي مفتاح الصندوق بعد أن تبناه من يتمه.
- ما الذي حدث يا (رفيق) ؟ كيف نسي الناس تاريخهم وكل شيء عن أرضهم ؟
- لقد أجبروا على النسيان، الغزاة فعلوا ذلك بهم، ساعدهم في ذلك الإستعداد النفسي الذي لاقوه في أنفس الآباء.
واصل (أمير) قراءته :
«لكني لا أعرف إذا كنت ساعود هنا مرة أخري أم لا، لا أعرف إذا كنت اخط الآن آخر فقرة من تاريخ حياتي الموثقة أم ماذا، لكني أخطو كل خطوة وبداخلي بصيص من الأمل، إنني أقتات عليه، إنني أربط على قلبي حتي لا أفقد إيماني، رغم وجود ألف سبب يعلل فقدانه، لكني لا أملك شيئا سواه، لأ أستطيع أن أضيع آخر ذرة تعطي قيمة لحياتي البائدة، فيا من تقرأ كلامي، يا من عثرت على سيرة أيامي، أرجوك.. أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك، بنفسك التي بين جنبيك، بروحك التي بين عضديك، ألا تجعل حياتي تضيع هباء من أجل اللاشيء، لا تترك عظامي تتصدع تحت التراب كمدا، إنني أضع

ثقتي العمياء بك، أن يقدر الإله وجودك لتقرأ تلك الكلمات هي لمشيئة منه في أن تستمر إرادته في الأرض، وهي وعده بأن لا يطفأ نوره مهما حاول أعداؤه فعل ذلك، فلتعلم أني أحبك، أشتاق إليك رغم ما بيننا من حواجز ومسافات، أرجو يا صديقي أن أراك قريبا، وحتي ذلك الحين فإنني أتمني لك الحب والخير.. وصدق الإخلاص.»

نزلت دمعة من عين (أمير)، لقد لمست تلك الكلمات شيئا في نفسه فتأثر لها، واحس بنغزة من الحزن في قلبه على ذلك المخلص الذي مات فداء لإخلاصه، فاستشعر خياله أمامه، وقال له :

- وأنا أيضا يا صديقي، أشتاق إليك، وأقول لك إن حياتك لم تضيع هباء.

عند ذلك سمع (أمير) صوت جلبة وصريخ جاء من ناحية الخيام، فذهب ليستفهم عن الأمر، فإذا بأحد جنود المخلصين قد أتي إليه وهو يحاول إلتقاط أنفاسه بصعوبة، سأله (أمير) عن سبب تلك الضجة، فقال له :

- اخوك يا سيدي، مصاب بجرح قاتل.

- أين هو ؟

- إنه في خيمتك ؟

- وما الذي جعله يصاب بذلك الجرح ؟

- لقد حاول أحدهم قتله إعتقادا منه أنه أنت.

- ومن هو ذلك الغادر ؟

- لقد قبضنا عليه.

- من هو ؟- إنه، إنه ..

صرخ (أمير) بغضب:

- قل لي، من هو ؟

- إنه (نعيم) يا سيدي، (نعيم).

كانت صدمة بالنسبة له، فهو لم يتوقع من (نعيم) أن يأت بمثل ذلك الفعل، ركض (أمير) إلى خيمته، فوجد أخاه ممددا على فراش الأرضية، غارقا في

دمائه، فتوجه إليه وضمه إلى صدره، ثم قال :
- أخي، لا تخف، ستكون بخير.
فرد (نجد) وهو يحاول إلتقاط أنفاسه :
- لا.. لست خائفا يا (عابد).
صرخ (أمير) في رجاله آمرا إياهم بجلب ذلك القاتل، فما أن حضروا حتي قام من مكانه بعد ان أرخي جسد (نجد) على الوسادة، وخرج إليهم فرآهم ممسكين (بنعيم)، محكمين القبض عليه، وقف قبالتة وسأله:
- أنت ؟ أنت يا نعيم تريد قتلي ؟ أكاد لا أصدق ..
رد (نعيم) بصوت ممتقع بالحسد والحقد :
- بل صدق عيناك وقلبك ..
- لماذا ؟ لماذا يا (نعيم) ؟
- لانه لم يكن من المفترض أن تكون أنت خليفة الناسك.
- إنني لم أسع إلى هذا ذلك، لقد كان امرا مقدرا.
جحظت عينا (نعيم) وقال بغضب :
- بل إنك سرقت مني شيئا ليس من حقك، أنا الأحق بالخلافة منك، أنا الذي يستحق أن يكون كبير المخلصين وليس أنت، إنك (عابد)، أحد العبيد، وانا من المخلصين القدامي.
- نسيت يا (نعيم) أن الإخلاص يزيل كل الفوراق التي بين الناس.
- كان يجب على قتلك عندما وطئت بقدمك أرض (الواقية)، لا.. بل كان على قتل الناسك، لقد فضلك على أنا، أنا إبنه الأكبر.
- لتلك الدرجة تكرهني ؟
- وأكثر ..
قال (أمير) بأسف :
- لقد كنت بمثابة الأخ لي ..
سكت هنيهة ليفكر، ثم قال لمن حوله من الرجال:

Obeikan.com

- بخصوص شروعك في قتلي، فإنني أسامحك، أما بخصوص (نجد)، فما هو جزاؤه ؟

كان (حجر) حاضرا فقال بحزم:

- أن يقتل إذا ماتت ضحيته، وذلك جزاء من يقتل نفسا بغير حق.

حينها قال (أمير):

- أتمني من كل قلبي ألا يحدث ذلك، فكما أريد أن يعيش أخي (نجد)، لا أريد أن أمس بسوء إبن ذلك الرجل الذي إحتضنني وعلمني الإخلاص.

ثم أشار إلى رجاله ليأخذوه بعيدا، وأمر رجاله بجلب حكيم كي يداوي جروح اخيه، ثم رجع إلى الخيمة ليجلس بجانب أخيه المحتضر، فقال له وهو يملس على شعره بيده :

- لقد بعثت في طلب الحكيم.

قال (نجد) بصوت خائر :

إنني مسرور يا اخي الصغير، مسرور لأنني ساموت بعد ان رأيتك وقد أصبحت رجلا عظيما.

- لا تقل ذلك، حماك الإله من أي شر ..

- الموت ليس شرا يا (عابد)، إنني أحمد الإله أنني اموت بعد ان عرفت طريق الحق واتبعته.

- (نجد) ..

- إنني مودعك الآن، فمواكب السماء قد أتت لتغادر بي.

إحتضن أخاه الذي مات بين يديه، وبكي متألما دون أن يسمع لبكائه صوت، بعد ذلك تم تهيئة جسد الميت لدفنه بعد القيام بطقوس الوداع الأخير، وأثناء تلك الطقوس التي تضمنت صلوات وأدعية طلبا للرحمه لهذا الراحل، تطلع (امير) إلى الأفق، كانت الشمس على وشك الطلوع، فأخذ يتأمل مشهدين لطالما أحبهما، مشهد اتصال السماء بالأرض، ومشهد الكوكب الشمالي، المكلوم.

Opeikan.com

- سيدي.. سيدي الناسك، أتسمعني يا سيدي ؟

كان هذا نداء أحد الفتيان الذين جلسوا يستمعون بإنصات لحديث الناسك، والذي أراد من خلاله أن يلقنهم درسا عن سوء الغرور والحسد والطمع، وكيف أن كل شيمة من تلك الشيم من الممكن أن تغير من فطرة الإنسان التي خلق عليها، فتجعله يفقد ذلك النقاء الذي أوجد بقلبه لحظة وجوده في هذا العالم، فينقاد مثل الأنعام وراء غرائز دميمة، لم يورد قصة (نعيم) وفعلته الشنيعة التي حدثت منذ عشرة اعوام، فقد رأي أنه لو فعل ذلك فسيشهر به بين أبناء الجيل الجديد، ثم أنه راعي رابطة الحب والإخلاص التي نشأت بينه وبين (حجر)، فلم يرد أن ينعته احدهم بشقيق القاتل، هذا إلى جانب عرفانه بالجميل لأبيه الشيخ، فقد رأي أن مداراة الأمر عن هؤلاء المخلصين الصغار هو نوع من أنواع رد الجميل، ولون من ألوان الإخلاص، كان الناسك قد سرح في عالم آخر وهو يتكلم، لذلك ناداه الفتي، فلما إنتبه (أمير) له قال:

- أعذروني.. لقد كنت أفكر في شيء ما.

- سيدي، ما الذي يجعل الإنسان مخلصا بحق ؟

- إنه التفاني من أجل ذلك الإخلاص.

- كيف ذلك ؟

- الإخلاص رسالة سامية من الإله، تعطي للإنسانية معناها، لقد جاء الإخلاص من أجلنا، ليقيم العدل في نفوسنا، من ثم تستقيم حياتنا، جاء كنوع من التكريم لذلك المخلوق العاقل، فقد خلقنا وبنا شيء من الغرائز الحيوانية التي إن تحكمت بنا أصبحنا ننتمي إليهم بعشوائيتنا المختارة، ولإن الإنسان أيضا لا يستطيع بلوغ كل شيء بعقله، فقد جاء الإخلاص ليعرفنا ما الذي خفي عنا، فمن دونه لم نكن لنعرف كيف نتحدث إلى الإله، لم نكن لنعرف بهذا العالم الآخر الذي ننتقل إليه بعد الموت، لم نكن لنعرف الكثير من الطقوس والشعائر والعبادات، ولخفي علينا الكثير من الأمور التي بها

تنتظم حياتنا على الأرض، لذا فتقدير المخلص لهذه الرسالة الموجهة إلى بني الإنسانية يبرز في رفع رايتها، والدفاع والذود عنها ضد كل مكذب، بل التضحية بكل شيء غال ونفيس من أجل إعلاء كلمتها، وليس يستبين صدق إخلاص المخلص إلا في المواقف الصعبة، تلك التي تفرق بين ما هو حقيقي وما هو زائف، فوقوف الإنسان متحديا عاصفة ما من أجل إخلاصه، لهو دليل خالص على تمكن الإخلاص من قلبه، فالإخلاص ليس محض ظواهر مادية نمارسها بالجوارح، إنما هو جذر مغروس في القلب، وهذا هو الذي يجعل الإنسان يتصدي للباطل وهو متثبت من كلمة الحق التي تعطيه القوة.

سأله فتي آخر :

- سيدي، هل هزم المخلصون في معركة ما من قبل ؟

- نعم يا بني.

- متي كان ذلك ؟

- يوم تزعزع إيمان أتباع الإخلاص بذلك الغرور الذي تسرب إلى نفوسهم.

- وهذا سبب كاف ليجعل المخلصون ينهزمون ؟

- نعم، فنحن لا ننتصر بكثرة الاتباع والأنصار، بل ننتصر بصدق إيماننا، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإخلاصها، وصدق إيمانها.

سكت الفتي، لكن الناسك أحس برغبة منه في معرفة شيء خجل من السؤال عنه، فباغته الناسك قائلا :

- لا تخجل، إنني أشعر بذلك السؤال الذي وقف كالغصة في حلقك.

فقال الفتي على إستحياء :

- أعذرني يا سيدي، ولكني أريد سؤالك عن شيء.

- أفصح عن سؤالك.

- لماذا تضع هذا الوشاح الأسود حول عينك اليسري ؟

فإبتسم الناسك لسؤال الفتي ثم قال :

Obeikan.com

- لقد فقدتها في إحدي معاركي ضد الغزاه، أصابها سهم طائش ففقأها، ومنذ ذلك الحين وانا أضع عليها ذلك الوشاح كي لا يستوحشني أحد من الناس حين رؤيتي.

نظر إليهم نظرة تفحصية ثم سألهم:

- ها.. هل من سؤال آخر ؟ هل يريد أحدكم أن يستفسر عن أي شيء ؟

لم يلق جوابا لسؤاله، فقال:

- إذن فقد إنتهي درس اليوم، لا أعرف إن كان سيتاح لي أن أحدثكم عن درس جديد في يوم الغد أم لا، فنحن على اعتاب تلك المدينة التي توشك على السقوط، لكنني اعدكم أن الدرس القادم سيكون قريبا، وسوف يتناول صدق الإخلاص، حينها ساستفيض معكم في شرحه، فقد لمست فيكم الرغبة في فهم هذا الموضوع بعمق أكبر.

قام من مجلسه وخرج من الخيمة، كان جنود المخلصين يعدون أنفسهم للهجوم على تك المدينة التي دام حصارها لأكثر من خمسة شهور متتالة دون إحراز أي تقدم، فقد أحاط أهل المدينة انفسهم بخندق عميق صعب على المخلصين عبوره، وذلك عندما علموا بقرب وصول ذلك الجيش الضخم الذي لا يقهر، فقد إنتشرت أسطورته في انحاء البلاد عن إطاحته بكل المدن والقلاع والقري التي كانت للسادة، حتي لم يتبق من وجودهم سوي تلك المدينة الأخيرة التي حدق الخطر بها، طبيعة المنطقة التي كانت بها المدينة هو الذي جعلها مانعة طوال تلك الفترة أمام المخلصين فلم يستطيعوا إقتحامها، فهي تطل على البحر من ناحية الشمال، وتحيطها الجبال الساحلية الشاهقة من كل جانب، صانعة بذلك اسوار طبيعية من المستحيل تجاوزها، زاد صعوبة إقتحام المدينة ذلك الخندق المحفور حديثا، والذي يحيط بمداخل المدينة، لكن الناسك قد واتته فكرة في منامه، فأصبح وهو عازم على القيام بها، فذهب إلى جنوده الذين كانوا يتدربون ليل نهار وقد ترأسهم (وافي) و(حجر)، ولما وصل إليهم، وجدهم منهمكين في إعطاء الأوامر والتوجيهات

للجنود، فسأل (وافي) :
- كم لدينا من الخيول ؟
فأجاب :
- لدينا الكثير منهم.
- هل العدد كافي ؟
فسأل (حجر) :
- كافي لماذا ؟
- لردم الخندق ..
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أن نذبح الخيول، ونلقي بأجسادها في الخندق، فيمتلأ عن آخره، فيصبح إجتياز الخندق حينذاك أمرا ممكنا.
أصابت الدهشة (حجر) و(وافي)، فقالا دون إتفاق :
- ماذا ؟
- لا يوجد لدينا طريقة أخري نستطيع بها إقتحام المدينة.
قال (حجر) :
- دوما تفاجئنا بأفكارك المبتكرة، والغريبة.
ضحك (أمير) حتي بدت نواجذه، لكن (وافي) قاطعه قائلا :
- وماذا عن (برق) يا (أمير) ؟
سكت فلم يعقب، فقد إصطدم بثغرة في خطته لم يفكر فيها، لكنه قال بصوت حزين :
- سيلقي مصير قرنائه.
- أأنت واثق مما تقول ؟
- أفهم ما ترمي إليه، لكن الوضع كما تري، والهدف أسمي بكثير، ونحن لا نملك خيارا آخر.
بدأ الرجال في التجهيز لتنفيذ تلك الفكرة التي طرأت للناسك، فقاموا بجمع

obeikan.com

كل الخيول وهيأوها للذبح وإلقاءها في فوهة الخندق، أما (أمير)، فقد ذهب إلى (برق) وهو يشعر بالحزن، فإلي جانب أنه سيفارقه بتنفيذ تلك الخطة التي تتضمن قتله مثل غيره من الخيول، فهو لن يشاركه فرحته عندما يقتحم آخر مدينة للغزاة في تلك الجزيرة الكبرى، لن يشاركه فرحة إنتصار الإخلاص على الباطل، فأقترب منه على إستحياء، ثم قام بتحويط رقبته بذراعه، وأخذ يكلمه محاولا مصارعة دموعه، فقال :

- لقد كانت رحلة طويلة يا صديقي، كنت خير معين فيها، لا أعرف ماذا سأفعل من دونك.

صهل (برق) ففهمه (أمير)، وقال :

- (رفيق) ؟ أنا لا أعرف أين ذهب، لقد هجرني ثانية بعد أن علمني دراسة المشكاة، أشعر أن مهمته إنتهت معي، فتلك المرة طال غيابه.

سكت قليلا ثم قال :

- أتعرف.. سأراك مرة أخري، إنني متأكد من ذلك، ولكن تلك المرة ستكون في الوادي المقدس، سنركض هناك سويا بين تلك البساتين الخضراء التي لا تنتهي، دون ان نصاب بخوف أو إعياء.

كان (حجر) حاضرا يشاهد ذلك المشهد متأثرا له، فنادي الناسك قائلا :

- سيدي..

نظر إليه (أمير) فوجده ممسكا بالسيف الذي سيقوم بنحر (برق) به، فقال له:

- لا.. أنا سأذبحه.

- ولكن ... هل ستقدر ؟

- نعم ..

اعطاه (حجر) السيف، فما أن رأي (برق) ذلك حتي أرخي أقدامه الأربع ليهبط على الأرض، فهم (أمير) أنه فعل ذلك كي يسهل عليه ذبحه، فأيقن من نفسه أن تلك الرؤيا التي رآها في منامه هي إشارة من الإله كي ينفذها، فنحر

(برق) وهو مطمئن النفس، بعد ان ودعه قائلا :

- إلى اللقاء يا صديقي.. في الوادي المقدس.

***

obeikan.com

obeikan.com

وقفة رابعة.. وأخيرة

لا يلزم الأشياء أن يكون كيانها الملموس هو جوهر حقيقتها، فالمظاهر خداعة، والإنسان كثيرا ما يقع فريسة لهذا الفخ المادي، حتي أولئك الذين سعوا نحو الحقيقة وبحثوا عنها، قد يقعوا في مثل ما وقع فيه العوام من الناس، يوما ما ظلم رجل من آخر كان أكثر أهل الأرض قربا من الله، فأتهم الأخير هذا الأول بأن فعله ليس فيه شيء إلا الشر، وللإنصاف، فقد كان هذا الظاهر من فعله، لكنه في حقيقة الأمر كان لا يبغي سوي الخير، فهو لم يقتل من قتل، ولم يخرق ما خرق، ولم يفعل ما فعل إلا لمعرفته المحجوبة لتبعات الخير الناشئة عن هذا الحدث المثير للتعجب وسوء التفسير.

من أجل الوصول إلى اقصي درجات النقاء، يحتاج الذهب إلى حرارة قصوي تفصل عنه الشوائب، وللحصول على حليب صاف، خال من المخلوقات البكتيرية القاتلة، يحتاج إلى وضعه في ظروف حرارية قاسية متبادلة، ولإن بعض القواعد تسري على الأحياء كما تسري على الجمادات، فلكي تطهر الإنسانية من شوائبها المنتنة عليها الخضوع لتجربة مؤلمة، الأمر في بدايته قد يبدو شرا، لكنه يفضي إلى خير مردود من أصوله، لذلك، فلو كان هذا الذي طوي ذكراه الزمن يعلم حقيقة ما في ملعونه من خير، لما قال عنه :

- « تبا لهذا الغبار اللعين».

إن غبارا قد يثير سخط بعض البشر وحنقهم قد يحمل في طياته خيرا مستورا، إذ يحفظ مالهم من حق مسلوب رغب مغتصبوه في محو أي أثر يدل عليه، فيكون هذا الغبار حارسا أمينا لهذا الحق، حتي إذا ما حان الوقت، يأتي

obeikan.com

مختار في علم الغيب فينفضه، ليظهر الحق جليا أمام أعين الناظرين، ولا يكتفي الأمر عند ذلك الحد، بل يتطاير الغبار في الأفق، ويصيب المهلكات اللامرئية للبشرية، فينقذها من خطر داهمها على حين غرة، ثم ينجلي، فيذهب عن الدنيا بعدما ترك أثرا خالدا له فيها.

obeikan.com

-٣٠-

ما حدث لم يكن متوقعا على الإطلاق، بل كان ضربا من الخيال الذي لم تصدقه أعين كل من المخلصين والغزاة، فبعد أن مر الجيش المهاجم فوق جثث الخيول التي ملأت الخندق إلى أعلاه - وكانت الخطة تتضمن هدم أسوار المدينة بقاذفات الصخور بعد المرور من فوق جسر الخيول - حدث ما خالف كل الخطط والتوقعات، فحين وضع آخر فرد من المخلصين قدمه على أرض الضفة الأخرى، إنهارت أسوار المدينة من تلقاء نفسها، وأستحالت صخورها الضخمة التي ينوء بحملها أولي القوة من الرجال، إلى ذرات من غبار تتلاقفها نسائم الهواء، المشهد كان أغرب من أن يستوعبه عقل أحد، حتي (أمير) نفسه تعجب مما حدث، ولم يجد تفسيرا لذلك سوي أنه آمن في قرارة نفسه أن ما حدث إنما هو معجزة من الإله، ليثبت نفوس المخلصين ويخبرهم انهم على طريق الحق، لقد كان الموقف بمثابة تمثيل لإنهيار الباطل أمام قوة الحق، جعل ذلك أمير يتساءل في نفسه:

- ما الذي يجعلنا نحتاج إلى تثبيت الآن ؟ ماذا يوجد خلف تلك الأسوار المنهارة ؟

تخوف عابد، فقد أحس أنه وأتباعه على وشك اللقاء بشيء مجهول، هذا الذي يحتاج إلى إيمان راسخ وقلب واثق متثبت من إخلاصه.

صاح بصوت تردد بقوة في أذن من حوله من المخلصين :

- ذكروا أنفسكم بالإخلاص، ذكروا أنفسكم بكيانكم وهويتكم، فإن آفة النسيان لا تعادلها آفة، النسيان رذيلة، والذكري فضيلتها، تذكروا، طلبا

Obeikan.com

للهداية ورغبة في الحياه، فمن أبتلي بالنسيان أصبح أسيرا للضياع، ومن أصبح أسيرا للضياع، فالموت خير له.

كلمات لا يعلم مردودها في نفسه، جرت على لسانه دون أي إرادة منه، لكنه ترك نفسه لرحمتها، فلم يكتمها.

إختفي الغبار رويدا رويدا، فأتضحت ملامح المدينة من الداخل بعدما كانت مختفية وراء ذلك الساتر الترابي الكث، فرأي المخلصون ذلك الهرم الكبير الذي إستتر بتلك الأسوار العالية، كان يتوسط المدينة، اما على اعتابها، فقد وقف خلق كثير من أبناء الغزاة، والذين راعهم مشهد إنهيار أسوارهم المانعة ورؤيتهم لذلك الجيش الجرار، فتجمدوا في أماكنهم، بعدما أعلنوا إستسلامهم بإلقائهم أدوات الحرب من إيديهم، لقد وجدوا أنفسهم أمام قوة جبارة من المستحيل هزيمتها، فآثروا التسليم على المقاومة والدفاع.

غمد (أمير) سيفه، وبدأ يخطو سيرا نحو المدينة هو وأتباعه، متأبطا مشكاة الإخلاص ومذكرات (الراوي)، حاذاه عن يمينه (وافي)، الخل الوفي، وعن يساره (نعيم)، الأخ الذي لم تلده أمه، كانت كل خطوة يخطوها تجر معها ذكري بائدة من تاريخ حياته، منذ أن بدأ يعي وجوده كمخلوق بشري، حتي تلك اللحظة التي يسطر فيها الزمن تاريخ حقبة جديدة للإخلاص، أحس أنه يولد من جديد، فبدأ يشعر بالأشياء من حوله كأنه يتعرف عليها لأول مرة، نظر إلى السماء فوجدها خالية من أي غبار يغبش رؤيتها، فرآها صافية صفاء لبن الإبل الطازج، خالية من أي سحب معكرة، إلا عن القليل منها والتي أضفت جمالا إلى السماء، رأي سربا من الطيور يتغني بأجمل الألحان، يطير عن يمين السماء خارقا حدود الهواء، تمني حينها لو انه يمتلك تلك الأجنحة، والتي تجعلهم ينتقلون من مكان إلى آخر بسهولة دون أي عوائق، فيعلو إلى السماء دون أن تمنعه أي قوة جاذبة من الأرض، مرت نسائم خفيفة تخللتها رائحة البحر، تلك الرائحة التي داعبت خياشيمه فذكرته بذلك اليوم الذي إختفت فيه الفتاه، فراح يبحث عنها ليجدها في قبضة (الجبليين)، يومها

Obeikan.com

تعرف أول مرة على البحر، نظر إلى (وافي) وأبتسم، ذلك الصديق الذي فتح عيني صاحبه على الحقيقة، وقف فجأة في مكانه ليقف الجميع تبعا له، جثم على الأرض، وأغترف حفنة من الرمال في يده وأخذ يشتمها، لم تكن لها رائحة مميزة، إلا أنه أحس بأن عبقها أجمل من عطر أجمل وردة برية، فقد ذكرته بذلك الشرك الرملي الذي وقع به قبل أن يصبح واحدا من اهل (الواقية) وتابعا من أتباع لإخلاص، نظر إلى (حجر) الذي جثم بجانبه وأبتسم له، ذلك الرجل الذي جعل الإخلاص قلبه أرق من قطرات الندي، لقد أيده بكلمة الحق عندما كان اخوه (نعيم) مخطئا، قام مرة أخري وواصل طريقه، رغب في إحتضان هذين الصديقين بروحه، لقد وقفا بجانبه وسانداه طوال مسيرته دون كلل أو تعب، لم تكن إبتساماته لهما مجرد فرحة بوجودهما إلى جانبه، بل كانت ردود شكر وعرفان لهما على ما فعلاه معه من جميل لا يرد.

وصل الناسك إلى أطلال الأسوار المنهدمة، وما أن فعل حتي أصبح أهلها يفسحون له ولأتباعه المجال كي يسيروا بحرية، حينها أخذت أعينهم تتفحص ذلك القائد برهبة طغت على نفوسهم، في حين لم يلق لهم بالا، فقد كانت عيناه معلقتين على ذلك المبني الهرمي الذي أحس برغبة في صعود درجاته، ولما مثل امامه، أخذ يتأمله وينظر إليه بإحتقار، فقد تذكر كم تلك الدماء التي اريقت في بناء مثل تلك المباني، بدأ يتسلقه وهو ينظر إلى ذلك العالم المحيط، مشهد الجبال كان جميلا في تلك اللحظة، فهي تنحدر من حوله مع صعوده، كل شيء يفقد هيئته الحقيقية ويصغر في عينه، ولما وصل إلى قمة الهرم، أمسك بمشكاة الإخلاص بيده اليمني ورفعه عاليا، رغبته في صعود هذا المبني لم تكن محض فكرة تاقت نفسه لتحقيقها، بل كانت رسالة أراد الجميع أن يفهمها، كان يريد أن يقول للغزاة أن تلك الأهرام التي سخرتم أصحاب ذلك البلد في بنائها والتي تعتبرونها قمة مجدكم - فهي معدة لإستقبال الأعور المنتظر-، هاهي تحت قدمي ذلك الرجل الذي يتخذه أتباعه رمزا للإخلاص، هاهو الإخلاص يعلو فوق كل شيء.

هلل المخلصون الذين فرحوا لرؤيته ذلك المشهد الرائع، فقد أصبحت السيادة لهم الآن، في حين لم ينبت الغزاة ببنت شفة، لكن شيئا مفاجئا حدث فغير مجري الاحداث وأصاب الجميع بالخرس، فقد خرج أحد الكهان من المعبد مهرولا نحو ساحة المدينة، وقد إعترته دلائل الإستبشار، فصرخ في الجميع قائلا:

- إنه هو.. لقد ظهر.

لم يفهم منه أحد ما كان يرمي إليه، لكنه إستطرد كلامه صارخا، فقال :

- إنقشعت الغمة عن العالم.. وجاء إليكم.. ذلك الفارس الرحال.. مطموسة عينه اليسري.. بزغ من تحت أرجلكم.. لتتم إرادته.. فتستحيل الأسوار المانعة.. غبارا أمام بصره.. إنه يقف فوق قمة المجد.. ليبعث الوحش من موته.. ويجلسكم على عرش العالم.

لم يفهم (امير) ما الذي يحدث في الأسفل، فعلو إرتفاعه لم يسمح له بأن يتبين كلمات ذلك الرجل، لكنه فوجيء بهولاء الخلق الذين كانوا في الأسفل يسجدون، منهم الغزاة ومنهم من كان من المخلصين، سجدوا جميعا إلا قلة منهم، تعجب لذلك، فهو لم يعرف لم سجدوا، ولم يخطب فيهم خطبة الإخلاص بعد، لكنه رجح أن يكون كلام ذلك الكاهن هو سبب سجودهم، هم بالنزول ليستفهم عن السبب، لكنه سمع صوتا يقول له :

- لا تفعل ..

- رفيق !! أهذا أنت ؟

- نعم يا (امير) ..

- لماذا لا أفعل ؟

- لقد إعتقدوا أنك أنت الأعور المنتظر، فقد تحققت النبوءة بغزوك لمدينتهم، ونزولك إليهم الآن لن يفيد بشيء

صدمه الخبر، فقال :

- ماذا ؟ وهل أنا كذلك ؟

obeikan.com

- .....
- لماذا تصمت يا (رفيق)، هذا ليس وقت مناسب للصمت.
- .....
- أنا لا أفهم شيئا.. من أنا ؟ هل أنا الفارس حامل مشكاة الإخلاص ؟ ام أنا الأعور المنتظر ؟
- إختر يا (عابد).
- أختار ؟ كيف الإختيار وأنا في بحر من الإحتيار ؟
- إختر يا (عابد) ان تكون ما يخبرك به قلبك، فإما أن تكون الفارس، الحامل لمشكاة الإخلاص، أو ..
- أو ماذا يا (رفيق)، قل لي ..
- لا يجب أن تعرف الآن، لكل شيء وقته المحتوم.

خفق قلب أمير بقوة ولم يعرف ماذا يفعل، لكنه سرح في حديث خفي بينه وبين نفسه :

« فوق مرتفع شاهق أكاد من خلاله أن ألمس السماء الأولي.. وبين أطراف الرداء السحابي الأبيض.. بدت قمم الجبال البعيدة خيام منصوبة فوق بحر واسع من الرمال الذهبية.. تكشفت الشمس من ورائها.. رويدا رويدا، كفتاة عذراء.. تختلس النظر إلى رجل ألهب وقود الحب في مهجتها.. رغبة في إحتضان الماضي تنساب في جسدي من ذلك المشهد.. الذكريات تجذبني إليها جذبا.. ورغم إن وجهها يشبه القمر في طلته.. لكنه لا يغيب مثله.. إنه ماثل في عقلي دائما وأبدا.. حياتي السابقة تمر من أمامي في طرفة عينه.. إنها سريعة مثل (برق).. وصلت إلى غاية ظللت أبحث عنها طيلة حياتي.. وها أنا في مغبة الريح أواجه مصير العالم وحدي.. لا أستطيع النظر إلى أسفل.. ليس لأنني لا أحب أن أنظر تحت قدمي وأنني دوما أحب أن أتامل السماء.. لا مجال للكذب على نفسي الآن.. إنني أخشي ما سوف أراه مرة أخري.. سأغلق عيني لعل ذلك الخوف بداخلي يهدأ.. سأزفر الرعب مع الهواء الخارج من

صدري.. بعدها.. سأتخذ القرار الصحيح.. الهواء.. أشعر بالهواء القوي يهزني هزا.. يكاد يلقي بي من فوق ذلك الأرتفاع الخيالي الذي لم أبلغه مسبقا.. أشعر أيضا بأن جسدي يزداد خفة ويدي تتمددان.. أرغب في إلقاء نفسي بين يدي الهواء الرقيق ليحملني بعيدا.. بعيدا جدا.. عن تلك اللحظة.. عن ذلك المكان.. أشعر برغبة في الطيران.. سأطير.. سأطير بعيدا ولن تستطيع أي قوة اللحاق بي.. سأطير أسرع من أي طائر.. إنني أطير بالفعل.. إنني خفيف كريشة في يوم ربيعي الطقس.. لقد برحت مكاني.. لقد أرتفعت.. لقد أصبحت حرا.. الأشياء من تحتي تضمحل أكثر فأكثر.. وجسدي مستمر في السباحة بين موجات الهواء.. إنني أترقي.. أترقي إلى الأعلي.. إلى اللانهائية.. سأفتح عيني لأري أي منزلة سمائية بلغت.. سأتطلع على وضعي الحالي في الكون.. لكن.. إنني.. إنني لازلت في مكاني.»

فتح عينه ليجد الساجدون كما هم، دقق النظر فوجد أن (حجر) و(وافي) كانوا من تلك القلة التي لم تسجد، حاول التفكير في حل ليخرج به من ذلك المأزق، لكن عقله أصيب بالشلل، فلم يدر بنفسه إلا وهو يفتح مذكرات الراوي ويقرا منها التالي :

« لكني لا أعرف إذا كنت ساعود هنا مرة أخري أم لا، لا أعرف إذا كنت اخط الآن آخر فقرة من تاريخ حياتي الموثقة أم ماذا، لكنني أخطو كل خطوة وبداخلي بصيص من الأمل، إنني أقتات عليه، إنني أربط على قلبي حتي لا أفقد إيماني، رغم وجود ألف سبب يعلل فقدانه، لكني لا أملك شيئا سواه، لا أستطيع أن أضيع آخر ذرة تعطي قيمة لحياتي البائدة، فيا من تقرأ كلامي، يا من عثرت على سيرة أيامي، أرجوك.. أستحلفك بكل ما هو عزيز لديك، بنفسك التي بين جنبيك، بروحك التي بين عضديك، ألا تجعل حياتي تضيع هباء من أجل اللاشيء، لا تترك عظامي تتصدع تحت التراب كمدا، إنني أضع ثقتي العمياء بك، أن يقدر الإله وجودك لتقرأ تلك الكلمات هي لمشيئة منه في أن تستمر إرادته في الأرض، وهي وعده بأن لا يطفأ نوره مهما حاول

أعداؤه فعل ذلك، فلتعلم أني أحبك، أشتاق إليك رغم ما بيننا من حواجز ومسافات، أرجو يا صديقي أن أراك قريبا، وحتي ذلك الحين فإنني أتمني لك الحب والخير.. وصدق الإخلاص.»

حينما أنهي قراءة تلك الفقرة تذكر قصة القوم الذين كفروا بعد إيمانهم، ثم أرادوا التوبة من بعد ذلك، فقتلوا أنفسهم كما أمرهم الإله، تذكر أيضا قصة (الطيار)، وكيف انه ضحي بنفسه من أجل أفراد فرقته، واتته فكرة ما، وجد انها الوسيلة الوحيدة التي ستجعل العالم يتخلي عن أسطورة (الأعور المنتظر)، فليس من حل آخر يحافظ به على الإخلاص وينقذ الناس من تلك الفتنة التي وقعوا فيها، أيده (رفيق) في ذلك وأخبره بأن تفكيره هداه لأسلم إختيار، سأله (أمير)، إن كان هذا الوضع قد تبادر لذهن أحدهم من قبل، فأخبره (رفيق)، أن هناك من كان يتمني أن يكون في مكانه، لكن الأقدار مخطوطة منذ القدم، ولكل شخص طريق محتوم عليه سلوكه، إذ لا يقدر على فعل الشيء إلا الموكل به، فكل ميسر لما خلق له، نظر (أمير) تحت قدمه، ولأول مرة في حياته يري إنعكاس ظله تحت قدميه، قال (لرفيق) وهو يبتسم تعجبا :

- رفيق.. لقد وجدني ظلي.
- لا.. بل أنت الذي وجدته.

نظر (أمير) حوله، ثم قال متعجبا :

- غريب هذا، فأنا لا أري أثر لأي غبار ..
- ذلك لانه أدي مهمته، فتحتم عليه الإنقشاع.
- أي مهمة تلك ؟
- لقد قضي على مهلكات العالم، لتسود المنجيات.

إبتسم (أمير)، فقد فهم ما يعينيه، ثم سأله :

- قل لي.. لم عدت الآن ؟ لترشدني إلى الإختيار الصحيح ؟
- لا.. فأنا أثق بإختيارك.

- إذن فلماذا ؟

- لأني بوعد قطعته على نفسي.

- وما هو ذلك الوعد ؟

- ألا أتركك.

جالت بعقل (عابد) خاطرة، وهي أنه منذ أعوام طوال أقدم على مثل هذا الفعل من أجل فتاه أحبها، أما اليوم.. فهو يفعل ذلك من أجل هدف أسمي وأرقي، إنه يفعل ذلك من أجل الإخلاص، تذكر قول (وافي) عندما أخبره أن هناك غاية من بقائه على قيد الحياه، لقد عرف الآن غاية بقاءه حيا ذلك اليوم، نظر (أمير) إلى السماء فرأي الكوكب الشمالي متألقا، بدا بشكل أكبر مما هو عليه، صورتة كانت أوضح من أي مرة مضت، إبتهجت نفسه لرؤيته على تلك الحال، فأرتسمت إبتاسمة فرح على شفتيه، حينها.. أخرج أحد خنجريه من تحت ملابسه، ذينك الذي قتل بهما الحراس أثناء محاولته الهروب من قرية العبيد، ونحر نفسه على مرأي من الجميع، فخر صريعا من فوق قمة الهرم.هؤلاء من أخلصوا بصدق، وأفنوا حياتهم من أجل الإخلاص، ليس لأجسادهم أن تفني في الأرض، لذلك عندما هرول إلناس إلى موضع سقوط (عابد) كي يلتمسوا أثرا له، لم يجدونه، كان قد إختفي، غادر بجسده وروحه وترك الأرض، ولم يتبق منه أثره شيء سوي مشكاة الإخلاص وخنجره المخضب بدمه، عثر عليهما طفل أعور، فأخذ يلهو بهما، أما عن ظله، والذي ظل غائبا عنه طوال حياته، فقد بقي في الأرض.. حتي حين.

***

تمت